

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

# موطن الألم

(رواية)

تأليف: دوبرافكا أوجاريك  
ترجمة وتحرير: أ. د. محمد فرغل  
مراجعة: د. سامية دياب

أكتوبر 2011



الفنان: أحمد مقيم

Hear my Heart

رصاص على ورق

٣٦ X ٤٠ سم



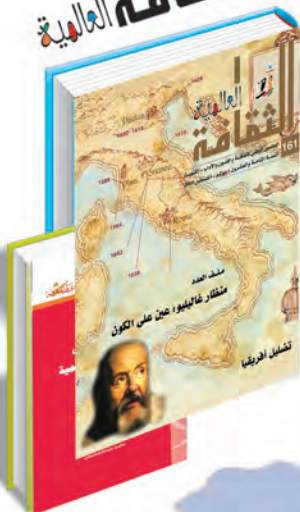
# عالم الفكر



## عظم المعرفة



# الثقافة العالمية



## الإصدارات الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الفنون  
جزيرة



المجلس  
الوطني  
للثقافة  
والفنون  
والآداب  
الكويت



إبداعات عالمية



المسرح العالمي



الإصدارات  
الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

# موطن الألم

(رواية)

تأليف: دوبرافكا أوجاريشك

ترجمة وتقديم: د. د. محمد فرغل

مراجعة: د. سامية دياب

## سعر النسخة

الكويت ودول الخليج 500 فلس  
الدول العربية الأخرى ما يعادل دولارا أمريكيا  
خارج الوطن العربي دولاران أمريكيان

## الاشتراكات

### دولة الكويت

للأفراد 10 دك  
للمؤسسات 20 دك

### دول الخليج

للأفراد 12 دك  
للمؤسسات 24 دك

### الدول العربية الأخرى

للأفراد 25 دولارا أمريكيا  
للمؤسسات 50 دولارا أمريكيا

### خارج الوطن العربي

للأفراد 50 دولارا أمريكيا  
للمؤسسات 100 دولار أمريكي

# إبداعات

تصدر كل شهرين من

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

د. سليمان خالد الرباح

هيئة التحرير:

د. زبيدة علي أشكناني

أ. د. سليمان علي الشطي

د. علي عجيل العنزي

د. ليلي عثمان فضل

أ. وليد جاسم الرقيب

سكرتيرة التحرير

لمياء القبندي

التتضيد والإخراج والتنفيذ:

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

للتقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat\_alamia@yahoo.com

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل

على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٦٧

ردمك: ٤-٣٣٥-٠٠-٩٩٩٠٦

# • موطن الألم (رواية)

العنوان الأصلي:

## THE MINISTRY OF PAIN by: Dubravka Ugresic TELEGRAM - 2008

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011م

إبداعات عالمية - العدد 387

---

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

---

أسسها أحمد مشاري العدوان

(1990 - 1923)





## ثناء علي دوبرافكا أوجاريسك

تحدث أوجاريسك في سخطها وحزنها عن الكثير من الناس، والكثير من الخبرات. إنها كاتبة تحفزنا على متابعة القراءة لها. كاتبة يُعْتز بها.

### سوزان سونتاج

في كتب أوجاريسك تأملات عميقة عن الثقافة، والذاكرة، والجنون. أفضل ما ستقرأ أبداً.

«الإنديدنت»

دوبرافكا أوجاريسك شخص شرس، يُستشهد بمقولاتها، فهي ذات بصيرة نافذة.

«الأوبزرفر»

إنسانية لا غنى عنها، وحياة إيجابية.

### جلاسجو هيرالد

تكتب فرجينيا وولف عن نذر الحرب، أما دوبرافكا أوجاريسك فتكتب عن عواقب ما بعد الحرب، وكلتاهما واضحتان في إدانتهم لقوى الدمار، واستحضارهما لما نخاطر به.

ت.ل. سي

تؤكد أوجاريسك - مثلها مثل نابوكوفا - على قدرتنا على التذكر كمصدر للحفاظ على هويتنا الأخلاقية، الرحيمة.  
«واشنطن بوست»

تسخر أوجاريسك من الفرضية المتفائلة التي تقول بأن كل شيء سيكون أفضل في عالمنا الجديد الشجاع.  
«لوس أنجلوس تايمز»

تهكم لاذع، يخدش، مع ذلك فهو كلام قاطع، فها هنا امرأة قطعت شوطا طويلا لتقول رأيها في الابتذال، والوحشية، والطبيعة الهزلية للنزعة القومية.

## مجلة الجيل الثاني

لقد ضمنت دوبرافكا أوجاريسك مكانا لها على رف الكتب المخصصة للكلاسيكيات.

## ليترالي ريفيو

أطلقت أوجاريسك سهامها متنوعة من جعبة بلاغتها، من بينها حس تهكمي لاذع، وروح فكاهة نادرة، وحد قاطع من احتقار الابتذال.  
كيركاس ريفيو

إنها في داخلنا .

«الأدب اليوم»

## المقدمة

دوبرافكا أوجارييسك، كاتبة روائية كرواتية معاصرة، تعيش الآن في مدينة أمستردام (هولندا) حيث تتفرغ للكتابة، وتقوم بالتدريس من حين لآخر في بعض الجامعات الأوروبية، والأمريكية. ولدت في الثالث من مارس سنة ١٩٤٩ في مدينة «كونتين»، في كرواتيا (التي كانت جزءا من يوغسلافيا السابقة). ألفت العديد من الروايات الأدبية (إحدى عشرة رواية)، وحازت العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية، أشهرها جائزة الدولة النمساوية في الأدب الأوروبي سنة ١٩٩٩. كانت «دوبرافكا أوجارييسك» من المناوئين البارزين لاستقلال كرواتيا عن يوغسلافيا السابقة، وبعد اندلاع الحرب سنة ١٩٩١، اتخذت موقفا صلبا ضد الحرب والنزعة القومية، مما أدى إلى اتهام الحركة القومية الكرواتية لها بالخيانة، كذا الرأي العام الكرواتي، فاضطرت إثر ذلك إلى مغادرة كرواتيا، واللجوء إلى هولندا حيث هي الآن.

الرواية التي بين أيدينا، موطن الألم، نشرت باللغة الكرواتية سنة ٢٠٠٤، وترجمها «مايكل هنري هايم» إلى اللغة الإنجليزية سنة ٢٠٠٨ (وهناك ترجمة إنجليزية أخرى نشرت سنة ٢٠٠٥). ويسرنا هنا أن نقدم للقارئ العربي،

في هذا العدد من سلسلة إبداعات عالمية، ترجمة باللغة العربية منقولة عن ترجمة «هايم» الإنجليزية. تنتمي هذه الرواية من حيث التصنيف الأدبي إلى ما يسمى أدب المنفى، ذلك الأدب الذي يعالج التداعيات النفسية، والاجتماعية، والسياسية للعيش في المنفى نتيجة ظروف غير عادية مربها الوطن. مع ذلك فإن العيش في المنفى بعيدا عن الوطن، يُبقي الوطن الهاجس المسيطر، والشغل الشاغل لمن يشتغلون على هذا النوع الأدبي.

تتناول رواية موطن الألم النزوح الكبير من يوغسلافيا السابقة إلى الخارج بعد اندلاع الحروب العرقية بين مختلف مكونات الوطن من صرب، وكروات، وبوسنيين وغيرهم سنة ١٩٩١، والتي انتهت بتفكك يوغسلافيا إلى دول مستقلة لقوميات مختلفة. تصف الرواية، «ثانيا»، هذا النزوح قائلا: «لقد هربنا من بلادنا مثل جرذان نجت من سفينة تغرق. كنا في كل مكان. العديد هرول إلى المناطق الحدودية في الدولة للتواري لفترة معينة، وهم يظنون أن الحرب ستنتهي قريبا، كأنها عاصفة رعديّة، وليست حريقا سيأتي على الأخضر واليابس». لقد أتت الحرب على الأخضر واليابس، ولجأ أفواج ممن كانوا يسمون بـ «اليوغسلاف» إلى مختلف أصقاع الأرض طلبا للنجاة والعيش الكريم. والأسوأ، كما تصور هذه الرواية، أن اللاجئين لم ينته بهم الأمر في المنفى

فقط، بل إنهم فقدوا وطنًا كانوا يحملون جنسيته، ولم يعد موجودًا على الخارطة السياسية.

تدور جل الأحداث المادية في هذه الرواية في مدينة أمستردام الهولندية حيث لجأ الكثير من اليوغسلاف إليها بعد اندلاع الحرب لأسباب مختلفة، بعضها حقيقي سببته الحرب، وبعضها مُصطنع استخدمت الحرب كذريعة للوصول إلى أرض الجنان - أوروبا الغربية، لينتهي بهم المطاف في الاتجار بالمخدرات، والأعمال الإجرامية، والبغاء والكثير من الوظائف الوضيعة. ويشكل اللاجئون اليوغسلاف في أمستردام معظم الشخصوص في هذه الرواية، وهم: الراوية، الدكتورة تانिका (تانيا)، التي حصلت على وظيفة لمدة فصلين دراسيين لتدريس الأدب الصرب/كرواتي (وهو تخصصها) في جامعة أمستردام، وطلبة الفصل الذي تدرسه، وهم عبارة عن مجموعة من الطلبة اليوغسلاف الذين التحقوا بالجامعة، ليس بدافع حقيقي لدراسة هذا التخصص (الذي لم يعد موجودًا أصلاً بعد تفكك الدولة اليوغسلافية)، ولكن من أجل إضفاء صفة الشرعية على وجودهم في هولندا.

وبدل أن تقوم الراوية، الدكتورة «تانिका»، بتدريسهم الأدب الصرب/كرواتي، الذي كانت تعتقد أنه آخر ما يحتاجون إليه، حولت الأمر إلى لعبة في الذاكرة اليوغسلافية، إذ قررت إنشاء ما سمته «المتحف الافتراضي اليوغسلافي»



الذي يوثق الحياة اليومية في يوغسلافيا السابقة، وطلبت من طلبتها استرجاع ما يمكن استرجاعه من تلك الذاكرة، والمساهمة في صيرورة ذلك المتحف، مغفلة، أوريما متناسية، أن هذا الموضوع بمنزلة قبلة موقوتة. فطلبتها ينتمون إلى عرقيات مختلفة (صربية، وكرواتية وبوسنية، وغيرها)، مما سيؤدي إلى إيقاد أحقاد أفرزتها الحرب من الأفضل دفنها، بدلا من إحيائها. وتأتي مساهمات الطلبة المفصلة لتؤرخ اليوميّات اليوغسلافية بحلوها ومرها، معرجة على الكثير من الجوانب الحياتية البسيطة والمعقدة بأسلوب جدّي أحيانا، وينقد ساخر لا ينقصه المرح أحيانا أخرى. لقد تحول الفصل إلى جلسات في العلاج النفسي داخل غرفة الصف، وخارجها أيضا، حيث كانت المدرسة، والطلبة يلتقون بشكل منتظم في المقاهي لإكمال تلك الجلسات، والتنفيس عن همومهم.

ولم يكد الفصل الدراسي الأول ينتهي حتى انقلب السحر على الساحر. فقد أخبرها رئيس القسم الهولندي عن تلقيه شكاوى من الطلبة تقول إنها لا تقوم بأي شيء له علاقة بتدريس الأدب، وإن الفصل الدراسي مجرد مضیعة للوقت. ينزل عليها الخبر كالصاعقة، إذ إنها لم تلاحظ أي شيء ينم عن ذلك من طرف الطلبة، وكانت تعتقد أن الطلبة يستحسنون أسلوبها، وأن الأمور كانت تجري على ما يرام.

لقد كانت كل المعطيات تشير إلى ذلك، فجميع الطلبة، على سبيل المثال لا الحصر، احتفلوا بعيد ميلادها، وقدموا لها الهدايا المتنوعة. وهنا تريد الروائية دوبرافكا أوجارييسك أن تصور حالة الانفصام التي عادة ما تصيب من يعيشون مشردين بلا هوية في المنفى.

وتظهر هذه الشخصية الانفصامية عند الراوية نفسها، «تانيا»، في الفصل الدراسي الثاني، فهي تحول المقرر الدراسي إلى كابوس للطلبة من خلال القراءات والامتحانات، والأبحاث المطلوبة، كنوع من الانتقام منهم لما قاموا به من وشاية بها لرئيس القسم. وكان هاجسها الأول والأخير، معرفة من وشى بها، وكان بحثا بلا جدوي، إذ عرجت عليهم جميعا في خضم حدسها. وبالرغم من الذهول الذي أصاب الطلبة من هذا التغير المفاجئ في سلوك مُدرّستهم، الذي أدى إلى ترك بعضهم للدراسة، فإن من تبقى في الفصل، وهم أربعة فقط (إيجور، وميليا، وأنا، وجوهانكي) أثبتوا أن لديهم دراية ومعرفة بالأدب الصرب/كرواتي تضاهيان، إن لم يكن يتفوق، على ما تملكه مدرّستهم في هذا المجال. وفي هذا السياق، تبين الكاتبة من خلال النقد الأدبي الذي تقدمه شخوصها، الراوية، والطلبة على حد سواء، هامشية ذلك الأدب (مقارنة بالأدب الأوروبية الأخرى)، وتكرارية وسداجة المواضيع التي يتناولها. انظر ما تقوله الراوية

نفسها: «لقد أدهشتني تكرارية ظهور الصفات الشائعة لبطل الرواية. شعرت وكأنني أقرأ فى علم الوراثة وليس الأدب. بدا الأمر وكأنه اكتشاف لشيء طالما أدركناه من دون أن نعيه أي أهمية، مثل اكتشاف شامة في جسمك في نفس المكان الذي توجد فيه في جسم والديك أو أطفالك، أو أحفادك. كثيرا ما شعرت بأنني أشاهد مسلسلا تم إنتاجه في أكثر من دولة، بالرغم من أنه لم يكن من الممكن أن أعترف بذلك علنا».

وفي المجمل، تقدم هذه الرواية قصة ضياع وفقدان هوية، وتناقش مواضيع إنسانية في غاية الأهمية، تتعلق بتداعيات العيش في المنفى من خلال النموذج اليوغسلافي. وأهم هذه التداعيات هو هاجس العودة إلى الوطن. وهنا، تطرح هذه الرواية ثنائية مرعبة: فالعودة إلى الوطن تعني الموت، في حين أن البقاء في المنفى يعني الهزيمة. وبين هذين الخيارين تبرز قضية الانتحار المؤرقة، التي أصبحت شائعة في الوطن والمنفى، كأحد الإفرازات المأساوية للحرب. انظر ما تقول الرواية في هذا الصدد: «الانتحار نوع من الرفاهية أثناء الحرب؛ إنه مواساة يندر توافرها». وتقود الروائية راويتها إلى ثلاثة حلول لا رابع لها: الحل الأسوأ، وهو استمرار الضياع والنوح على الماضي المفقود، أو الحل الأحسن، وهو التكيف والانخراط في حياة جديدة، أو حل «يوروش»، أحد طلبتها، وهو الانتحار. تطرح الدكتورة «تانيكا»، في المحصلة

الأخيرة، فكرة الانتحار جانبا، وتقف مشدوهة، عاجزة عن اتخاذ قرار، بين الحلين الآخرين.

ومن تداعيات الضياع وفقدان الهوية في المنفى، ظهور الإعاقة اللغوية المرتبط باللغة الأم، اللغة القومية التي ولد الإنسان وترعرع معها. فالراوية وطلبتها على حد سواء وجدوا أنفسهم عاجزين عن التعبير عما يدور في خلداهم بلغتهم الصرب/كرواتية (اللغة القومية ليوغسلافيا السابقة) - والتي تفرعت الآن إلى لغات عدة (الصربية، والكرواتية والبوسنية) - ولم يعد لها وجود من الناحية الرسمية. وللتغلب على هذا العجز اللغوي، لجأوا إلى التواصل فيما بينهم باللغة الإنجليزية، أو باللغة الهولندية لمن استطاع تعلمها. ويصل هذا الأرق اللغوي إلى أوجه عندما تتساءل الراوية عن قدرة لغتها القومية على سرد الرواية التي بين أيدينا، فتقول: «هى لغة ذات حفيف، ترن، وترجع الصدى، وتقعقع وترعد، وترأر، وتدوي كتلعثم أو .. أو لعنة، أو تشويه سمعة، أو ثرثرة، أو عبارة متاجرة خالية من المعنى». لكن الكاتبة، على أي حال، تمكنت من سرد الرواية التي نحن بصدددها، بكل ما فيها من هواجس وتجليات.

هناك قضية مهمة أخرى تثيرها تداعيات الضياع وفقدان الهوية، وهي فقدان القدرة على التعبير عن الحب كعاطفة إنسانية. فبالرغم من وشائج الحب القوية التي جمعت

بين الراوية الدكتور تانيكا، وإيجور أحد طلبتها، إلا أن تلك العاطفة بقيت قابضة خلف جدار فولاذي عصي على الاختراق. لقد حاول إيجور مُلمحاً، مراراً وتكراراً، أن يحصل على إشارة، ولو بالتعريض، عن ذلك الحب الجارف الذي تكنّه له محبوبته، لكن دون جدوى، إذ إنها فقدت قدرتها على التصريح له بهذه العاطفة، وتحول هذا الحب في نهاية الرواية، بعد فوات الأوان، إلى مشهد من الهذيان يجمعها بحبيبها في حميمية يعوزها الدفء الحقيقي. تأمل في هذا الجزء من الهذيان حين تقول: «الحياة عاملتنا بشكل جيد. يغادر إيجور البيت ويعود إليه مبكراً. يتوجه مباشرة إلى الحمام، وينظف ما علق به أثناء العمل، يرتدي ملابس نظيفة، ويكف أكماء قميصه، ثم يأخذ مكانه على طاولة السفرة. أقدم وجبة طازجة. نأكل ببطء وبغرامة متناهية، ونتكلم قليلاً. كلماتنا جافة كالرمل، وأنا أحب كونها كذلك. ربما أصبحنا كالهولنديين. يقال إن الهولنديين يتكلمون فقط عندما يكون لديهم شيء ليقولوه». ويتجلى الهذيان والتشاؤم في نهاية الرواية بإطلاق الراوية سلسلة طويلة من الدعوات المنفرة، والبغيضة موجهة إلى مخاطب مستتر، إليك منها: «ليتك تلعن في هذا العالم والعالم الآخر. ليتك لا تعيش لترى شروق الشمس. ليت النسور تلتهمك».



وأخيرا وليس آخرا، تقدم الراوية صورة سياسية متعمقة عن حقبة النظام الشيعوي في يوغسلافيا، وما رافقها من فساد، وظلم، واستبداد، أدى في نهاية المطاف إلى بروز النزعات العرقية المقيتة وتفسخ الدولة اليوغسلافية. ثم جاءت الدويلات القومية لتزيد الوضع سوءا، وتتحول بدورها إلى ديكتاتوريات أشد فتكا من سابقتها (الدولة الأم). وتبقى قضايا الاستبداد، والظلم، وغياب الديمقراطية، هي الأسباب الكامنة وراء الحركات الانفصالية والثورات الشعبية، وهي قضايا ليست ببعيدة عما جرى حديثا ويجري حاليا في كثير من الدول العربية (في العراق، وتونس، ومصر، واليمن، وليبيا وسورية، والحبل على الجرار)، وما ستؤول إليه الأمور. من هنا، فإن ما تثيره هذه الرواية في هذا السياق بالذات، ينبغي أن يقع في صلب اهتمامات القارئ العربي في الوقت الحاضر. على كل حال، لا نريد أن نضع العربية أمام الحصان هنا عبر حديث ونقد مطول عن هذه الرواية، ونترك المجال أمام القارئ الفطن لسبر أغوارها واستكشاف مكنوناتها بنفسه، أملين، من خلال توافر ترجمة عربية لهذه الرواية، أن نفتح نافذة، ولو صغيرة، على الأدب البلقاني الحديث، وأن نستخلص العبر المرجوة من انهيار وتفكك الدولة اليوغسلافية.

والله وليّ التوفيق،

أ.د. محمد فرغل

white

# الجزء الأول

# white

إن الرواية، وقصتها، والشخصيات، وموقفهم في الرواية التي أنتم على وشك قراءتها، كلها من وحي الخيال. حتى مدينة أمستردام هنا ليست كلها حقيقية.

د. أو.

المنظر الطبيعي الشمالي شأنه شأن الصحراء يشير إلى المطلق، بيد أن صحراء الشمال خضراء وتعج بالمياه. فيما عدا أنها تفتقر إلى المغريات والاستدارات أو المنحنيات، فالأرض منبسطة مما يجعل الناس مكشوفين تماما، وهذا بدوره ينعكس على سلوكهم. لا يحب الهولنديون التواصل الاجتماعي كثيرا؛ فهم جبلوا على المجابهة. هم يحملقون في عيون الآخرين ويسبرون أغواره. وليس لديهم أماكن للتواري حتى في بيوتهم. هم يتركون ستائرهم مفتوحة، معتبرين ذلك إحدى فضائلهم. سيزنوتوبوم

لا أتذكر متى لاحظت ذلك للمرة الأولى. اعتدت أن أقف منتظرة الترام في المحطة وأنا أحرق في خارطة المدينة خلف اللوح الزجاجي حيث يؤشر بالألوان على خطوط الحافلات وعربات



الترام، تلك الخطوط التي لم أفهمها ولم تعن لي الكثير، أو تعن أي أهمية في ذلك الوقت. كنت أقف هناك، وفجأة ودون أدنى فكرة، وأنا ملازمة الخط الأزرق، تستولي عليّ رغبة في صدم رأسي بالزجاج وإيذاء نفسي. وفي كل مرة كنت أدنو من ذلك بشكل أكبر. ها أنا هنا، ومن الممكن أن أفعلها في أي لحظة، ومن ثم ...

«توقفي يا رفيقة»، كان يقولها بنبرة فيها شيء من السخرية، واضعاً يده على كتفي. «إنك حقاً لن تقومي ب...؟».

هذا كله من خيالي، طبعاً، لكن الصورة التي يرسمها خيالي كانت واقعية لدرجة اعتقدت أنني أسمع صوته وأشعر بيده على كتفي.

يقول الناس إن الهولنديين لا يتكلمون إلا عندما يكون لديهم شيء ليقولوه. وفي هذه المدينة، حيث يحيط بي الهولنديون من كل جانب، وأتواصل معهم بالإنجليزية، غالباً ما أشعر بأن لغتي القومية غريبة عن هذا المكان. لم أكن أعرف أن مواطني بلدي يلحنون بهذا الشكل، مبتلعين نصف كلماتهم ومتلفظين بما يشبه الأصوات، إلا عندما غادرت الوطن. إن اختبار لغتي القومية كمحاولة من قبل لغوية، عجزت عن توصيل حتى أبسط الأفكار من خلال الإيماءات، والتكشيرات، وتغيير حدة الصوت. إن محادثة بين أبناء جلدتي تبدو طويلة، ومرهقة، وخالية من المحتوى. وبدلاً من الكلام، يبدو وكأنهم يرمون بعضهم بالكلمات، ناشرين رضاها مهدئاً، رناناً بعضهم فوق البعض.

لهذا السبب أشعر بأنني أتعلم الكلام هنا من خلال الحك. وهذا ليس سهلاً. إنني في حالة ترقب دائم لمسافات للتنفس كي أتعامل مع حقيقة أنني لا أستطيع التعبير عما يجول بخاطري.

وثمة سؤال أكبر عما إذا كانت لغة لم تعرف تصوير الواقع، وكون هذا الواقع في التجربة الداخلية معقدا، تكون قادرة على فعل أي شيء على الإطلاق - كسر القصاص، مثلا. وأنا كنت مدرسة للأدب.

بعد ذهابي إلى ألمانيا، استقررنا أنا وجوران في برلين. كانت ألمانيا اختيار جوران: فألمانيا لا تحتاج إلى تأشيرات. كنا قد ادخرنا بعض المال، لما يكفي لسنة واحدة. وسرعان ما تدبرت أمري بحصولي على وظيفة مربية لدى عائلة أمريكية. دفع لي الأمريكيون راتبا أكثر من مقبول، وثبت أنهم أناس مهذبون. كذلك وجدت عملا لبعض الوقت في المكتبة الوطنية، حيث كنت أرتب الكتب في القسم السلافي ليوم واحد في الأسبوع. وبما أنني كنت أعرف بعض الأشياء عن المكتبات وأتحدث اللغة الروسية، بالإضافة إلى «لغتنا القومية»، وأستطيع أن أدرك فحوى اللغات السلافية الأخرى، لذا كان العمل سهلا. غير أنني لم يكن لدي تصريح للعمل، مما جعلهم يدفعون لي راتبي سرا. أما بالنسبة إلى جوران الذي كان قد درس الرياضيات في جامعة زغرب، فسرعان ما وجد وظيفة في شركة للكمبيوتر، لكنه استقال بعد بضعة شهور، لأن أحد زملائه الذي حصل على وظيفة محاضر في جامعة يابانية، كان يغريه بالمجيء إلى اليابان، مؤكدا أنه سيجد له عملا أفضل هناك. حاول جوران بدوره أن يقنعني بالذهاب، لكنني تمسكت برأيي وقلت: «أنا أوروبية»، وبررت نفسي، بأنني أريد البقاء بالقرب من أمي، ومن والديه. وكان ذلك صحيحا، ولكن كان ثمة حقيقة أخرى.

لم يستطع جوران أن يجد سلام نفسه مع ما حدث. لقد كان خبيراً في الرياضيات جيداً، وكان محبوباً من طلابه، ولكن، وعلى الرغم من أن تخصصه كان محايداً، فإنه أزيح من وظيفته بين ليلة وضحاها. لقد أكد له الجميع مراراً أن ذلك طبيعي جداً، ففي أوقات الحرب يتصرف بني البشر هكذا دائماً. لقد حدث ذلك لكثير من الناس، وليس فقط للصرب في كرواتيا، بل أيضاً للكروات في صربيا، وحدث كذلك للمسلمين، والكروات والصرب في البوسنة. كما حدث ذلك لليهود، والألبان، والفجر؛ لقد حدث ذلك لكل الناس وفي جميع الأماكن في وطننا السابق المشؤوم - كل ذلك الجدل فشل في ترك أي أثر في حرقته الممزوجة بالشفقة على نفسه.

لو أراد جوران حقاً، لكنا جعلنا ألمانيا مستقراً لنا. فقد كان هناك آلاف مؤلفة مثلاً. يبدأ الناس عادة بقبول أي وظيفة يستطيعون الحصول عليها، ولكنهم في المحصلة الأخيرة يرتقون إلى مستواهم الحقيقي، وهكذا تستمر الحياة ويتكيف الأطفال. لم يكن لدينا أطفال، مما سهل قرارنا على الأرجح. كانت أمي، ووالدا جوران يعيشون في زغرب. بعد رحيلنا صادر الجيش الكرواتي شقتنا في زغرب - شقتي أنا وجوران - وذلك قبل أن تستولي عليها عائلة أحد الضباط الكروات. لقد حاول والد جوران أن يخرج متاعنا من الشقة، الكتب على الأقل، لكن من دون جدوى. لقد كان جوران صربياً، مما جعلني أنا «تلك العاهرة الصربية»، كما أتصور. كان زمناً للتأثر الدامي، هدفه إيقاع الأذى بشكل عام، وأخذ الناس بثأرهم حيثما وجدوه، وغالباً ما كان ضحيته الأبرياء.

مع ذلك، رتبت الحرب أمورنا أفضل بكثير مما كنا نستطيع فعله نحن. فجوران، الذي غادر زغرب - مصمما على الابتعاد عنها قدر المستطاع - وقد صار ذلك حقيقة، انتهى به المطاف في الجهة الأخرى من العالم. وبعد فترة وجيزة من رحيله، وصلتني رسالة من صديقة تدعى «إنيس كادفتش»، تعرض عليّ فيها وظيفة محاضر لفصلين دراسيين في الدراسات الصرب/كرواتية في جامعة أمستردام. لقد كان زوجها سيز درايسما رئيسا لقسم اللغات والآداب السلافية، وكان بحاجة إلى من يشغل الوظيفة على عجل. فقبلت العرض بلا تردد.

أمن لي القسم شقة على قناة «أودزידز كولك». كانت قناة صغيرة مع بضعة منازل فقط، تؤدي جهته الأولى إلى محطة أمستردام الرئيسية بينما تتفرع الأخرى، مثل أغصان سعفة نخيل، إلى شارع «زيدياك»، الذي يشتهر بسكانه الصينيين، وإلى «أودزידز فوربورجوال» و«أودزيدز أتشبورجوال»، وهما قناتان تمران عبر المنطقة الحمراء. لقد كانت شقة أرضية صغيرة تشبه غرفة في فندق متواضع. كان من الصعب أن تجد شقة في أمستردام، وفق ما قالت سكرتيرة القسم، فقبلت بها على مضض. لقد أحببت الحي، واعتدت في الصباح أن أسلك شارع «زيدياك» باتجاه السوق الجديد، والتوقف عند «جولي جوكر» أو «ثيو» أو «تشاو فرايا»، وهي المقاهي التي تطل على منطقة «دو واج» القديمة. وأنا أرتشف قهوتي الصباحية، كنت أراقب الناس يتوقفون عند الأكشاك التي تعرض أسماك الرنجة، والخضراوات، والأجبان الهولندية، وأكوام من المخبوزات

الطازجة. كان ذلك الجزء من المدينة الذي يتجمع فيه أكبر عدد من الشواذ، وبما أنها أيضا تشكل بداية المنطقة الحمراء، فقد كانت مكانا لتسكع منتهزي الفرص الصغار، وربات البيوت الصينيات، ومدمني المخدرات، والسكران، وبقية من الهبيين، وأصحاب المتاجر، والبائعين المتجولين وصبية التوصيل، والسياح، وصغار المجرمين، والعاطلين عن العمل والمشردين. حتى عندما كانت تهبط السماء (تلك السماء الهولندية الشهيرة) وتلقي بشحوبها على المدينة، كنت أجد متعة بالغة في الإيقاع المتمهل لمختلف المارة. بدا كل شيء حقيقيا نوعا ما، في حالة أسوأ لكثرة الاستعمال، وكأن الصوت قد انخفض أو أن الصورة تجري بالحركة البطيئة، كأن ثمة شيئا ما مراوغا في الأمر كله، ومع ذلك بدا الكل متماسكا بفضل حكمة علوية. كان مكثبي في الجامعة في منطقة «سبيوسترات»، التي تبعد عن شقتي مسافة عشر دقائق مشيا على الأقدام. كان كل شيء متناسبا مع بعضه، على الأقل، هكذا كنت أعتقد في بادئ الأمر. أضف إلى ذلك أن صيف تلك السنة كان صيفا هنديا، امتد حتى ديسمبر، وكانت أمستردام، لطيفة وبطيئة الحركة مثلما كانت، فذكرتني بالبلدات الممتدة على البحر الأدرياتيكي في المواسم هادئة النشاط.

كنت قد سمعت قصة عن امرأة بوسنية قبل مجيئي إلى هنا، عندما كنت في برلين. كانت كل عائلتها في المنفى - زوجها، وأطفالهما، ووالدَي زوجها - ذات يوم سمعت المرأة إشاعات مفادها أن السلطات الألمانية عازمة على ترحيل كل المهاجرين البوسنيين، وإعادتهم إلى بلادهم. ولأنها كانت خائفة من العودة

إلى البوسنة، طلبت من أحد الأطباء منحها أمر تحويل مزيفا إلى مستشفى الأمراض النفسية. كانت إقامتها لمدة أسبوعين بمنزلة استنشاق لهواء نقي، معبق بعبير الحرية لدرجة أنها قررت ألا تعود. وهكذا توارت، اختفت، وغيّرت هويتها. لم يعرف أحد ماذا حدث لها، ولم تعد إلى عائلتها قط.

لقد سمعت عشرات من قصص مشابهة، فالحرب كانت تعني خسائر فادحة للعديد من الناس، ولكنها في الوقت نفسه كانت سببا للانسلاخ من حياة قديمة، والشروع بأخرى من نقطة الصفر. على أي حال، غيرت الحرب مصائر الناس بصورة تامة. بل إن المستشفيات النفسية، والسجون والمحاكم، أصبحت جزءا من الحياة اليومية.

لم يكن لدي أدنى يقين أين أقف من كل ذلك. ربما كنت أبحث عن عذر. فأنا لم أكن في وضع اللاجئة، ولكنني مثل اللاجئين ليس لدي وطن أعود إليه. على الأقل هذا ما كنت أشعر به. قد أكون مثل آخرين كثيرين، حولت بؤس الآخرين في لا شعوري إلى عذر يبرر عدم عودتي. ألم يكن تحطم الوطن، وبؤسي أيضا الذي نشأ عن الحرب، ألم يكن سببا كافيا للرحيل؟ لا أستطيع الإجابة! كل ما أعرفه هو أنني قد ولجت فيما بدا أنه ماض بعيد، ولم أصل بعد إلى وجهة معينة. عندما رحل جوران، انتابني شعور بالراحة مصحوب بشعور قوي بالخسارة والخوف: ففجأة صرت وحيدة تماما برأسمال مهني ضئيل القيمة، ومال لا يكفي سوى لبضعة أشهر. كنت قد حصلت على شهادة في اللغات السلافية وآدابها؛ حيث كتبت أطروحة حول استخدام اللهجة

«الكاجوفية» في أعمال الكُتاب الكروات؛ ولدي أيضا خبرة في التدريس لبضع سنوات في كلية تدريب المعلمين في زغرب. أما أمستردام فكانت فسحة لالتقاط الأنفاس مدفوعة الأجر. أما ماذا سأفعل، أو إلى أين سأذهب بعد أمستردام، فلم يكن لدي أي فكرة.

كانوا في البداية ينادونني بالدكتورة «لوسيتش»، ولكن ما إن انتظم التدريس في الفصل الأول حتى انتقلوا إلى مناداتي بـ «الرفيقة»، فكانوا يطيلون أحرف الكلمة وخصوصا الحرف الأخير، ويرفعونه عند النهاية وكأنه ذيل لفظي. لقد أصبحت كلمة «رفيقة» بمنزلة كلمة السر الحميمة بيني وبين طلبتي الجدد، تربطنا جميعا، بمقاعد الدراسة التي تركناها منذ زمن طويل، وفي عهود بعيدة في الماضي، وفي دولة لم يعد لها وجود: فتلك الكلمة هي التي استخدمها الأطفال اليوغسلاف في الخمسينيات وبداية الستينيات في مخاطبة أساتذتهم. أما هنا في هولندا فلم تكن هذه كلمة ذات شأن كبير بقدر ما كانت تعني رنين جرس بافلوفي. فعلى الرغم من مخاطبتي لهم بشكل رسمي، فإنني كنت أشير إليهم بتلامذتي أو أطفالتي. كل ذلك على سبيل الدعابة المتخيلة: فأنا لم أكن قط «رفيقة» أحد؛ وهم لم يكونوا تلامذة. ولم يكونوا أطفالا، فقد تراوحت أعمارهم بين العشرين والثلاثين عاما مما جعلني أكبر منهم ببضع سنوات فقط. كانت ميليتها في مثل عمري، وجوهانكي ولاكي أكبر مني. لذلك، فإن الشيء الوحيد الذي كان يذكر بقواعد اللعبة هو مخاطبتي لهم بشكل رسمي.

لقد جاءوا إلى هنا مع اندلاع الحرب. استطاع بعضهم الحصول على صفة لاجئين، وفشل آخرون. كان معظم الرجال، أولئك الذين أتوا من صربيا وكرواتيا، قد رحلوا عن بلادهم



لتجنب الخدمة العسكرية؛ حيث جاء البعض من جبهات القتال؛ وآخرون جاءوا للتنزه، لكنهم قرروا البقاء. وهناك أيضا من سمعوا عن كرم السلطات الهولندية في منح الرعاية الاجتماعية والمسكن للاجئين اليوغسلاف، فجاءوا لاستبدال شيوخ حيواتهم غير المضمونة بأشياء واقعية. وهناك من سنحت لهم الظروف باتخاذ شريك حياة.

فقد قابل ماريو فتاة هولندية في النمسا - حيث كان والداه قد أرسلاه خوفا من أن يجند في الجيش الكرواتي - عادت به إلى هولندا. قال لي ذات مرة، مبتسما: «ربما تزوجتها من أجل الحصول على جواز السفر، ثم وقعت في حبها بعد ذلك. أو قد أكون وقعت في حبها بداية، ثم جعلت ذلك رسميا من أجل جواز السفر. لا أستطيع أن أتذكر».

أما بوبان فكان قد ذهب إلى الهند بصفقة مجملة مع مجموعة من نساء ذوات مقامات رفيعة في «بلجراد»، من أتباع «ساي بابا». وقد قامت والدته بتنظيم وتمويل تلك الرحلة، وكان همها الوحيد أن تنتشل ابنها من الخدمة في الجيش مؤقتا. وفي الهند ترك الرحلة وهام على وجهه لمدة شهرين قبل أن يصاب بالإسهال ويفادر البلاد جوا على عجل. هبطت الطائرة في أمستردام حيث كان يفترض أن يستقل طائرة أخرى إلى «بلجراد»، لكن، وبينما كان يتنقل بين المراحيل في مطار «شيبول»، داهمه خاطر رائع وطلب اللجوء السياسي في هولندا. حينئذ، كان إمكان الرجوع لا يزال قائما. لكن السلطات الهولندية كانت متساهلة: فقد كان أي أحد قادم من يوغسلافيا السابقة يمكنه استخدام اندلاع

الحرب هناك كذريعة مقبولة. ولكن، مع مرور الوقت، تغيرت الأمور وأغلق هذا الباب.

كانت «جوهانكي» هولندية. كانت تتحدث لغتنا بطلاقة وبلكنة بوسنية. كان والداها من اليساريين الهولنديين الذين شاركوا في شق الطرق وبناء السكك الحديد مع كتائب الشباب العالمية بعد الحرب العالمية الثانية. فيما بعد، ذهبوا في رحلة سياحية إلى شواطئ «دلماسيا». في إحدى المرات زارت جوهانكي سرايفو، ووقعت في حب شخص بوسني، مما جعلها تقيم هناك لبعض الوقت. والآن، هي مطلقة وأم لطفلتين صغيرتين، وقد قررت أن تحصل على شهادة في اللغات السلافية. كانت مترجمة شفوية معتمدة لدى المحاكم تترجم من «لغتنا» إلى اللغة الهولندية، والذي اتضح أن عملها ذو فائدة كبيرة: فهي كانت تترجم، وتوثق أي وثيقة يحتاج إليها أولادنا.

هناك أيضا من جاءوا مرة أو مرتين ثم اختفوا سريعا. كان «لاكي» من «زغرب»، وبقي في ذاكرتي لأنه الوحيد الذي كان يناديني: السيدة لوسيتش. من الواضح أنه كان يعتبر كلمة «رفيقة» كلمة يوغسلافية، وشيوعية، وبناء عليه فهي كلمة مناهضة للكروات. كانت له طريقة كلام زغربية تصيبنني بالعصبية «فكان ينطق كلمة سيدة مشددا على المقطع الأخير من الكلمة، ويستعمل بشكل متواصل الأفعال المنعكسة على الضمائر، والصيغ الفعلية لكي يشير إلى نفسه، وقد جعله ذلك يبدو متصلا مع كل شيء على سطح الأرض بحميمية. جاء لاكي إلى أمستردام، مثل آخرين كثيرين أتوا من أجل الحشيش الرخيص. جاء قبل

الحرب ودرس اللغات السلافية وآدابها لسنوات، واعتاش على الرعاية الاجتماعية، والمساكن الشعبية المدعمة من الدولة. قال لي كل الأولاد إنه يعمل مخبرا براتب لدى الشرطة، وأنه يتباهى بترجمة المكالمات الهاتفية المتتصت عليها والمسجلة بين أفراد المافيا اليوغسلافية التي تقوم الشرطة الهولندية بمراقبتهم. كان الأولاد ينادونه بعالم اللغة «لاكي»، كونه كان يدعي أنه يعكف على تأليف قاموس هولندي - كرواتي، والذي لم يستطع قط إيجاد جهة لدعومه. ورفض الاعتراف بالقاموس المتوافر للهولندية والصربية والكرواتية.

ثم هناك زولي الذي سكن مع أحد المثليين الهولنديين من أجل التأهل للحصول على تصريح الإقامة، وداركو، من أوباتيا، الذي كان مثليا بالفعل. كانت السلطات الهولندية كريمة خصوصا في منح اللجوء السياسي للذين ادعوا أنهم قد تعرضوا للتحامل عليهم في بلادهم بسبب «الاختلاف الجنسي»، فكانت أكثر كرما معهم عن ضحايا الاغتصاب أثناء الحرب. وما إن دار النبأ، حتى عرف الناس من أين تؤكل الكتف. كانت الحرب ورقة التوت لكل شيء. كانت شيئا يشبه اليانصيب الوطني: فبينما جرب العديد من الناس حظهم نتيجة مآسيهم الحقيقية، فإن آخرون فعلوا ذلك الأمر لأن الفرصة ببساطة قد سنحت لهم. وفي ظل تلك الظروف الشاذة، فإن الرابحين والخاسرين كان لا بد أن يُحاكموا وفق معايير جديدة.

لقد درسوا اللغة الصرب/كرواتية لأنها تخصص سهل. وإذا لم يكن لديك تأشيرة لاجئ، فإنه يمكنك تمديد إقامتك قانونيا

بأن تقيد اسمك في أحد البرامج الجامعية. لقد بدأ البعض حتى أكملوا برامجهم الدراسية في الوطن، ولكنها لم تكن هنا شيئاً تقريباً. كانت الدراسات الصرب/كرواتية التخصص الأسرع، والأسهل للحصول على دبلوما هولندية، حتى تلك الدبلوما الهولندية لم تكن سترفع من شأنك. إذا كنت، مثل «أنا»، لديك تخصص «رئيسي» في لغة أخرى، فيمكنك أن تكسب بعض الأرصدة بلا تعب من اللغة الصرب/كرواتية. لكن إذا ما كنت طالباً بقروض أو بمنحة دراسية، فإن الدراسات الصرب/كرواتية هي بطاقتك للإقامة.

لقد تدبروا أمورهم. فقد لعب معظمهم «كرة المضرب». ولعب كرة المضرب في لغة جماعتهم العامة كانت تعني تنظيف البيوت. كان يدفع لهم خمسة عشر جيلدرا في الساعة. والبعض عملوا كغاسلي أوان، أو نُدل في المطاعم. كان أنتي يجني بعض الفكة من عزفه على الأكورديون في سوق نوردير. وعملت «أنا» في فرز الرسائل في مكتب البريد كل صباح. كانت تقول: «ليس الأمر سيئاً جداً. أشعر بأنني مثل القزم في حكاية ساعي بريد تشابيك».

لكن أفضل الوظائف أجراً التي تستطيع الحصول عليها دون تصريح عمل، هي وظيفة في «الوزارة». لقد وجد أحد «أهلنا» عملاً في مكان يصنعون فيه الملابس للمتاجر الإباحية، وسرعان ما عملت كل المجموعة هناك. لم يكن العمل مضنياً: فكل ما عليك فعله هو تجميع المواد التي يلبسها الماسوشيين/الساديين من جلد ومطاط وبلاستيك كل على حدة. كان إيجور، ونيفينا،

وسليم يذهبون ثلاث مرات في الأسبوع إلى شارع «ريجيوليتري» شمال أمستردام حيث تقع ورشة «ديماسك»، المتعهد لتوريد العديد من أوجه الصناعات الإباحية الهولندية. وكان هناك نادي دعارة سادي/ماسوشي في منطقة «لاهاي» يدعى «موطن الألم»، وقد اعتاد طلبتي على تسمية عملهم المهرق في الورشة «بالوزارة». فكان إيجور يقول لي مازحا: «يا رفيقة، ذلك النوع من الساديين/الماسوشيين، يُعتبرون من لابسِي الملابس الأنيقة حقا. فهم لا يعتقدون أن أجمل الأجسام هي العارية. وأنا لن أنسى ذلك لو كنت مكان غوتشي أو أرمانى».

لقد تدبروا أمورهم بطريقة جيدة - آخذين بعين الاعتبار البلد الذي جاءوا منه. وكانوا يجرون وطنهم السابق خلفهم مثل قطار. قيل هنا إن المافيا اليوغسلافية مسؤولة عن ثلث الأعمال الإجرامية في أمستردام. وكانت الصحف ممتلئة بجرائدها في السرقة، وتجارة البغاء، وتجارة السوق السوداء، وجرائم القتل والتأثر.

لكنهم لم يعرفوا ما ينبغي فعله في وضع بلدهم الحالي. وإذا ما جاءوا على ذكر كرواتيا والبوسنة، فإنهم يتوخون الحذر الشديد. وإذا ذكروا يوغسلافيا، التي هي الآن اسم لكل من صربيا، والجبل الأسود، فإنهم يذكرونها بأسى شديد. لم يكن في مقدورهم التكيف مع الأسماء الجديدة التي استمرت وسائل الإعلام في إطلاقها. على سبيل المثال، كفل يوغسلافيا. فكانت ميليتها تصرخ: «بحق السماء، من أين يأتون بمثل ذلك الشيء؟ أذلك لأنهم قطعوها إربا كشرائح اللحم؟».

يوغسلافيا، البلد التي ولدوا فيها، والتي جاءوا منها، لم تعد موجودة. لقد عملوا كل ما في وسعهم للتعامل معه بتجنب الاسم، مختصرينه ليصبح «يوغا» (مثلما فعل العمال المهاجرون اليوغسلاف في ألمانيا، من قبلهم)، وهكذا أصبحت «يوغسلافيا السابقة» تسمى «يوغا السابقة»، أو تحويلها على سبيل الدعابة إلى «بلد تيتو»، أو «التيتانك» أما بالنسبة إلى سكانها، فقد أصبحوا يسمون بـ «اليوغاف» أو بكل بساطة «أهلنا»، وهي الأكثر شيوعاً. وشاع ضمير الملكية أيضاً عند الإشارة إلى اللغة التي يستخدمونها فيما بينهم بـ «لغتنا» (فلم يكن أحد منهم سلافياً، أو مقدونياً، أو ألبانياً): فلكي يتجنبوا الاسم السابق، وبما أن اللغة الصرب/كرواتية أصبحت خطأً من الناحية السياسية، فإنهم أطلقوا عليها ببساطة «لغتنا».

لم تعد جديرة بأن تصور  
فقد استغرقت سنين  
لذا رحلت كل الكاميرات  
لساحات معارك أخرى.

### فيسلاوا شيمبروسكا

في أول مرة دخلت فيها حجرة الدراسة، كان بوسعي أن أقول  
ما الذي جعلهم «أهلنا». إن كلمة «أهلنا» لها صفة غير مرئية  
على وجوههم. فقد كان لديهم تلك النظرات الجانبية، التي تشبه  
نظرة أرنب، مع ذلك التوتر الخاص في الجسم، وتلك الغريزة  
الحيوانية في شم الهواء لمعرفة الاتجاه الذي سيأتي منه الخطر.  
جاء استخدام ضمير الملكية «نا» من خلال كآبة مؤكدة متوترة في  
ملامحهم، وفي غيمة خفيفة على جباههم، وانحناء داخلي بالكاد  
يُرى. قد يقول سليم: أهلنا يجوسون في المدينة كأن هناك غابة،  
مضروبة بقذيفة. ونحن جميعا هذه الـ «نا».

لقد هربنا من بلادنا مثل جرذان نجت من سفينة تغرق.  
صرنا في كل مكان. السواد الأعظم هرول إلى حدود الدولة  
السابقة، للاختباء فترة، وهم يظنون أن الحرب ستنتهي قريبا،  
كما لو أنها عاصفة ممطرة وليست حريقا مدمرا. كانوا يختبئون  
عند أقاربهم، أو أصدقائهم، أو أصدقاء أصدقائهم، الذين عملوا  
ما بوسعهم للمساعدة. وقد يذهبون إلى مخيمات اللاجئين

المرتجلة، وإلى منتجعات السياح المهجورة، وإلى الفنادق آملين أن تأويهم مؤقتاً - في الأغلب فنادق الساحل الأدرياتيكي، وكان ذلك فقط خلال فصل الشتاء، عندما لم يكن هناك أي سائحين ومن ثم يعتنون بأنفسهم، وبعد ذلك يعودون إلى الوطن، فالحرب لن تبقى إلى الأبد، ولم تبق حرب إلى الأبد من قبل، فالحرب تنهك الناس، وعندما يتعبون بما يكفي، تتوقف. بعضهم مكث سنة، أو سنتين، أو ثلاث سنوات - حيث لم يعد السائحون - وآخرون انتقلوا. وكل منهم لديه قصة يرويها.

امرأة من بلجراد عرفت إلى أين تتجه الأمور وارتعبت من الكراهية التي أحستها من الزميل الصربي، فباعته منزلها، قبيل اندلاع الحرب بالضبط، وانتقلت إلى كرواتيا «الآمنة». اشترت شقة في روفيني. ولكن عندما بدأ الكروات يكشرون عن أنيابهم، باعت تلك الشقة وانتقلت إلى سراييفو. وكانت أول القنابل الصربية على الإطلاق - كأن تلك القنابل تقتفي الخطوط في راحة يدها منبئة بالمصير الذي ينتظرها وعائلتها - قد فلتت شقتها من وسطها. قالت صديقة لها وهي تروي قصة تلك المرأة ببساطة: «الحمد لله أنها لم تكن في المنزل عندما قاموا بالقصف. لقد كتبت لي في رسالتها الأخيرة، أنها الآن على ما يرام. من كان يتصور أنه سينتهي بها المطاف في «كاراكاس» من بين كل مدن العالم!».

اللاجئون من سلوفينيا - وهم كروات - توجهوا إلى زغرب، وإستريا، ثم إلى البحر. بينما توجه اللاجئون من البوسنة إلى الجنوب، إلى كرواتيا، أو إلى الشرق، لصربيا. أما صرب كرواتيا



فقد ضربهم الكروات بهدوء ليتراجعوا، إلى أن جرت مطاردتهم بالجملة. وانسل المجريون من فويوفودينا بلا ضوضاء إلى المجر، وتبعهم بعد حين أعداد من الصرب أيضا. وسرعان ما بدأ ألبان كوسوفو في الانتقال.

لقد هربنا من كل مكان وإلى أي مكان نستطيع الوصول إليه. والتمن المدفوع اعتمد على الظروف. البعض فكر فيما يخصه فقط، والبعض فيما يخصه ويخص الآخرين، وآخرون لم يكثرثوا بالسؤال حول ذلك على الإطلاق. بعض المسلمين البوسنيين ذهبوا إلى تركيا، وإيران، والعراق، وبقدر ما إلى باكستان؛ والكثير منهم ندم على ذلك اليوم. بعض اليهود البوسنيين ذهبوا إلى إسرائيل؛ والعديد منهم ندموا على ذلك اليوم. غير الناس أسماءهم، واشترى من استطاع جواز سفر رخيصا. ما كان يعني كل شيء لهم حتى وقت قريب - كإيمانهم، وجنسيتهم - صار فجأة عملة عديمة القيمة عديمة الجدوى. سيطر عليهم حب البقاء على الحياة. وما إن تم تأمين ذلك، وما إن استقروا على شاطئ الأمان، حتى تنهدوا، وتحسسوا أنفسهم ليتأكدوا من أنهم مازالوا أحياء، وعلق كثيرون أعلامهم مرة أخرى، وأقاموا أيقوناتهم وشعارات نبالتهم، وأضاءوا شموعهم.

كنا في كل مكان. أولئك الذين اندفعوا مذعورين حصلوا على أفضل الأماكن: كأمريكا وكندا، والآخرون الذين ترددوا، تاهوا، وتحولوا إلى ما تبقى مفتوحا أمامهم من تأشيرات سياحية لمدة شهر أو شهرين، ثم يعودون إلى منازلهم استعدادا للبدء مرة أخرى. في ظل الفوضى العامة، استخدم الكثيرون الشائعات

كبوصلتهم الوحيدة - شائعات حول أين يمكنك أن تذهب دون وثائق وأيها لا يمكنك فعل ذلك فيها، وأي الأماكن أفضل في العيش وأيها الأسوأ، وأين يُرحب بهم وتلك التي على نقيض ذلك. وجد البعض أنفسهم في بلدان لم يكن ليروها في غير تلك الظروف. وبسرعة ارتفعت قيمة جوازات السفر الصادرة عن أول دولتين انفصلتا، سلوفينيا، وكرواتيا. فكان يمكن لجواز سفر كرواتيا أن يوصلك إلى بريطانيا العظمى لفترة معينة - إلى أن فهم البريطانيون الأمر وأغلقوا الباب. والقلّة من السذج وقّعوا ضحايا لشائعات قديمة - مثل الترحاب بالببيض بقلوب مفتوحة في جنوب أفريقيا - فذهبوا إلى هناك. أما الصرب، فقد كانت اليونان مهمة يسيرة، فذهبوا كسائحين وبائعات هوى، وانتهازيي حرب، وغاسلي الأموال القذرة واللصوص. البعض امتلك ثلاثة جوازات سفر - كرواتيا، وبوسني و«يوغسلافي» على أمل الفوز بالجائزة الكبرى على الأقل ولو لمرة: فقد قرر البعض الانتظار، متابعين الحرب وكأنها عاصفة على وشك أن تتلاشى. كان الناس الذين لديهم أطفال قلقين على أطفالهم أكثر من قلقهم على أنفسهم: إذ كانت سلامة الأطفال هي المهمة.

كانت أوروبا تعج بمواطني يوغسلافيا السابقة، إذ تم إحصاء موجة مهجري الحرب بمئات الآلاف. كان قد سُجل مئات الآلاف من الأسماء، أسماء أناس في وضع اللجوء الرسمي. فاستقبلت السويد ٧٠ ألفاً، وألمانيا ٣٠٠ ألف، وهولندا ٥٠ ألفاً. وكان هناك جيش من غير المسجلين رسمياً. لقد كنا في كل مكان. لقد فقدت كل القصص صفتها الشخصية تماماً، أو كونها مُحطمة

تماما. لأن الموت نفسه فقد قدرته على التحطيم. فقد كان هناك الكثير من الموتى.

سرعان ما تعلمت التقاط مواطني بلدي من بين الجموع، الرجال، وخصوصا الرجال كبار السن، الذين تحملوا الكثير. كانت محطات القطار الرئيسية وأسواق السلع المستعملة أماكن التجمع المفضلة لديهم. كانوا يتجولون في تشكيلات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مثل الدلافين، مرتدين سترات خفيفة لصد الريح، والأفضلية للجلد، وأيديهم مدفونة في جيوبهم. قد يقفون معا لفترة - يبدلون أقدامهم من قدم إلى أخرى، وينفثون دخان سجائرهم متخلصين من خوفهم - ثم يتفارقون.

في حينًا في برلين حيث كنت أسكن أنا وجوران، اعتدت أن أتوقف أمام واجهة عرض أحد «نوادي» اللاجئين. من خلال الزجاج كنت أستطيع أن أرى «أهلنا» يلعبون الورق بصمت، ويحملقون في جهاز التلفاز، ويتكلمون من حين إلى آخر وهم يرتشفون البيرة من الزجاج مباشرة. الخارطة المرسومة يدويا على الحائط كانت مرصعة بالبطاقات البريدية. كانت ذات جغرافيا خاصة بها. فالأماكن التي جاءوا منها - مثل برتشكو، أوبيلينا - كانت تقع في مركز العالم: فتلك هي الأوطان الوحيدة التي تركها الرجال. لقد بدوا، من خلال حلقات الدخان المتصاعد التي تحيط بهم، كأنهم «سابقون» مثل جنسيتهم السابقة؛ لقد بدوا كجثث خرجت من القبور من أجل زجاجة من البيرة، أو دورة من لعبة الورق، لكن انتهى بهم المطاف في المكان الخطأ.

في الشارع غالبا ما كنت أستمع خلسة لأسلوب كلامهم.

كان كلامهم يعج بالأرقام. لا يستطيعون التوقف عن ذكر الأرقام. المارك، ٥٠٠ مارك، ٣٠٠ مارك، ١٠٠٠ مارك... أما هنا في أمستردام، فكان حديثهم يدور حول الكثير من الجبي، وهي كلمتهم الدارجة للجيلدرات (العملة الهولندية): كذا وكذا من الجبي... ويطيلون حروف العلة وكأنهم يغفغفون، وفي الحقيقة كان كلامهم تتممة أكثر منه حديثاً، حديث لا ينتهي عن حسابات أرصدة واقعية أو متخيلة.

كان لدى الجميع مصطلحات ازدراء ينعنون بها سكان الدول التي حلوا بها: فنعتوا الألمان بـ «الشفابو»، والهولنديين بـ «الداتشير»، والسويديين بـ «الشفيد». وهذا جعلهم يشعرون بأهميتهم. كانوا يُتبلون حديثهم «بكما أقول» و«صدقني»، وذلك لتأكيد دورهم في القضايا المتداولة، بغض النظر عن أهمية الموضوع أو تفاهة دورهم فيه. فالإصرار على الرأي كان كل ما ينشدونه. فيقول أحدهم: «أستطيع الذهاب من أوستدروب إلى ليدزبلين في إحدى عشرة دقيقة». فيرد آخر: «كيف تستطيع ذلك في إحدى عشرة دقيقة. هذا يحتاج إلى خمس عشرة دقيقة على الأقل. هل قمت بحساب الوقت؟» فيرد: «نعم يا صديقي. خمس عشرة دقيقة بالضبط، من لحظة ركوبك الترام». كانت تلك الأحاديث، حيلة الرجال. كل كلمة مقصودة لتأجيل اللقاء مع الهوان وللتخلص من الخوف.

إن الطريقة التي يتحركون بها، والأماكن التي جاءوا منها، كشفت عن فقدانهم لفضائهم الشخصي: المقعد الطويل أمام المنزل، حيث كان يمكنهم مشاهدة العالم يمر من أمامهم،

أو واجهة المدينة المطلّة على البحر، حيث كان يمكنهم رؤية السفن التي ترسو، والآخرى التي تتحدر عن المعبر، وساحة المدينة، حيث كان يمكنهم التمشية مع أصدقائهم؛ والمقهى، حيث كان يمكنهم أن يجلسوا إلى طاولتهم ويتناولوا شرابهم . لقد كانوا يبحثون في المدن الأوروبية عبثاً عن الفضاء النظير الذي تركوه.

كانوا يبحثون أيضاً عن النظير الإنساني. كان جوران كثيراً ما يقع فريسة الحنين إلى يوغسلافيا، وعندما كان يتغلب عليه الحنين، كان معتاداً أن يجر أول رفيق من البلد نفسه يصادفه إلى البيت لتناول الشراب. وسرعان ما سمعت ما يكفي من القصص حول مراكز اللاجئين في ألمانيا وتجربتهم هناك. كان «أهلنا» يلتصقون مثل الغراء بأي شخص روسي، أو أوكراني، أو بولندي، أو بلغاري يقابلونه، شاعرين برابط معهم . أخبرنا شخص بوسني حكاية امرأة بولندية كانت تأتي إلى برلين على حافلة رحلات اليوم الواحد لتزويد «أهلنا» بالجبن، والنقانق البولندية بأسعار رخيصة، ومطارحة على التبن من حين إلى آخر. كانت النقود التي كسبوها، يذهبون بها لشراء الحاجيات التي تكفيهم لمدة أسبوع من برلين، مثلاً، ثم يستقلون الحافلة عائدين إلى منازلهم. كان بمقدورهم أن يقتفوا أثر بعضهم بعضاً في الشارع: إذ علمتهم بليتهم المشتركة تلك الحيلة. لقد أخبرنا الشخص البوسني نفسه عن بيت لل... في برلين (مستخدماً الكلمة الألمانية «باف») حيث كان يصرف كل المخصصات التي يتلقاها كلاجئ. كانت الفتاة التي يذهب من أجلها، واسمها «ماشاً»، «تأخذ منه كل ثروته ولا تعطيه شيئاً بالمقابل»،

ولكنه كان راضيا بذلك. كان يقول: «لأنها روسية، واحدة منا. فأنا لا أصرف دراهمي على فتاة ألمانية. تلك الفتيات الألمانيات يفتقرن إلى الروح. هن لسن مثل فتياتنا». وكان يقصد «بفتياتنا» الفتاة الروسية، «ماشيا».

كان الرجال أكثر شكوى من غيرهم؛ فشكواهم لا تتقطع قط. يشكون من الطقس يشكون من الحرب، ومن قدرهم، والجور الذي وقع عليهم. يشكون من ظروف في المخيمات إذا كانوا يعيشون في أحدها؛ وتذمروا من الظروف أن لم يكونوا مقيمين فيها. يشكون من الرعاية الاجتماعية؛ فتذمروا من الذل لاضطرارهم إلى قبولها؛ وتذمروا من عدم الحصول عليها. يشكون طوال الوقت من كل شيء وبنفس القوة. كان الأمر وكأن الحياة نفسها أصبحت عقابا لهم: فكل شيء كان يغيظهم، كل شيء كان يغضبهم، كل شيء كان يجرحهم؛ فلم يكن هناك شيء كافٍ لهم، وكل شيء تقريبا أكثر مما ينبغي.

كانت النساء أقل ظهورا بكثير من الرجال. لقد بقين في الخلفية، لكنهن حافظن على استمرارية الحياة: فترتقن الثقوب لمنع الحياة من التدفق خارجا؛ واضطلعن بها على أنها مهمة يومية. أما الرجال فبدوا كأن ليس لهم مهمة؛ فبالنسبة إليهم كونك لاجئا كانت مماثلة لكونك عاجزا.

هنا في أمستردام كنت أذهب أحيانا إلى مقهى بوسني اسمه «بيلا»، وهو مكان يرتاده مجموعة بأئسة من لاعبي الورق، ومشاهدي التلفاز. في كل مرة كنت أدخل المقهى، كنت أقابل بنظرات طويلة لا تعبر عن أي شيء - ولا حتى الدهشة أو

السخط - من منظر فتاة تغزو مكانا للرجال. كنت أتخذ مقعدا عند البار، وأطلب «قهوتنا» (التركية)، وأجلس هناك بعض الوقت وكأني أعاقب نفسي، فأخفض كتفي قليلا بطريقة غريزية لانسجم في جلستي. كنت أشعر بالصفعة الخفية على وجوههم تجتاح وجهي. لم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب وجودي هناك. قد يكون ذلك نابعا من رغبة غامضة باقتفاء أثر «قطيعي»، الذي لم أكن متأكدة قط أنه يعود لي - أو أنه كان لي أبدا.

لقد وافق تلامذتي أيضا أن يكونوا «أهلنا» أحيانا، رغم أننا لم نعرف ماذا كانت تعني الكلمة، ورفضوا ذلك أحيانا أخرى، وكأن تلك الكلمة يستتبعها خطر حقيقي، محسوس. وعندما كنا نرفضها، كنا نرفض الانتماء إلى «أهلنا هنا» أو «أهلنا هناك». كنا في بعض الأوقات نقبل هويتنا الجمعية الغامضة، وفي أوقات أخرى نرفضها بازدراء. لقد سمعت الناس مرارا وتكرارا يقولون: «إنها ليست حربي!»، وهي لم تكن حرينا. لكنها أيضا حرينا. ولأنها حرينا، لم يكن يجب أن نكون هنا كذلك.

لغتنا، هي كنز أرواحنا الوحيد،  
 أقحمناها في حقيبة السفر  
 بجانب ألبوم صور العائلة،  
 ثم ذهبنا للتمايل مع طواحين الهواء  
 نضرب الهواء الهولندي البارد.  
**فريدا دراكوفتش**

كان أول شيء طلبته من تلامذتي هو كتابة الإجابات عن بعض الأسئلة. سألتهم عما كانوا يتوقعون تعلمه من المقرر الدراسي، موضحة أن يوغسلافيا لم يعد لها وجود، وما إذا كان ينبغي معاملة الآداب اليوغسلافية كوحدة واحدة، أم وحدات منفصلة، وأي الكتب والأعمال تعجبهم، وهلم جرا. ثم طلبت منهم أن يكتبوا سيرا ذاتية مختصرة عن أنفسهم. باللغة الإنجليزية.

«لماذا بالإنجليزية؟»

قلت: «لتسهيل الأمر عليكم».

وقد كنت أعني ذلك، إذ كنت متخوفة (ولو أنني كنت مخطئة) من أن استخدام «لغتنا» سيؤدي بهم إلى تبني الأسلوب الاعترافي، وهذا ما لم أكن أريده. ليس بعد.

تمتم أحدهم: «أيا كان».

«حسنا، افعلوا ما يحلو لكم».

«هل تريدننا أن نعطي أسماءنا الكاملة؟».



«الاسم الأول كاف».

«ماذا تريدیننا أن نضع فیها؟».

«أي شيء یخطر علی بالکم».

تذمر طالب آخر: «لقد فعلنا ذلك فی المدرسة الابتدائية».

قمت بقراءتها فی المنزل. تأثرت بسذاجة إجاباتهم. ( «الأدب لوحة زيتية للعقل، أغنية للروح»). كانت قائمة الكتاب والأعمال التي سجلوها والتي تثير إعجابهم یمكن التنبؤ بها علی نحو مخیب للأمال. ذكروا هیرمان هيسه، وبالطبع، قدموا العديد من رواياته: سيدهارتا، ماجیستر لودي، ستيفن وولف. ثم ذكروا میشا سلموفتش (الطلبة، الذين قرأوا الأدب من أجل رسالته الفعالة فی الحياة، كانوا یعتقدون، بحق أو بغير حق، أن سلموفتش هو النظیر الیوغسلافي لهيسه) بروايته الكلاسيكية الموت والدرویش. أنا واثقة من قدرتهم جمیعا علی سرد مقطعين من الكتاب، أحدهما یشجعهم علی الفرار من هويتهم الإقليمية («الإنسان لیس مجبولا من الخشب؛ فمأساته الكبرى كونه مقيدا«)، والآخر یغرس فیهم العدمية المحببة للإقليمية («فالموت غیر معقول مثله مثل الحياة«). وكان الموضوع الشائع الآخر هو كتاب فتیان محطة حديقة الحيوانات، موضع إعجاب المراهقين ویمثل جيلهم. كان وجود بوكوفسكي أيضا ضروريا لعديد من الأجيال بوضعه الثائر، واللامنتمی. لقد نعتوه بـ «الممتاز» و«الرهیب»، و«الحاكم» فهو قد مثل «كل ما یعنيه الأدب»؛ «الأدب بحفلاته الراقصة».

استدعت إجاباتهم صورة منسية منذ عهد بعيد للبلدات المحلية الیوغسلافية: مكتبة البلدة الوحيدة، التي تبیع

القرطاسية أكثر مما تباع الكتب؛ ودار السينما الوحيدة «حيث كانوا يشاهدون» مرة، إن لم يكن مرتين «كل فيلم جديد؛ والمقاهي الممتلئة بالدخان، حيث يتجمعون بانتظام؛ واللكورزو، معهد البحر المتوسط بالساحة العامة حيث يتجولون كالجراء باحثين بعضهم عن بعض. لقد تشكلت ذائقتهم وفقا لهذه البلدات الباهتة مثل بيلوفار، وفيريس، وبيلا بلانكا، إضافة إلى حفنة من الكتاب مثل كارلوس كاستتيديا، الذي ظهر في طريقهم عندما تناولوا الحشيش لأول مرة، وبعض البوذية من الدرجة الثالثة، وقليل من عصر الموضة، وشيء من النظرية النباتية، وبعض من بوكوفسكي، والكثير من موسيقى الروك، وقليل من القراءة (ما يكفي لذر الرماد في العيون)، وأطنان من النصوص الهزلية (كانت تقرأ سرا من تحت مقعد الدراسة)، وكثير من الأفلام السينمائية، وقليل من الإنجليزية التي وصلتهم أكثر ما وصلتهم عن طريق الأفلام وليس عن طريق معلمي اللغة الإنجليزية. لقد كانت تلك الذائقة خليطا من اللذة والألم، ذائقة مضطربة برغبة في الهروب، واقتناص أول فرصة للتوجه إلى زغرب أو بلجراد، أو سراييفو» أو إلى أبعد من ذلك.

في النهاية، ما أثبتته تمريني البسيط أنه لا يمكنهم الاهتمام بالأدب. إنه يضجرهم. حتى من تلقوا تعليما أدبيا - فميليها كانت تحمل شهادة في الأدب اليوغسلافي من جامعة سراييفو - وقد غيرت الحرب ما هو أكثر بكثير من أولوياتهم، لقد غيرت ذائقتهم. كتبت ميليا تقول:

بدأت ذائقتي تتغير حالما اندلعت الحرب. والآن نادرا ما أستطيع التعرف على نفسي. الأشياء التي كنت أحتقرها قبل الحرب، وأسخر منها على نحو ممرض عذب، أصبحت الآن أذرف الدموع عليها. لا أستطيع أن أبعد نفسي عن الأفلام القديمة التي تنتهي بانتصار العدالة. قد تكون تلك الأفلام عن رعاة البقر، أو روبين هود، أو سندريلا، أو وولتر يدافع عن سراييفو. قد أكون أيضا نسيت كل شيء تعلمته في الجامعة. أترك أي كتاب لا يشد أوتار قلبي. ولم يعد لدي صبر للاستعراض الفني وخيلاء التقنيات الأدبية أو التهكمية «وهي أكثر الأشياء التي كنت جهزت لها مخزنا ضخما. أما الآن فأنا مولعة بالبساطة، والحبكة التي تتكشف عن رمزية أخلاقية. وأكثر ما يعجبني، والنوع المفضل لدي هو الحكاية الخرافية. أحب العدالة الرومانسية والبسالة، والشفقة، والصدق. أحب أبطال الأدب الذين يتمتعون بالشجاعة حين يجبن الناس العاديون، والذين يتمتعون بالقوة عندما يكون الناس العاديون ضعفاء، والذين يتمتعون بالنبل والطيبة عندما يكون الناس العاديون وضعاء وحقراء. أعتزف بأن الحرب قد جعلت ذائقتي طفولية: فأنا أذرف الدمع عندما أقرأ كتب الأطفال القديمة خاصتي» المغامرات الغريبة للصبي المبتدئ هلووبتش، وصبية شارع بال، وقطار في الثلج. وإذا قال أحد إنني تحولت إلى نصير متطرف لحكايات المأثر البوسنية، كقصة «برانكو تشوبك»، مثلا، فإنني كنت أرى أنه فقد عقله.

رد معظمهم بالإيجاب عما إذا كانوا يرون أن تُعامل الآداب الكرواتية والصربية والبوسنية كوحدة واحدة.

(«طبعاً ينبغي ذلك. فنحن نتكلم اللغة نفسها، أليس كذلك؟ وكتب ماريو: لم لا نمضي أبعد من هذا، وندرج الآداب السلوفينية، والمقدونية، والألبانية. فكلما كانت أكثر زاد المرح»).

أما موضوع السير الذاتية المختصرة فقد كتب جميعهم جملتين أو ثلاثة بإنجليزية متكلفة. («ولدت سنة ١٩٦٩ في سراييفو، البوسنة، حيث عشت طوال حياتي ...» ولدت سنة ١٩٧٤ في زغرب لأم كاثوليكية وأب يهودي ...» ولدت سنة ١٩٧٢ في زفورنك لأب صربي وأم مسلمة ...» ولدت في لسكوفلك سنة ١٩٧٢ ... - وكنت كلما أمعنت بالقراءة اتضح لي أن الكتابة بلغة أجنبية تمدنا بعذر للحفاظ الموضوعي والإيجاز. فأنا نفسي لم أكن أستطيع أن آتي بأكثر من قولي إنني ولدت سنة ١٩٦٢ في زغرب، في يوغسلافيا السابقة، لذا حازت كلمات إيجور: «اللغة! ليس لدي أي سيرة ذاتية»، رضاي التام، وجعلتني أنفجر ضاحكة.

بدت سيرتي الذاتية خاوية مثل شقتي تماماً، ولم أعرف ما إذا كان شخص ما قد أخرج الأثاث في غفلة مني، أم أن الشقة كانت دائماً هكذا. لقد كانت مواجهة الماضي القريب عذاباً تاماً، ومحاولة التحقق من المستقبل المجهول مقلقة. (أي مستقبل على أي حال؟ المستقبل هناك؟ أم المستقبل هنا؟ أم مستقبل ينتظر في مكان آخر؟) لهذا السبب وجدنا أن السيرة الذاتية المختصرة نوع من الكتابة عسير جداً. حتى أن بعض الأسئلة الأساسية كانت تجعلني أتردد. أين ولدت؟ في يوغسلافيا؟ في يوغسلافيا السابقة؟ في كرواتيا؟ اللغة! هل لدي أي سيرة ذاتية؟

كما أربكتني قليلا أعياد ميلادهم: فتطورهم العقلي تخلف كثيرا عن عمرهم الزمني. ربما كان المنفى نوعا من النكوص. ففي هذه المرحلة من العمر يُفترض أنهم قد استقروا في وظائفهم وأنجبوا أطفالا، لكنهم ها هنا يتوارون خلف مقاعد الدراسة. إن حالة المنفى قد أخرجت كل المخاوف الطفولية الدفينة إلى السطح. ففجأة لم تعد نظرة ولمسة يد الأم الحنون موجودة. كان الأمر أشبه بكابوس. ربما كنا في الشارع، في السوق، أو على الشاطئ، وسواء كانت غلطتنا أم غلطتها، فقد افترقت أيادنا وذهبت الأم أدراج الرياح. فواجهنا عالما بدا شاسعا وعدوانيا بشكل مرعب. تتقدم تجاهنا أحذية عملاقة ونحن نشق طريقنا في غابة من الأرجل البشرية، فيزداد رعبنا...

كثيرا ما راودني انطباع أنني أرى أثرا لذلك الخوف في الظلال التي لفت وجوه طلبتي. قالت أنا ذات مرة: «في المهجر تكبر قبل الألوان، وتبقى صغيرا إلى الأبد» في نفس الوقت، وفي تلك المسألة، في رأيي، تكمن حقيقة عميقة.

في الرد على السؤال عن توقعاتهم حول ما سيخرجون به من المقرر الدراسي، كتب يوروش: كلمة «يستعيد»، وتلك الكلمة، بالطريقة التي استعملها بها، بدت وكأنها تعني ليس فقط «الاستفاقة من صدمة»، و«استعادة الوعي»، و«العودة إلى الحياة»، لكن أيضا «العودة إلى الذات»، وكأنها افترضت مسبقا مكانا، وشخصا يتخبط في هذا المكان، يبحث عن طريق يقوده إلى الوطن. في البداية شعرت بتوتر ما لبث أن أعقبه رعب من تلك الإجابة. فهل كنت جاهزة للتعامل مع ذلك النوع من الاحتياج؟

تضاريس الأرض الهولندية منبسطة؛  
تتوارى بعيدا بعد قول وفعل كل شيء  
إلى داخل البحر، الذي يجسد بعد قول  
وفعل كل شيء، هولندا أيضا ... ففي هولندا  
لا يمكن للمرء أن يتسلق الجبال أو يموت من الظمأ،  
فضلا عن أن يترك أثرا واحدا  
عندما يترك المنزل فوق دراجة هوائية  
أو ماخرا عباب البحر. ذكرياتنا  
ليست سوى هولندا أخرى، لا يمكن لسد  
أن يقف في وجهها. وهذا يعني أنني  
أعيش هنا في هولندا منذ زمن أطول  
من تلك الأمواج المحلية المتلاحقة  
لغير مستقر لها. مثلها مثل هذه السطور.

### جوزيف برودسكي

في بعض الأحيان، عندما كنت أواجه صورتي في مرآة  
الحمام، كنت أشعر برغبة عابرة لمعرفة أين أنا بالضبط.  
لم أطرح أسئلة مثل هذه قط عندما كنت أعيش أنا و«جوران»  
معا؛ بل لم أطرح أسئلة على الإطلاق: إذ يبدو أنه لم يكن هناك  
وقت لطرحها. وفجأة أصبح لدي متسع من الوقت، وذلك جعلني  
في غاية القلق. بدا الأمر وكأن هناك الكثير جدا من الوقت،

والقليل مني. غالبا وبإطراد تغلب عليّ شعور بغيض، فقدان للحس لم أعده من قبل. لم أتوقف عن تفحص نفسي كمن يتفحص فمه بلسانه بعد علاج الأسنان، على أمل استعادة إحساسي، ولكن الإغراء الذاتي بالخدر وفقدان الحس كان أقوى ورفض الإذعان. لم يكن لدي أي فكرة من أين جاءت تلك القوة أو متى بدأت. بُعيد انتقالني إلى هنا، بدأت الشقة تثير أعصابي. فقد ترك الحمام الضيق، الذي كان بلا نوافذ، بدشه، وبلاطه الأبيض، وأرضيته الأسمنتية، شعورا كابوسيا لدي؛ فهو يشبه مقطعا من فيلم قديم بالأبيض والأسود. استمررت في محاولة تحسينه: فاشترت بعض حليات رخيصة، وصبانة للصابون، ومنشفة غالية الثمن بشرائط زينية عند الحواف مشغولة يدويا؛ وجددت الإضاءة. كشفت إضاءة الأنوار الجديدة عن تراكم الأوساخ في الفراغات بين البلاط، وفي إحدى الليالي أمضيت عدة ساعات في إزالة الأوساخ بفرشاة أسنان قديمة في محاولة عنيدة لتغيير شكل المرحاض الخارجي بقوة بهيمية. كان جدار الصالة الصغيرة مصبوغا باللون الأخضر الرمادي عند نصفه الأول من ناحية الأرضية، ومفصولا عن نصفه الآخر بخط أخضر بشع. وكانت الأرضية مغطاة بمشمع أسود، مما أعطى الشقة رائحة مستشفى أو سجن. لقد فعلت كل ما أستطيع فعله «اشترت مزهرية، ومصباحا، ولوحة بالأبيض والأسود لأفق مدينة نيويورك» لكن وجود كل هذه الأشياء كشف عن قلق الغياب. غياب ماذا؟ لم يكن لدي إجابة. تساءلت إن كان مكان آخر سيجعلني أشعر بشكل أفضل. لم أكن متأكدة أيضا. في الليل ألتف بالظلمة وبدثار صوفي، أجلس في مقعدي

ذي الذراعين مقابل النافذة وأحلق إلى الخارج من خلال القضبان،  
أحلق فيمن هم أحياء من أجل سماع ضجيج أو أصوات، أو قطة  
أو وقع أقدام أناس يندفعون عابرين. بالتأكيد لم أكن أنا المكان.  
لكن آنذاك لم أكن أنا نفسي أيضا.

ذعري من شقة البدروم تلك راح ينمو بعفوية استوائية، مثل  
وردة العشق، وزهرة الباسيلوم...، والنباتات المتسلقة التي تزين  
جدران المنازل وبوابات الحدائق في أماكن متعددة في هذه  
المدينة. استمررت أضبط نفسي وأنا أخطف حقيقتي اليدوية،  
وألقي بمعطفي على كتفي، وأهرول خارجة من المكان، دون أن  
أعرف وجهتي.

المدينة، التي كانت تشبه حلزوننا، أو محارة، أو شبكة عنكبوت،  
أو قطعة من شريط زيني، أو رواية بحبكة دائرية فريدة لا نهاية لها،  
لم تتوقف عن إرباكي قط. كنت دائما أضل طريقي وأواجه مشاكل  
كبيرة في تذكر أسماء الشوارع، ناهيك عن أين تبدأ تلك الشوارع  
نفسها وأين تنتهي. كان الأمر كمن يغرق في كوب ماء. ينتابني ذلك  
الشعور بأنني «لو كنت أليس في بلاد العجائب، كنت بالتأكيد لن  
أجد موطن قدمي وسأسقط في حفرة» سينتهي بي المطاف في  
عالم مواز ثالث أو رابع، فأمرستردام ذاتها كانت هي عالمي الموازي.  
لقد خبرت أمستردام كحلم خلف صدى في واقعي. لقد حاولت حل  
لغز هذه المدينة بالضبط مثلما حاولت أن أفسر أحلامي.

كان الشيء الأكثر سحرا فيها هو الرمل. كنت أقف بجانب  
أحد المنازل التي يجري هدمها، وأراقب العوارض المتعفنة تسقط  
أرضا، والماء ينبعث خارجا لأعلى من أعماق غير مرئية عبر



حفرة قبيحة «في الرمال. كنت أراقب العمال وهم يصلحون حصي الأرصفة في أمستردام بتحريكها بقوة ليخرجوها، ثم يعيدون وضعها» في الرمال. لقد زود الرمل المدينة بأساس مجازي، وواقعي أيضا، وكان تقريبا يثير في نفسي ردة فعل جسدية: فكنت أشعر به باستمرار في فمي، وشعري، وأنفي.

لم أستطع التغلب على مجموعة العلامات والإشارات «التي كانت بمنزلة بصمات» التي بها أوضح سكان المدينة بجلاء أنها تخصهم. كنت أعتقد أن تلك الإشارات طفولية، لذا كانت مؤثرة. مثلما فعل هانزل وجريتل حين كانا يلقيان بكسر الخبز وراءهما حتى ترشدهما إلى البيت عند العودة. كل واحدة من تلك الإشارات «كتمائيل القطط التي تتسلق واجهات المنازل القديمة، والأعلام التي تتدلى من النوافذ، والملصقات الإعلانية، بل والصور العائلية، خاصة صور الأطفال حديثي الولادة، والنقوش والشعارات، والتماثيل الصغيرة، والدمى، بما فيها دمي الدببة الصغيرة، والأقنعة الأفريقية، ودمي الماريونيت الإندونيسية، ونماذج السفن، والمجسمات المصغرة طبق الأصل للبيوت الهولندية»، كلها كانت لها رسالة واحدة فقط: «أنا أعيش هنا! انظري! أنا أعيش هنا». انتابني شعور بأن كل تلك «الصور الساكنة» و«دمي الماريونيت» و«المنمنمات» بل والزخارف البسيطة لأنية الزهور الرخيصة المسماة «أيكّا» والتي تسكن حطام سفينة «زينو» المهمة بـ ٢ جيلدر - كلها شاهد لا شعوري على خوف السكان من الزوال. كانت بيوت الدمى مطمورة في بيوت دمي، المباهاة الطفولية المدنية، والبصمات المتعمدة في الرمال - عند

مستوى معين كانت كلها ترجع الصدى مع قلقي، الذي لم أستطع أن أضع يدي على اسمه أو مصدره.

كنت أسكن قرية جدا من محطة القطار، ووجدت نفسي أذهب إلى الصالة الرئيسية، حيث كنت أقف أحملق في جدول المواعيد، وكأن وصول القطارات ومغادرتها سيوفر حلا للغز الكامن خلف قلقي. وفي إحدى المرات، وبشكل اندفاع عفوية، استقلت القطار إلى مدينة «لاهاي»، حيث مضى عبر المدينة وعاد بعد بضع ساعات أخيرا إلى أمستردام. منذ ذلك الحين كونت عادة ركوب القطارات إلى أماكن لا تعني لي شيئا على نحو خاص. لقد ذهبت إلى الشمال، إلى مدن جرونجين وليوردين، وفي الجنوب إلى روتردام ونيجين وإيندهوفن، وفي الشرق، إلى إنشيد وإلى المدن القريبة مثل هارليم ولايدن وأوترتشت؛ وإلى مدن أخرى قريبة من هارليم وليدن، وأوترتشت؛ وقد أذهب إلى مدن لأنني استحسنات أسماءها ببساطة: مثل أبلدورن وأمستفورت، وبريدا، وتلبيرغ، وهورن، هنجيلو وآميلو، وإلى ليليستاد التي ذكرني اسمها بتهويدة أطفال. بدت هولندا بلدا صغيرا بشكل لافت للنظر. غالبا ما كنت أنزل من القطار وأسير جيئة وذهابا على رصيف المحطة ثم أستقل القطار التالي عائدة إلى أمستردام. كانت الرحلة وحدي تريح أعصابي. فقد كنت أحملق من خلال النافذة للخارج، وذهنى فارغ، وكانت الأراضي الهولندية المنخفضة تخفف من قلقي. كنت أستمتع بهذا الاستواء المطلق، الهادئ متواصل في أثناء الحركة. ورحت أعجب باللافتات التي تمر كالبرق في إيقاع قوافي العد عند

الأطفال: سوني، وبراكسس، وفودافون، ونيكون وإنكو، وجي في سي، ورائدستاد وفيليبس وشيل ودوبي، ونيندرز وبن... وكما يبدو أننا نحب الناس لعيوبهم أكثر من فضائلهم، لذا فإنني اكتسبت تدريجياً تعاطفاً مع المشهد الطبيعي للغياب، خط الأفق المستقيم، بلونه الأخضر الفاتح، والمشاهد الليلية الباردة بأقمارها المكتملة، وأسراب الإوز البيضاء الضخمة تلاً في العتمة، أو الأطياف المتجمدة لقطعان الأبقار اللاهية في الطريق وكأنها أشباح ودودة.

لقد أتقنت لغة الوحدة في القطارات والمحطات. أنا، الجوالة التائهة، وسرعان ما اكتشفت أنني لم أكن وحدي. أثناء وقوفي على رصيف المحطة قد ألفت إلى أحد المسافرين ممن يستطيعون رؤية اللوحة الإلكترونية ورؤيتي أيضاً، وأسأله: «من فضلك، القطار التالي ذاهب إلى روتردام، أليس كذلك؟».

«آسف، لا أستطيع الجزم بذلك».

«إلى أين أنت ذاهب؟»

«أنا؟ روتردام».

وقد أراقب الناس في القطارات، وأصغي إلى أحاديثهم بالرغم من أنني لم أفهم لغتهم، وأن أشتم روائحهم. كنت أتخيل وجوههم على شاشة حاسوب وأستعرضها، مسجلة تفصيلاً تلو أخرى، وكانت الصور تظهر لفترات طويلة أو قصيرة من الزمن، وغالباً ما كان يتملكني شعور بأن شخصاً آخر غيري قد فتح لهم الباب. هناك صورة لفتاة يافعة تجلس مقابلتي في القطار. وهي تضع سماعة صغيرة في أذنها مربوطة بسلك ينتهي في حقيبة

يد نصف مفتوحة وعليها اسم ماركة «إسبرت» التجارية. كان القطار مكتظا، لكن الفتاة كانت غافلة عمن يحيطون بها: فقد كانت تتحدث بصوت مرتفع، محمقة في نقطة أمامها مباشرة بلا أي تعبير. ظلت مستمرة في الكلام، وصوتها حاد، كصوت آلة، واعتدلت في جلستها والحقيبة في حضنها، ربما لخوفها من أن تسقط تلك الحقيبة وتتعرض للتلط. وكانت يدا الحقيبة معتدلتين أيضا، وقاربتا الوصول إلى فمها، وكأن الكلمات تخرج من فمها وتتسل إلى داخل الحقيبة. وعندما انتهت المكالمات، نزعَت السلك من أذنها، وأخرجت الهاتف المحمول من الحقيبة، وأغلقتة، ودسته في رمال كلماتها التي تدفقت للتو من ثغرها قبل أن تزمم الحقيبة.

وثمة صورة لشاب أسمر نحيل البنية يتأمل كتابا لتعليم اللغة الهولندية للأجانب، ويقوم بمضغ ممحاة قلم رصاص وكأنها علكة مسكرة. يضع الكتاب في حضنه لبرهة، ثم يلتفت نحو النافذة، ويتمم بعض الكلمات لنفسه محاولا تثبيتها في ذهنه، ومن ثم يعود إلى الكتاب.

وهناك صورة لزوجين صينيين يمضغان العلكة بحركة متزامنة، وقد بدا وجهاهما شاحبين بشكلهما الفئران. الزوجة ترتدي بلوزة مفتوحة، تعوزها بعض النظافة، تكشف عن صدرها. أما الزوج الذي يستمر في مضغ العلكة، فيضع ذراعه حولها.

تستمر الزوجة في مضغ العلكة، وتغمز بعينين ليستا لقاصر.

وثمة صورة لسيدة مغربية متعبة تحمل صبيا في حضنها .  
حجم الصبي لا يزيد على كيلوين، له شعر أسود كثيف مفروق  
إلى الجانب شأنه شأن شعر الراشدين . وجهه عليه مسحة  
الغياب المرعبة الموجودة على وجوه كل الأطفال، تلك المسحة  
التي نراها على الوجوه في الأيقونات واللوحات الزيتية القديمة .  
في أحد أسفاري توقف القطار بشكل مفاجئ . وهذا ما حدث  
أيضا مع القطار القادم من الجهة المقابلة كان يجلس في المقعد  
الذي يقابل مقعدي في القطار الآخر رجل يمسك نوتة موسيقية  
في يده ، ويؤدي اللحن الموسيقي باليد الأخرى . كان مستغرقا في  
الموسيقى التي تتفاعل بداخله تماما ، ويوقع إيقاعات قصيرة ،  
رقيقة، مكبوتة . كنت مسحورة بذلك . كان وجهه مضيئا بسمو  
داخلي . لم يكن العالم الخارجي موجودا بالنسبة إليه : فقد كان  
محاطا بالموسيقى الصامتة كأنها كبسولة لا يمكن اختراقها ؛  
فلا شيء يمكن أن يمسه . ولكن سرعان ما تحرك القطاران ،  
قطاره وقطاري ، وتوارى وجه الرجل . شعرت بوخز وكأني كنت  
أرى نفسي في الزجاج ، وكأني كنت أرى نفسي لكن دون أن  
أسمعها . شعرت وكأن طيفي قد رحل في الاتجاه المعاكس .

في غمرة تجوالي في المدينة كانت تتتابني أحيانا رغبة  
جامحة ، مفاجئة ، خارجة عن السيطرة ، تعود إلى شيء يتصف  
بالبراءة . فكلما انحشرت في عربة ترام بجانب رجل  
ذي عضلات مكشوفة مفتولة ، أشعر برغبة ملحة في تقبيل تلك  
البشرة الذهبية لشخص غريب عني . كما كنت أشعر كلما انحشر  
بجانبني في المقصورة رجل يضع قرطا في أذنه ، أشعر برغبة في

نزع ذلك القرط بأسناني. لقد أرعبتني قوة تلك النوبات غير المتوقعة، لكنها مع ذلك منحنتني شعورا بالانعتاق. الانعتاق من ماذا؟ لا أستطيع الجزم.

تشكلت خارطة مدينتي الداخلية وفقا لانسجام خاص بها. كانت الصور تأتي وتذهب، لتلبث بعض الوقت أو تتلاشى كالرمال. كان ذلك يشبه البحث عن درب في العتمة أو المنام. لقد رسمت خارطتي الداخلية على أكثر ورق استشفاف رقة، ولكن حالما فصلتها عن الخارطة الحقيقية، رأيت ولدهشتي أنه فارغ. لم يظهر على الورق شيء البتة. ولا أي شيء. ربما كنت سأنأثر عاطفيا مع أي بادرة خط بمعنويات عالية، لكن سرعان ما كان يتوقف ويتلاشى. أحيانا كانت خارطتي الداخلية تبدو كرسم أخرج للأطفال. إن مدينة تشبه حلزونا، وقوقعة، وشبكة عنكبوت، ومتاهة، وقطعة من شريط زينة، ورواية تعج بروافد غامضة، قد تتحول، في خارطتي الداخلية، إلى سلسلة من الفراغات، والفجوات، والنتف، والنهايات المسدودة. كانت خارطتي الداخلية حصيلة محاولة شخص فقد ذاكرته لتعيين موقع إحداثياته، محاولة متسكع لترك آثار قدميه على الرمال. لقد كانت خارطتي دليل الحالم. لم يكن عليها فعليا أي شيء متطابق مع الواقع.

لكنني عرفت شيئا واحدا على وجه اليقين. فأينما ذهبت كان طلابي هم من يمدونني بالاتجاه. لقد كانوا مركزي الداخلي، وساحة مدينتي، وشارعي الرئيسي، ووريدي الوداجي. وأنا أعني ما أقول حرفيا.

وهكذا نرى أنه قد تمت المحافظة على الحياة هنا  
ولكن

بثمن أعلى من قيمة الحياة نفسها، لأن  
قوة الدفاع عنها والإبقاء عليها استُعيرت  
من الأجيال اللاحقة، مما أوقع تلك الأجيال في  
الدين والعبودية. والشيء  
الوحيد الذي بقي يصارع كان مجرد غريزة الدفاع  
عن الحياة،

في حين أن الحياة ذاتها فقدت الكثير ولم يبق  
من مكنونها النفيس أكثر من اسمها. ما بقي  
واستمر في الحياة أصبح  
معاقا ومشوها وما  
يجيء إلى العالم ويبقى حيا أصبح مُسمما في  
أصله، سقيما. وبقيت أفكار الناس وكلماتهم  
غير مكتملة، مقطعة مثلما قُطعوا هم  
من الجذور.

**أيضو أندريتش**

قلت لطلابي بالأ يقلقوا على أي شيء: فسيحصل جميعهم  
على درجات عالية. قلت لهم إنني مدركة أن معظمهم التحق  
بالدراسات الصربية - الكرواتية لأسباب عملية، لذا لم تكن لدي

نية بتصعيب الأمر عليهم.

«أنا هنا أستاذة زائرة لمدة فصلين دراسيين فقط. ليس من المنطق من طرفي أن أَلعب دور الأستاذ، وهذا يعفيكم أيضا من تمثيل الأدوار».

سأل أحدهم: «إذن، ماذا علينا أن نفعل؟».

أجبتة: «لا شيء».

سألوا وهم يخفون ضحكاتهم: «لا شيء؟».

أجبتهم: «أوه! سنشغل أنفسنا بطريقة ما».

شعرت بعيونهم تحمق فيّ. بدوا وقد أثّر اهتمامهم بوضوح. قالت إحدى الفتيات: «علي أي حال، أنا لا أستطيع حضور المحاضرات. لدي

طفل رضيع».

أجبتها: «لا مشكلة في ذلك».

ردت الفتاة: «شكرا»، وأخذت أغراضها وغادرت الغرفة.

ضحك الآخرون ونظروا باتجاهي، وهم في حيرة عما سيحدث. لكن ميليتها تولت الأمر.

«أول شيء فعلوه عندما جئنا إلى هنا هو وضعنا في مخيمات

للاجئين - تعرفين ما يفعله الهولنديون في مثل هذه الظروف - وخصصوا لنا أطباء نفسيين. شاءت الأقدار أن يكون طبيبنا النفسي من «أهلنا»، لاجئة مثلنا. أتعلمين ماذا قالت لنا؟ - هلا قدمتم لي جميعكم خدمة، أتفعلون؟ جدوا مسحة صغيرة من الجنون في أنفسكم. اخترعوا خبرة مؤلة أو اثنتين إذا اقتضت الحاجة. لا أريد أن أفقد عملي هنا - فضحكنا جميعا. وتواصل العمل.



من الطبيعي أنني كنت مدركة لسخافة الموقف الذي وضعت فيه: إذ كان عليّ أن أدرّس موضوعا لم يعد له وجود من الناحية الرسمية. فما كان يسمى بتخصص الأدب اليوغسلافي في الجامعة في الماضي - والذي ضم الآداب السلوفينية، والكرواتية والبوسنية، والمقدونية، وأدب الجبل الأسود - اختفى مع اختفاء بلده الأم. هذا علاوة على، أن الطلبة الذين عُينت لأدرس لهم لم يكن لديهم أي اهتمام بالأدب: فقد انصب اهتمامهم على الحصول على وثائق الإقامة الهولندية. لقد وُظفت لتدريس أدب بلد (أو آداب عدة بلدان) هرب منها طلابي أو طردوا. لقد كان المنزل مدمرا، وكانت مهمتي أن أجد طريقا واضحا عبر الحطام.

قررت، أن تكون أداتي الرئيسية هي اللغة: «لغتنا» الصربي/كرواتية. لكن اللغة التي كان يجري الحديث بها في كرواتيا، وصربيا، والبوسنة، والجبل الأسود صارت الآن، مثلها مثل البلد التي كانت تُتطرق فيها، أصبحت منقسمة إلى ثلاث لغات رسمية: الكرواتية، والصربية، والبوسنية. صحيح أن اللغتين الكرواتية والصربية كانتا تتمتعان ببعض الاستقلال الرسمي حتى في عهد الدولة اليوغسلافية، لكن هناك أمرا جديدا: وهو نشأة حواجز تفتيش لتأكيد الفروق بين هاتين اللغتين. لم أعر اهتماما كثيرا لهذه اللغات «الجديدة» ولم يعنني البتة تقسيمها بناء على بضع عشرات من الكلمات التي تميزها عن بعضها. ما كان يعنيني بشكل أكبر هو وجود جمود معين في تلك اللغة، جمود جعل طلابي لا يرغبون، ولا يستطيعون استخدامها: فلغتهم القومية

التي أحاط بها الشك، قد سيطرت عليها إنجليزية ركيكة، وقد شرعوا أخيرا باستخدام ركيك للغة الهولندية.

أخبرتهم أنني أوّمن بشدة بأن الكرواتية، والصربية، والبوسنية هي تنويعات على لغة واحدة. و«أن اللغة هي لهجة يقف جيش خلفها. وهذه اللهجات الثلاث مدعمة بقوات شبه عسكرية. وأنتم لن تسمحوا لمجرمين أنصاف متعلمين بإعطائكم مشورة في المسائل اللغوية، أليس كذلك؟» لكنني أيضا كنت مدركة أنني أنتمي إلى جيل كانت كتبه الدراسية في الأدب في المرحلتين الابتدائية والثانوية مرقشة ببعض نماذج من الأدب السلوفيني، والمقدوني، والصربي، والكرواتي، مكتوبة وفق أصول الأبجدية الرومانية أو السلافية القديمة، وأن حقيقة وجود تلك الكتب الدراسية ستتسبب عما قريب.

لكن الأمور لم تكن إلى هذا الحد من البساطة. فطلبتني يعرفون جيدا أنني لم أكن أتحدث مجازيا عندما ذكرت الجيش: فهم كانوا يعرفون أن قوات عسكرية وقفت خلف «لغاتنا»، وأن «لغاتنا» استخدمت في السب، والإذلال، والقتل، والاغتصاب والتهجير. كانت لغات قد دخلت الحرب طبقا للاعتقاد بأنها متضاربة، بل ربما لأنها على وجه الدقة، كان من المتعذر فصلها بعضها عن بعض.

لقد زحرت الصحف بالأعمدة اللغوية. صار القصاب، والخباز، وكل شخص عالما لغويا في لحظة، وأتت الحرب بـ «قواميس الاختلافات» فالصرب، الذين كان قد تحول الجزء الأكبر منهم إلى الأبجدية الرومانية، بدأوا يعودون إلى الأحرف السلافية

القديمة، أما الكروات، المتلهفون لجعل اللغة الكرواتية كرواوية بقدر الإمكان، فاستخدموا بضعة تراكيب عسيرة مستعارة من اللغة الروسية، بل وبعض المفردات المعجمية الأكثر صعوبة، كانت متداولة أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد كان طلاقاً بائناً مليئاً بالضجيج والضراوة. في النهاية، كانت اللغة سلاحاً: فهي التي وُصِّمت، وخانت، وُفرقت، وهي التي وُحِدت. يأكل الكروات الـ «كروه»، ويأكل الصرب «هلب»، ويأكل البوسنيون «هليب»: فهي كلمة مختلفة في اللغات الثلاث وتعني الخبز، أما كلمة «سمرت» أي «الموت» فكانت واحدة عند الجميع.

وهذا لا يعني أن اللغة قبل ذلك الطلاق «والتي كانت تسمى باللغة الصربو كرواوية»، أو الكرو - صربية، أو الكرواتية والصربية مثلت تركيبة لغوية أفضل، أو أكثر قبولا، ثم دمرتها الحرب. لا، فاللغة كانت تؤدي وظيفة سياسية؛ وكان الجيش يقف خلفها أيضاً؛ وتم التلاعب بها، وتلويثها بكثافة بالخطاب الأيديولوجي اليوغسلافي. لكن التاريخ الذي يقف وراء صهر التنويعات الثلاث في تركيبة واحدة استغرق عملية أطول، وذات معنى أكثر من الطلاق الذي حدث بين عشية وضحاها، تماماً مثل تاريخ بناء الجسور والطرق الذي يستلزم عملية أطول وأكثر معنى من عملية هدمها فجأة.

أخبرنا بوبان بأحد أحلامه المتكررة. كان يبحث عن شارع في زغرب، لكنه تخوف من السؤال عنه، لأن الناس سيعرفون أنه من بلجراد.

سألته: «ماذا لو عرفوا ذلك؟».

«سيعرفون أنني صربي. وربما قد يبصقون في وجهي أو يطردونني».

«وماذا أيضا؟».

«لم أتمكن من إيجاد الشارع الذي أبحث عنه».

«عمن كنت تبحث؟»

«عن صديقة لي. كان اسمها مايا».

ضحك أحدهم ضحكة مكتومة.

«أين كانت تسكن، حبيبة القلب؟».

«انعطف إلى اليمين من شارع «موشا بياد». إنه أحد تلك

الشوارع هناك».

قلت: «إن لشارع موشا بياد اسما جديدا الآن».

«ما اسمه الآن؟»

«مدفشتشاك».

قال بجدية، وكأنه سيستخدم المعلومة هذه الليلة: «أوه!

شكرا».

سألته: «هل من الممكن أن يكون شارع مايا هو شارع

نوفاكوفاف؟».

صاح قائلا وقد شع وجهه بالراحة: «نعم، إنه هو! نوفاكوفاف!».

علق سليم: «يا رجل، شئ جيد أنك لم تحلم بالبوسنة.

لو قبض عليك رجالنا، لكان جسمك نضح بالرصاص».

ساد الصمت في الغرفة. لقد زرع سليم لغما في القاعة.

«سليم، من الآن فصاعدا احتفظ بتعليقاتك لنفسك.

لن أسمح بأن تتحول قاعة الدرس إلى ساحة قتال».

لم يستطع سليم أن يُوقف صربية بوبان، التي كانت صريحة: فكلما تحدث بوبان في قاعة الدرس، كان سليم يشيح بنظره، ويسحب أنفاسا بصوت عال ويسعل في يده. وعندما كان سليم يتكلم في قاعة الدرس، كان يكشف لغته البوسنية، وهو أمر كنت متأكدة منه، أكثر مما كان يفعل في الخارج.

كانت نيفينا مختلفة تماما. كان كلامها يتسم بنوع من الفصام اللغوي: فكانت تتلثم وتستخدم كافة الأنواع الإقليمية واللهجات المحلية بطريقة غير مقيدة، وغير متجانسة؛ فقد تبدأ جملة مستخدمة اللهجة الصربية الجنوبية، ثم تنتقل إلى محاكاة الخطاب الزغربي، ثم تشرع في التشدق البوسني، وأخيرا بنزوة فجائية تستعمل النظام النغمي، وبذا كانت تبدو مثل طفل متوحد. أخبرتني فيما بعد أن والدها الصربي ووالدتها الكرواتية كانا على خلاف دائم، وأخيرا انفصلا قبيل اندلاع الحرب. كنا جميعا لدينا أعباؤنا العرقية. لقد انتقلت نيفينا للعيش مع جدتها في البوسنة، ومن هناك جاءت إلى أمستردام كلاجئة.

قالت لي، وكأن اللغة الهولندية حقيبة نوم: «أشعر بارتياح أكثر عندما أتحدث الهولندية».

كان يوروش يغمغم وكنا في كثير من الأحيان بالكاد نستطيع فهمه. تميز كلامه أيضا باستخدام عدد مفرط من صيغ التصغير. مثل الخدم في الروايات الروسية في القرن التاسع عشر، بدا أنه يستخدمها لاسترضاء الناس من حوله. كان الأمر وكأنه متخوف من أن يقوم محدثه بلكمه على أنفه، وأن تلك الصيغ اللطيفة ستحميه من ذلك. كان بقية الطلبة يهزأون من

استخدام يوروش لهذه الصيغ كسخریتهم من میل الهولنديين إلى استخدامها. أصبح التحدث في الفصل الدراسي محنة بالنسبة إلى يوروش، ما دفعني إلى تركه وشأنه في معظم الأحيان. كان إيجور طليق اللسان بالهولندية. كانت الهولندية تعني له الحرية؛ فلغته الأم قد أصبحت عبئا.

«عندما أتكلّم «لغتّا»، أشعر وكأنّی ممثّل في مسرحية قروية، إنّ كنت تعرفین ما أعنيه». وقد قال جملة - إنّ كنت تعرفین ما أعنيه بالإنجليزية الأمريكية، لقد كان دائما يُتبل «لغتّا» بالأمركة اللغوية: فذلك جعلها أكثر قبولا عنده.

جميع «لغاتنا» تحاول تأسيس نموذجها الأدبي الخاص بها، لكن اللغة أو اللهجة الوحيدة التي تبدو طبيعية هي تلك المهجنة أو غير الشرعية. عندما أستمع إلى «الدماسيين» يتكلمون الكرواتية أقول لنفسی «آه، هذا رائع». لكن عندما أصغي إلى الموظفين يتكلمون الكرواتية، أرى التصنع، والامتيازات، والسلب. ثمة أمر غير طبيعي فيها جميعا «اللغات الكرواتية والصربية والبوسنية... انظري، أنا موسيقي روك، ولدي أذن تميز ما تسمع جيدا. إنّني أعی ما أقوله».

كانت نسخة «لغتّا» التي يتحدث عنها إيجور، هي الكرواتية الفصحى، التي صارت أضيق أفقا بعد رحيله من هناك. لم يمر يوم دون ذكر ما للغة في وسائل الإعلام. كان الضغط من أجل التغيير هائلا. تأقلم البعض مع اللغة الجديدة بمرونة مذهشة؛ بينما أجفل آخرون في رعب. والبعض رأى أنّ تلك هي الطريقة الوحيدة لتأكيد ولائهم؛ وآخرون رأوا في ذلك أسوأ كابوس

يمرون به. الجمود، والتفاهات المملة، واختزال الأحداث. صارت التفاهات لغة مشفرة: سلبت المتحدث شخصيته، ووضعت حوله درعا. على أي حال، كانت التفاهات لغة حول شيء لا يمكن التعبير عنه باللغة. لقد بدا أن هناك خيارين فقط: إما الصمت صدقا أو التحدث كذبا.

وجد الشباب ملاذا تلقائيا في اللهجات التي كانوا يحتقرونها في الماضي ويصفونها بـ «الفلاحية»، أو وجدوا ملجأ لهم في أسلوب حديثهم الخاص، على سبيل المثال، كحديث أقرانهم في اللعب أو المدرسة. تلك كانت ملاجئ مؤقتة للحماية من اللغة الرسمية التي أفرزتها الحرب، وانتشرت في كل مكان، ولوّثت كل شيء. كانت تلك الملاجئ أشبه باللغة السرية التي كنا نستخدمها عندما كنا أطفالا ليستعصي على الكبار فهم ما نقوله.

كانت اللغة جرحنا المشترك، وكان يمكن أن تأخذ أكثر الأشكال انحرافا. مازلت مسكونة بحادثة لامرأة بوسنية قيل إنها حفظت عن ظهر قلب قصة اغتصابها، وكانت تروي القصة كلما جاء ذكرها. وأصبح الاغتصاب كأحد تجليات الأعمال الحربية خبرا عالميا، وأضحت تلك المرأة الضحية الوحيدة التي استطاعت أن تقدم رواية مفصلة عن اغتصابها. وسرعان ما تهافت عليها الصحفيون الأجانب والمنظمات النسوية، التي دعته إحداها للمجيء إلى أمريكا. وهناك سافرت من مدينة إلى أخرى مرردة قصة إذلالها، لدرجة أنها استطاعت أخيرا أن تحفظ عن ظهر قلب نسخة بالإنجليزية لتلك القصة. استمرت في سرد قصتها دون انقطاع «تلك القصة تختلف الآن عن مضمونها الأصلي بشكل

كبير» في مشهد يشبه ما يقوم به النائحون الذين يستأجرهم الفلاحون للنواح على موتاهم في الجنائز. سرد الحكاية المؤلمة كان طريقة تلك المرأة لتخفيف ألمها.

كثيرا ما سألت نفسي إن كانت لغتي الكرواتية قد بدأت تبدو جامدة ومملة. كنت أشعر في بعض الأحيان بأنني مثل طالبة تتعلم الكرواتية كلغة أجنبية. قد أجد نفسي أقول شيئا بطريقة جامدة جدا، وباردة جدا، كأن فمي كان ممتلئا بالثلج.

قال بوبان ذات يوم: «هل تتذكرون محاربي الساموراي في الأفلام اليابانية التي اعتدنا أن نشاهدها؟ محاربو الساموراي لا يتكلمون؛ بل فقط يقطبون وجوههم ويديرون أعينهم. دائما ما كنت أخشى أن ينفجروا بسبب الكلمات التي لم يستطيعوا النطق بها. في الحقيقة نحن مثلهم، نحن ساموراي. نحن نتحول إلى اللون الأحمر، وتجحظ عيوننا، وتتفخ العروق في أجسادنا دانية من الانفجار، ولا ننطق بكلمة. لذا يُشهر السيف». صفق الطلبة له بحرارة.

قال إيجور: «مدهش حقا، مدهش حقا! لم أعرف أن كل هذا موجود في داخلك! أسلم بأنك تتفوق على ميلوسوفتش فصاحة!».

صاحت ميلياها: «أنت محق! وأنا ساموراي من سراييفو». كنت دائما أعول على ميلياها. نحن لا نكتفي أبدا من قصصها عن سراييفو «قصص الخوف، والظلمة، والإذلال، والجنون، والكراهية، والأحياء والأموات... كانت ميلياها سيدة السرد التفصيلي، حتى عند وصفها للظلام الدامس في الملاجئ بعد



صفارة الإنذار، وفي كل القصص التي روتها . منها قصة المرأة التي جُنت عندما قتلت قنبلة يدوية طفلها، وراحت تضرب خديها لساعات في الواجهة الجص لمنزلها حتى تحول وجهها إلى جُرح دام؛ وعن قصة حياتها قبل الحرب، وعن مخيم اللاجئين الذي دخلته لأول مرة، والرجل الهولندي الطيب المسن الذي كان يدفع لها مقابل التمتع برفقتها، وقصة أمها التي كانت تتعلم الهولندية برعايتها لطفل إحدى الجارات البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أمل أن يساعد كلامها كالأطفال في تسهيل طريقها للولوج إلى عالم يخلو من الألم، ويمحو الماضي القريب الذي كانت تتوق إلى نسيانه .

كنا نتحرق شوقا لكل كلمة تقولها . لا أحد غيرها كان على استعداد للبوح بطريقتها . البعض لم يزل خائفا جدا، وآخرون خجلون جدا؛ والبعض وضعه حرج لشعوره بالذنب لأنه لم يمر بتجربة الحرب، بينما آخرون أعاقهم مجرد التفكير في الرعب الناتج عن تلك الحرب .

في النهاية، كانت صيحة استعادة الوطن من خلال «الجوهر الوطني» للغة، صار كذبة كبيرة، وحقيقة مؤكدة في الوقت نفسه؛ أخيرا، كان طلابي لديهم تناغم أيسر في الحديث بلغة ليست لغتهم «بالإنجليزية والهولندية» رغم أن سيطرتهم على اللغتين تركت الكثير دون تفسير . إن اللغة الأم «لغة العشيرة»، لغة الشاعر الكرواتي التي في شعر الوجد، «لغة» ذات حفيف، ترن، وترجع الصدى، وتقعقع، وترعد، وتزأر، وتدوي فجأة ظهرت لهم في ضوء جديد تماما . من هنا، كان الجوهر - أشبه ما يكون

بأنيميا لغوية، تقلص لا إرادي في الوجه، تلعثم، عذاب، تجديف،  
أو مجرد ترويج لعبارات لغوية.  
صاحت ميلها ذات يوم: «أيها الأصحاب! لتذهب اللغة إلى  
الجحيم! لنتحدث مع بعضنا، ليس إلا!».  
وفجأة بدأت الحياة تدب فيهم من جديد.

كنت أشعر بالغربة في القسم. حاولت مرات عدة أن أرتب موعداً مع سيز درايسما، رئيس القسم، و«مضيفي»، الذي كان يرد دائماً: «نعم، بالتأكيد. المشكلة فقط أنني مشغول جداً في الوقت الحالي. إن كانت هناك مسائل عملية تحتاج إلى حل، فستقوم دنيا بمساعدتك. أنا متأكد من ذلك».

كانت دنيا سكرتيرة القسم هولندية. كانت متزوجة من روسي. اسمها الحقيقي آنكي. كانت تبدو كفقمة ضخمة كسول، محاطة بالنباتات المثقلة بالغبار، منعمة في حوضها المائي الذي يدعى مكتب، ومن حين لآخر، كانت تمن علي الزوار بنظرة جوفاء. لا يمكن لشيء أن يغيظها: فكانت ترد بتبرم علي أي سؤال أطره «بنعم» أو «لا»، أو بالتظاهر بعدم سماع السؤال. قلت لدرايسما عدة مرات، عن طريق إرسال إشعار تذكرة: «نحتاج إلى أن نتحدث بشأن المقرر الدراسي الذي سأدرسه». وكان يرد دائماً، بنبرة مدرب كرة قدم: «السلافيون مدرسون بالفطرة».

لم أستطع أن أحدد ما إذا كان هذا التعليق على سبيل الهزل، أم أنه إطراء حقيقي.

«إنيس تبلغك تحياتها. حالما تنتهي من ترتيبات العودة إلى المدرسة، سندعوك إلى العشاء، موافقة؟».

كان درايسما يصدق على ما كنت أسمعه من إنيس في كل مرة كنت اتصل بها. («لا بد أن تأتي لزيارتنا. لكن ليس قبل أن يصفو

الجو. أنت لا تعرفين إلى أي حد الأطفال مزعجون. لا أستطيع حتى الذهاب إلى مصفف الشعر. والآن، فهمت الأمر. سأقول لك شيئاً، يمكنك في تلك الأثناء القيام بزيارة جميع المتاحف، وبعد ذلك سنتقابل»).

كان الطابق الخامس، حيث يوجد القسم، يتكون من ممر طويل معتم فيه خمسة عشر باباً موصداً. من وقت لآخر، كنت أرى زميلاً يندس إلى داخل غرفته من دون أن يكثرث بوجودي. كانت أنيكي أيضاً تغلق باب مكتب القسم، وغالباً ما كانت تضع لافتة: سأعود قريباً. وأخيراً توقفت عن محاولة رؤية درايسما. وكان الكائن الحي الوحيد الذي أراه بانتظام هو المحاضرة الروسية المكتتزة. اعتادت أن تجلس إلى مكتبها خلف الباب الموارب وهي تحرك شفيتها، كأنها تأكل شطيرة غير مرئية، أو تقرأ شيئاً لنفسها.

كانت تحييني بخجل إذا ما التقت عينانا: «مرحباً».

مرة واحدة فقط طرق زميل بابي.

سأل: «هل يمكنني الدخول؟».

قلت: «بالتأكيد».

«إذن، أنت زميلتنا الجديدة».

«يمكنك قول ذلك».

مد الرجل يده مصافحاً.

«يسعدني التعرف بك. اسمي «ويم»، «ويم هويكس». أدرّس

التشيكية، اللغة التشيكية وآدابها. أنا في آخر مكتب على اليسار».

استلطفته مباشرة.

«أتساءل: لماذا لم يعرفك - سيز- على أي منا».

«أوه! ربما لأنني هنا فقط لفصلين دراسيين».

«وما الضير في ذلك؟! هذا ما كان ينبغي أن يحدث».

«أفترض أن هذا هو العرف الأكاديمي هنا».

«نحن الهولنديين هكذا، نتأني. تمر عدة سنوات قبل أن ندعو

شخصاً إلى منازلنا. الخصوصية عذر رائع لكثير من الأمور، بما

في ذلك هذه الحالة من عدم الحصافة المتعذر اغتفارها. الأمر

ليس أننا غير راغبين: بل هو مجرد رغبة في عدم التطفل».

«حقاً؟».

رد قائلاً: «أهلاً بك في أكثر دول العالم نفاقاً على هذه

الأرض! الآن أخبريني كيف تسير أمورك هنا».

«على ما يرام».

«و ماذا تُدرِّسين؟».

«حالياً أتعرف على طلبتي فقط».

قال: «إن روسلاف كرليتزا كاتب عظيم».

«والكتاب التشيك لم يكونوا أقل مرتبة».

«ماذا عن الطقس؟ دائماً ما يشكو الأجانب من الطقس هنا».

«ليس بمناخ البحر الكاريبي، ولكن...».

«ألا تشعرين بالملل؟».

«لماذا... تسأل؟».

«لأنها تأتي في مقدمة الدول المملة على هذه الأرض!».

«أليس في ذلك بعض التناقض؟».

«ماذا تعنين؟».

«كيف لبلد أن يكون منافقا، ومملا في آن؟».

«هولندا فقط تتميز بهذه الصفة».

«وأنا التي كنت أظن أن الأوروبيين الشرقيين أسياد الانتقاص

من الذات».

«كلا، هذه واحدة من صفاتنا الأخرى. فقط لا تدعينا نخدعك.

نحن لا نقصد ذلك. نحن في الحقيقة نقدر أنفسنا تقديرا عاليا

جدا. إنها الغطرسة الاستعمارية. لقد تركنا المستعمرات، لكننا

احتفظنا بالغطرسة. سوف ترين ذلك ...».

نظر إلى ساعته واعتدل واقفا، ثم قال: «حسنا. تعالي لرؤيتي

في أي وقت تشائين. يمكننا الذهاب لتناول القهوة في مكان ما.

مكتبي الأخير على اليسار، وهو الأصغر في هذا الطابق. مكتبك

يفوقه حجما بكثير، فأنت من يوغسلافيا السابقة، وهذا يجعلك

في مرتبة أعلى منا نحن الهولنديين».

«من أي جانب؟».

«أنتم لديكم مسألة القومية، والحرب، وحقبة ما بعد

الشيوعية. ونحن غارقون في كل ذلك في لاهاي».

«لسوء الحظ!».

«لقد كانت بلدا في غاية الجمال! دوبروفنك هي أجمل مدينة

رأيتها في حياتي. لا أفهم أبدا كيف حدث ذلك؟».

«أنت لا تعتقد أنني أعرف السبب».

«بالطبع لا ... لكن عندما تغرز سكيننا في بطن أحدهما، فإنك

تثير ضجة يعرف بها العالم أجمع. نحن نفعل ذلك في الخفاء.

لا نريد للناس أن يعرفوا، بل إن ضحايانا ممتنون لذلك ... على

كل حال سنتكلم في مناسبة أخرى. لقد سعدت بلقائك». هم بالخروج، ثم استدار عند الباب. «لا يمكن أبداً للأجانب أن يلفظوا اسم تلك الجزيرة المحاذية للشاطئ - الدماسي -...».

«كرك».

«حسناً. هل الاسم يعني - عنق -؟».

«عنق؟ لا. تلك كلمة مختلفة. لماذا تسأل؟».

«لأن ذلك ما تعنيه في اللغة التشيكية. يحب التشيك أن يعذبوا الأجانب باستخدام تلك الكلمة في عباراتهم». «كيف ذلك؟».

ضحك قائلاً، وهو يمثل تلك الحركة على نفسه: «أدخل إصبعك في...». ثم استدار من جديد، ومضى يخطو عبر الممر. كان الطابق الخامس خاوياً تماماً باستمرار حتى أنني تخليت عن شعور الشخص المهرَّب، وتخليت أيضاً عن طرح الأسئلة على السكرتيرة، والطرق على باب «درايسما». لكنني، مع ذلك، زرت «ويم» في مكتبه ثلاث مرات زيارة خاطفة. كان مكتبه أصغر بكثير من مكتبي. وكان في كل مرة أزوره يخبرني بأنه مشغول جداً، وفي كل مرة كان يدس في يدي مقالا كتبه خارج من الطابعة ساخناً - على سبيل الترضية، على ما أظن. تعلق المقال الأول بكتاب كارل تشابيك «رسائل من هولندا»، والثاني «كراهية النساء» في روايات كونديرا، والثالث «المتعة اللغوية» في الأعمال النثرية لبهومل هاربل.

لم نذهب قط لتناول القهوة معا . بقي تواصلني -الحي -الوحيد في القسم محصورا بتلك المحاضرة الروسية الممتلئة، التي تحمل في يدها شطيرة غير مرئية . فكلما مررت من أمام مكتبها، كانت تبتلع تلك اللقمة الخفية، وتتلفظ بتحيتها الخجولة .

إذا أخذنا كل الأمور بعين الاعتبار، فقد ترك القسم انطبعا كئيبا عليّ، ذلك الانطباع كان يتصاعد، فقط، بسبب الشكوك النمطية التي تساور السلاف المحليين عن السلاف في أوروبا الغربية . كان السلاف الأوروبيون الغربيون قد تعودوا على الدخول في هذا التخصص لأسباب عاطفية : إما لأنهم وقعوا في حب أحد النماذج غير المألوفة في دول أوروبا الشرقية . وإما لأنهم يدعمون اختيارهم لهذا التخصص بمقتضى واقعة سياسية ثقافية، مهنية، عاطفية . هناك سبب آخر : أن هذا التخصص جعلهم سادة على قُصْر، خارجين عن المسار، إقطاعية الأدب واللغة التي لم يغامر فيها أحد من قبل، مما جعل احتمالية تقييم كفاءتهم بشكل ملائم إحصائيا ضئيلة . مع ذلك، يفترض أن أكون آخر من يحق له أن يحكم عليهم، إذ كنت مدينة بوظيفتي لمعرفتي بإنيس، التي كانت متزوجة من درايسما، الذي شاءت الأقدار أن يكون رئيسا للقسم .



## أنا: الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمراء والبيض والزرَق

كانت مجرد حقيبة بلاستيكية لأغراض متنوعة. أما ما جعلها استثنائية فهو أنها احتوت على خطوط حمراء، وبيضاء، وزرَق. كانت أرخص قطعة متاع يدوي في الدنيا، وتشكل صفقة عمالية لمنتجات فويتون الشهيرة. كان لها سحاب يفتحها ويغلقها، لكنه دائماً ما كان ينكسر بعد بضعة أيام. عندما كنت طفلة، اعتدت أن أفكر ملياً في كيفية وضع الكرز وأشياء أخرى داخل حبات الشوكولاتة من دون أن يكون فيها ثقب أو شق. والآن أفكر ملياً في سؤال طفولي آخر: مَنْ صمَّم الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمراء، والبيضاء، والزرَق، وقدمها إلى العالم في ملايين النسخ؟

بدأت الحقيبة بخطوطها الحمراء، والبيضاء، والزرَق محاكاة ساخرة للعلم اليوغسلافي (لكن صديقين! أحمر - أبيض - أزرق!)، من دون النجمة الحمراء. كانت أول مرة رأيت فيها واحدة من تلك الحقائق، أظن، كانت في إحدى الأسواق الشعبية. كان البولنديون يأتون بكريماتهم الرخيصة ماركة نيفيا، ومناشف الكتان لتجفيف الأواني وخيم الرحلات، والمراتب التي تُعبأ بالهواء، وما شابه ذلك. أنا متأكدة من أنني لو سألت البولنديين، لقالوا إنهم حصلوا عليها من التشيك، ولرد التشيك بلا، نحن لا نصنعها، لقد حصلنا عليها من المجريين؛ ونفى المجريون

ذلك قائلين: إنهم حصلوا عليها من الرومانيين، الذين بدورهم سينسبونها إلى الفجر.

على أي حال، لقد وجدت الحقائق البلاستيكية بخطوطها الحمر، والبيض والزرق، طريقها عبر وسط أوروبا الشرقية لتصل إلى روسيا، وربما أبعد من ذلك إلى الهند، والصين وأمريكا، والعالم أجمع. لقد كانت حقيبة الفقراء، وصغار اللصوص، وتجار السوق السوداء، والبائعين على العربات الصغيرة في عطلات نهاية الأسبوع في الأسواق الشعبية، واللاجئين والمشردين. آه تذكرت، كانت بناطيل الجينز و«التيشرتات»، والقهوة تسافر في تلك الحقائق من تريستا إلى كرواتيا، والبوسنة وصربيا، ورومانيا، وبلغاريا... وأيضا الجاكتات الجلدية، والحقائب اليدوية، والقفازات تأتي من اسطنبول، وما تبقى من أشياء كانت تأتي من السوق الصينية في بودابست، مغادرة إلى مقدونيا، وألبانيا، والبوسنة، وصربيا وغيرها من المناطق. كانت تلك الحقائق بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق تنتقل من مكان إلى آخر كالبدو الرحل، واللاجئين، والمشردين، لكنها كانت أيضا من الناجين، فكانت تسافر في القطارات من دون تذاكر، وتعبير الحدود من دون جوازات سفر.

عندما صادفت واحدة من تلك الحقائق في أحد المتاجر التركية هنا في أمستردام، اشتريتها على الفور بجيلدرين. وفيما بعد، طويتها إلى نصفين ووضعتها لوقت الحاجة إليها مستقبلا، كما كانت تفعل أُمي بالحقائب البلاستيكية البيض العادية: - لأنك لا تعرفين متى ستكونين بحاجة إليها. كنت مدركة

أنني بشرائي إحدى تلك الحقائق قد أدت طقس عبور ذاتي: بانضمامي إلى أكبر عشيرة علي الأرض، مجموعة شكلت لها تلك الحقيقة البلاستيكية بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق ألوانا، ورمزا، ودرعا من أذرع مطوية في آن. الشيء الوحيد الذي لم أجد له إجابة: من الذي نزع النجمة الحمراء؟. كانت لعبتنا منبثقة من حقيقة أنا الرمزية.

قالت ميليلها: «أول ما ينبغي عمله هو ما اعتاد - أهلنا - على فعله. ينبغي ربطها بإحكام حتى لا يسقط منها شيء». كنت لتظن أنها تصف طقسا ممتعا.

قال داركو: «أعترف بأنني كنت أشعر بالخجل من أهلنا كلما رأيتهم يأخذون متاعهم المتواضع من على سير الحقائق في المطارات».

قال إيجور: «كان ذلك يزعجني أيضا. كنت أقول لنفسي: انظر إلى هؤلاء الريفين السذج الذين علي أن أسافر معهم - لكن أعتقد الآن أن ذلك رائعا». سألته: «كيف ذلك؟».

«هل تعرفين من يمتلك أغلى متاع في العالم؟». «مادونا؟».

«كلا. إنهم الروس. والبغايا ذوات المرتبة العالية، ورؤوس المافيات. وذلك ما أعادني إلى المظهر العجري: الحقيقة البلاستيكية التي رُبطت كحذاء أحد المتشردين، كس من ذهب... أنا، كم كنت محقة فيما يتعلق بالنجمة المفقودة. نحن جميعا طبقة عاملة! الشيء الوحيد هو أن بابا ماركس يقبع في قبره».

صاحت ميلياها: «عندك حق! وهو يتقلب في قبره في هذه اللحظة بالذات».

لقد اقترحت على خجل أن يكون مشروعاً دراسياً - أو لعبة، في الحقيقة: كانت دليلاً على الحياة اليومية في يوغسلافيا. جاءت أول مساهمة من أنا. قدمت موضوعها حول -الحقيقية العجرية - في المحاضرة التالية. وبعد ذلك اقترحت أن نحفظ بكل محتويات تلك الحقيقية العجرية الافتراضية في متحف - حيناً إلى يوغسلافيا. «أي متحف؟».

«أوه! سيكون متحفاً افتراضياً أيضاً. كل شيء تتذكرونه وتعتبرونه مهماً. البلد ذهب أدراج الرياح. لم لا ننقذ ما لا تريدون نسيانه؟».

قال بوبان: «أتذكر المسيرات التي كانوا يقيمونها بمناسبة عيد ميلاد الرئيس «تيتو». كنا نشاهدها على التلفاز كل عام». قالت ميلياها: «كلنا نتذكر ذلك يا صديقي. تحدث عن شيء أكثر خصوصية».

قال ماريو: «أول دراجة هوائية ملكتها. كانت واحدة من تلك الدراجات المنخفضة التي كنا نسميها - بالمهر- هل يعد ذلك شيئاً خصوصياً؟». «بالتأكيد!».

قالت ميلياها بمزاح: «أنت مثلك مثل كل الرجال، لا تفكرون سوى في رجولتكم. ماذا عن الطعام؟ والفطائر، والبقلاوة؟». «الفطائر، والبقلاوة، والمكرون».

ابتهجوا جميعا بمجرد تذكر أغنية «بالشفتش».  
قالت نيفينا: «إذا كانت المكرونة تؤدي الغرض، فكل شيء مقبول».

قلت: «أي شيء يشعرك بالسعادة».  
سأل سليم خافضا عينيه: «أو بالحزن؟».  
أجبت: «أو بالحزن. لم لا؟».  
«ماذا عن معتقل أومارسكا؟».  
خيم السكون على المكان فجأة. وأنا تجمدت في مكاني.  
«هل تريد التحدث عن ذلك يا سليم؟».  
«ماذا يوجد به للحديث عنه؟ إنه المتحف الافتراضي الوحيد الذي أملكه. لقد نحر الصرب والدي هناك».

لقد ألقى سليم بلغم آخر من ألغامه. لا يمكنني القول إنني لم أتوقع ذلك: فأنا كنت أحاول شق طريقي في حقل من الألغام منذ البداية. جميعنا لدينا ذكريات عن الحرب، وخسائر مثل خسائر سليم لا حد لها. لقد مر سليم وميليهما بتجربة الحرب بكل ويلاتها من قرب. أحجم يوروش ونيفينا عن الحديث حول الحرب على الرغم من أنهما من البوسنة أيضا. لقد غادر بوبان، وماريو، وإيجور البلاد لتجنب التعبئة، وبدا بذلك أنهم لم يصابوا بعدوى الجنون القومي - القومية الصربية بالنسبة إلى بوبان، والتنوع في كرواتيا بالنسبة إلى ماريو، وإيجور. أما جوهانكي، فقد تابعت الأحداث من هولندا. أنا، التي وصلت إلى أمستردام مع زوجها الهولندي قبل الحرب، تابعت الأحداث من خلال وسائل الإعلام الكرواتية، والصربية، والهولندية، لكنها قامت

بزيارات دورية ليس فقط إلى بلجراد، ولكن أيضا إلى زغرب، حيث كان لها أقارب مقربون. كانت تجربتي مع الحرب لا تذكر مقارنة بتجربتهم.

أدركت أنه لا بد من إيجاد أرضية مشتركة، لأنهم لم يختلفوا فقط في تجاربهم عن الحرب، بل وأيضا في اهتماماتهم. فبينما كانت ميليا تحمل شهادة في الأدب اليوغسلافي من سراييفو، كان يوروش قد حصل على تعليم حتى المرحلة الثانوية في البوسنة، وقد دخل الجامعة للتو. كان ماريو يدرس علم الاجتماع في جامعة زغرب. وكانت أنا قد قبلت بقسم اللغة الإنجليزية في جامعة بلجراد، لكنها انسحبت مباشرة. كانت نيفينا قد درست علم الاقتصاد لمدة عامين، أما أنتي فكان قد تخرج في كلية تدريب المعلمين في أوسيك. كان بوبان قد نجح في عامه الثاني في كلية الحقوق. وكان داركو يحمل شهادة في إدارة الفنادق من أوباتيا. كان سليم قد التحق للتو بقسم الرياضيات في جامعة سراييفو عندما اندلعت الحرب. أما بالنسبة إلى إيجور، فكان ينتقل من تخصص إلى آخر: فقد أخبرني مرة بأنه درس علم النفس لفترة معينة، لكنه أخبرني لاحقا أنه أمضى عامين في أكاديمية زغرب للفنون المسرحية والسينما في البرنامج الذي يعنى بالإخراج المسرحي. لم أضغط عليه قط لمعرفة ماضيه، إذ لم يعد ذلك يحمل أي أهمية.

أما فيما يتعلق بالأرضية المشتركة، فقد كنت أشعر بتمزقهم الداخلي، وغضبهم ورفضهم المكبوت. لقد انتهكنا جميعا بطريقة أو بأخرى. فقائمة الأشياء التي حرمتنا منها طويلة ومرعبة؛

إذ حُرِّمنا من الوطن الذي ولدنا فيه، ومن حقنا في الحياة العادية؛ وحرماننا من لغتنا، وعانيينا من الإذلال، والخوف والعجز؛ لقد تعلمنا معنى أن نصبح مجرد أرقام أو فصيلة دم، أو شرزومة. البعض - مثل سليم - فقد الأصدقاء المقربين والأقارب. كان فقدهم أصعب أمر يمكن تحمله. والآن كنا نحن من نحاول بشتى الطرق أن نتماثل للشفاء.

في خضم هذا الجنون كنت أبحث عن مساحة تخصنا جميعاً على السواء، وتولمنا أقل ما يمكن من ألم. في اعتقادي، أن تلك المساحة، قد تكون ماضيينا المشترك. لأن هناك شيئاً آخر حرماننا منه، وهو حقنا في التذكر. اختفاء الوطن يولد الشعور بوجوب محو الحياة التي عشناها. فلم يكتف السياسيون الذين جاءوا للحكم بالتمتع بالسلطة فقط؛ بل أرادوا أن يكون مواطنو دولهم مثل الموتى الذين أُعيدوا إلى الحياة لكن مسلوبي الإرادة والقدرة على الكلام، أناساً بلا ذاكرة. لقد شهِروا بماضيهم اليوغسلافي، وشجعوا الناس على التخلي عن حياتهم السابقة ونسيانها. كنا من المفترض أن ننسى كل شيء، بما في ذلك الأدب، والأفلام، والموسيقى، والنكات، والتلفاز، والصحف، والسلع الاستهلاكية، واللغات، والناس. الكثير من ذلك انتهى في النفايات على شكل مخزون من الأفلام والصور، والكتب، والكتيبات، والوثائق، والنصب التذكارية... أصبح الحنين إلى يوغسلافيا، وتذكر الحياة في ذلك الوطن السابق، أصبح له اسمٌ آخر هو التخریب. إن انهيار الوطن، والحرب، وكبت الذاكرة، ومتلازمة الطرف المقطوع، والفصام العام، وبعد ذلك المنفى، إن هذه الأشياء

كلها - وأنا متأكدة من ذلك - كانت الأسباب التي تقف وراء مشاكل طلبتي العاطفية واللغوية. كنا جميعا في حالة تشوش. لم يكن أحد منا يعرف من نحن، فضلا عن مَنْ وماذا نريد أن نكون؟ في الوطن كان طلابي يستاءون من الديناصورات، الذين يحنون إلى يوغسلافيا، وهم لم يشعروا إلا بالقليل من الألفة مع الدولة الجديدة سابقة التعليب المتراجعة عن المستقبل. وهنا، في هولندا، وُصموا بتجار اللجوء السياسي، واللاجئين، والأجانب، وأحفاد ما بعد الشيوعية وسقط البلقنة، والمتوحشين. كان الوطن الذي جئنا منه هو المنأى المشترك.

أدركت أنني أحاول المشي على حبل مشدود: فإثارة الذاكرة تعد لحدا كبيرا وتلاعبا بالماضي مثلها مثل إلغائها. السلطات الموجودة في بلدنا السابق كانت قد ضغطت على زر الحذف، وأنا كنت زر الاستعادة؛ فقد كانوا يمحوون الماضي اليوغسلافي، موجهين اللوم إلى يوغسلافيا على جميع المحن، بما في ذلك الحرب، بينما كنت أنا أقوم بإحياء ذلك الماضي على شكل التفاصيل اليومية التي شكلت حياتنا، مُوظفة - إذا شئت القول - طريقة الخدمة التطوعية للبحث عن الأشياء المفقودة. وبالرغم من أنهم كانوا يتلاعبون بملايين من البشر، وأنا لم يكن لدي إلا القلة، فكلانا كان يشوه الواقع. كنت أتساءل: ما إن كنت باستدعائي الصور الحميمة لماضيها المشترك فإنني أعزل الصور الدموية للحرب، أم أنني كنت بتذكيرهم بطعم الحلوى اليوغسلافية لن أمحو صورة الصبي في بلجراد، الذي طعنه أشخاص من معاصريه حتى الموت، لمجرد أنه ألباني؛ أم أنني



بحثهم على التفكير في الأبطال اليوغسلاف في قصص الكرتون المصورة مثل «مسكو» و«سلافكو» سوف أوْجل مواجعتهم لحلقات السادية التي لا تحصى التي اقترفها المحاربون اليوغسلاف، المخمورون والمهوسون بالسلطة الآنية، ضد منافسيهم؛ أو إذا استدعيت اللازمة الشهيرة - هذا ما يحصل، يا سيدتي الجميلة، عندما تعرفين القبلية البوسنية -، سوف أجمد التأثير الذي تركته حالات قتل لا تحصى في البوسنة، كمقتل والد سليم، مثلاً؟ كنت أدفعهم إلى ولوج خلفية تضم قوائم مبهجة لثرهات الحياة اليومية التي لم يعد لها وجود أصلاً.

من جهة أخرى، كان كل شيء متشابكاً، بحيث لم يكن ممكناً أن تتناول شيئاً واحداً دون الآخر. الموت متلازم مع حلوى «الكيكيز». الناس قتلوا، وكانوا يقتلون، ونهبوا وكانوا يُنهبون، واغتصبوا وكانوا يُغتصبون تحت شعارات مُبسطة حقيرة. كان الجنود يُضربون بالرصاص وهم ينهبون التلفزيونات الملونة، الغنائم الحديثة، وهم يجرونها إلى خنادقهم. لقد مضى الموت يدا بيد مع حطام الحياة اليومية. فتفصيل مثل حلوى «الكيكيز» قد يعيد إلى الذهن تنويعات لا حصر لها، فلنقل، مثلاً، صورة فتاة تم قنصها والدم يقطر من شففتيها اللتين لم يبرحهما طعم الحلوى بعد. لقد كان الشر عادياً كصناعة يومية للإنسان ولم يعد حالة خاصة.

لم أعرف كيف يمكننا أن نتعامل مع ماضينا إن لم نتصالح معه أولاً؟ لذلك اخترت شيئاً يشكل قاسماً مشتركاً نشعرنا جميعاً بالقرب منه، ألا وهو المسار اليومي للحياة التي عشناها في يوغسلافيا.

بدأت حقيبتنا بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق تمتلئ تدريجيا. كان هناك شيء من كل شيء: شيء من العالم الغابر للمدارس الابتدائية والثانوية اليوغسلافية، وشيء من صور ثقافة «البوب» اليوغسلافية، وكل العادات المتصلة بالسلع اليوغسلافية - من طعام وشراب وملابس ونحوها - والتصميمات الفنية اليوغسلافية، والشعارات الأيديولوجية، والمشاهير، والرياضيين، والأحداث، والأساطير والخرافات الاشتراكية اليوغوسلافية، والمسلسلات التلفزيونية، وقصص الكرتون المصورة، والصحف، والأفلام.

أخرج بوبان كنزا دفيناً من الأفلام اليوغسلافية مسجلة على شرائط فيديو، وبذا أصبح لدينا ما نشاهده لوقت طويل. كانت تلك الأفلام أكثر الأدلة القابلة للدوام على وجود حياة يوغسلافية. وبقراءة تلك الحياة بأثر رجعي، اكتشفنا تفصيلاً بعد أخرى، أن استشعار المستقبل المسبق، والدلالات المنذرة قد أصبحت واقعا فعليا.

سرعان ما وضعت جانباً ما ساورني من قلق، فميراثنا وروحنا، وإعادة إحياء ماضيها الأفضل، قد قربتنا من بعضنا كثيرا، لدرجة أننا بدأنا نجد صعوبة متزايدة في الافتراق. لذا، استرجعنا عادة أخرى من الماضي، هي النزول إلى أحد المقاهي بعد الدراسة لإكمال دردشتنا، وكنا نفترق فقط عندما يحين موعد آخر ترام، أو حافلة، أو قطار. بالنسبة إلى شخص غريب، لا بد من أننا بدونا كقبيلة نتكلم بكلمات سحرية مناجية آلهتها. لا بد أننا كنا في غشية من النشوة. حسنا، لقد كنا كذلك بطريقة ما.

أما الطالب الذي واجهت صعوبة كبيرة في التعامل معه فكان  
إيجور. لقد أدهشتني ذاكرته: فقد كانت لديه ذاكرة مفعمة  
لأشياء لا يمكن أن يكون قد مر بها شخصيا.  
«لم تكن قد ولدت بعد!».

«لكني أملك جينات يوغسلافية، يا رفيقة، وهم يتذكرون».  
تلقى ركلة على لفظه عبارة «جينات يوغسلافية» التي  
اخترعها بالطريقة الهولندية، وذلك بتغييره بعض الأصوات.  
ضحكنا جميعا. استحسن طلبتي بشكل واضح أن تكون «جيناتنا  
اليوغسلافية» الدفينة والخارجة عن إرادتنا مسؤولة أكثر منا  
عن تذكر ماضيها.

غالبا ما كنت أرتطم بأحدهم في المدينة. كنا نسعد بلقاء مثل  
هذا، كأننا لم نلتق من عصور. كنا نتبادل العبارات الحلوة، ونربت  
على أكتاف بعضنا قبل أن نأوي إلى أحد المقاهي من أجل فنجان  
قهوة ودردشة حميمة لا ينتهيان.

كان الطالب إيجور أكثر من ألتقي به مصادفة أثناء رحلاتي.  
يظهر فجأة بطوله الفارع، حاملا حقيبة الظهر، وسماعات الأذن  
التي لا تفارقه تتدلى حول عنقه.

اعتدت أن أسأله: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

فكان يرد: «ما الذي أتى بك أنت؟»

«ماذا تقترح؟».

«لنتبخر معا».

هكذا كانوا يتحدثون. كانت لغتهم العامية. كانت كلمة  
«نتبخر» بالنسبة إليهم تعني «نتجول». لقد استخدموا العديد

من الكلمات والعبارات الهولندية في حديثهم، وكان مزج سليم للهولندية بالبوسنية أمرا هستيريا .

برغم أن طلبتي أعربوا بوضوح عن استمتاعهم بمشروعنا المشترك، فإنني لم أستطع التخلص تماما من صورة حقل الألغام. في أحد الأيام، وبينما كنت أتجول مع إيجور في الشوارع، حاولت أن أكتشف رأيه حول هذا الموضوع.

«أخبرني يا إيجور. ما رأيك بالفصل الدراسي؟».

«هل تعلمين بما قاله تيتو «لزوجته المستقبلية في لقاءهما لأول مرة؟».

«لا، أخبرني».

«أصغي إلى أفكارى، يا جوفانكا».

- يداك مُذنبَة أقل من يداي.

جبهتى تحترق هذه الليلة.

وترتجف رموشي.

سأرى حلما جميلا الليلة.

سيسلمني الجمال إلى الموت!

هكذا امتزج بيت لشاعرة كرواتية بمقطع لشاعر كرواتي في مخيَّلة «إيجور».

قلت ضاحكة: «ما هذا الرعب؟».

وبدل أن يجيب قال سائلا: «أخبريني، هل لاحظت أن الملائكة لا يضحكون أبدا؟».

«لا أستطيع أن أجزم هنا، إذ لم أفكر بذلك مليا من قبل».

«ألم تحدّقي في عين ملاك قط؟».

«لا، لا أظن ذلك ... لا أتذكر شيئاً من هذا القبيل...».

«لنر إذن. علينا إجراء مكالمة مهمة».

قضينا ما تبقى من فترة العصر في متحف «رايكس» ونحن

ننظر إلى وجوه الملائكة التي رسمها أساتذة الفن القدماء.

«ألم أكن محقا؟ الملائكة لا يبتسمون، أليس كذلك؟».

«مثل الذين يتولون الشنق».

انفجر كلانا في الضحك، بالرغم من أن الموقف لم يكن

مضحكا بالمرّة. كان الضحك طريقة لمعالجة القلق الدفين.

خطر ببالي أننا أناس يمرون بفترة نقاهة، والناس الذين

يتمثلون للشفاء من مرض، أو صدمة من نوع ما، أو حادث، أو

فيضان، أو تحطم سفينة، هؤلاء الناس لا يضحكون أيضا. لقد

كنا في طور النقاهة. مع ذلك، لم أنطق بشيء.

محاطين بجدران لا تقدم ولا تؤخر لمختبرنا الخيالي، رحنا نبعث الحياة في حياة لم يعد لها وجود. تناوبنا على تدليك القلب، وتأدية التنفس الاصطناعي. وبالرغم من عدم الإتيان وقلّة الخبرة، فقد نجحنا في إعادة النبض إلى تلك الحقبة الغابرة.

عاد معظمهم إلى مرحلة الطفولة، إذ إنها المساحة الأكثر أماناً، والأقل تهديداً. لم يكن مهماً ما إذا كانت التفاصيل من عندهم، أم كانت مما جمعوها من آبائهم وأمهاتهم، أو كانت من نسج خيالهم، كما كان يفعل إيجور غالباً. كانت كل تفصييلة تتضمن جزءاً من الحقيقة.

أما مجمل الصورة، فكانت عصية على التفسير: إذ كنا نتكلم لغة منقرضة لا يفهمها إلا نحن. كيف كان يمكننا أن نفسر الأمور لأي شخص آخر، تلك الكلمات والمفاهيم، والصور، وبدقة أكبر المشاعر التي تستدعيها فينا الكلمات، والمفاهيم، والصور؟ كانت سيمياء: وقد أكدت لهم أنه سيكون هناك الذهب عند آخر النفق، وأنا مدركة تماماً أن اللعنان الساطع لجزئية معينة في لحظة ما، قد يتلاشى ويختفي في اللحظة التالية. مثل القلب الذي أنعشناه معاً.

أحياناً كنت أتساءل: ما إذا كان ما أقوم به لا يتعارض تماماً مع ما كنت أعتقد أنني أقوم به. على أي حال، فإن وصمة العار التي وصم بها الأيديولوجيون ورثة البلد الجديد ذاكرة الماضي

الجمعية، قد أثمرت عكس النتائج المرجوة: إذ إنها جعلت ذلك الماضي الجمعي أكثر جاذبية. ربما بإثارتي ذكريات الماضي قد أستطيع أن أحطم تلك الهالة المقدسة. أو ربما محاولتي لإعادة تركيب الماضي قد تنتهي برسم محاكاة باهتة ليس إلا، وبذلك نكشف فقر «المتاع» الذي اعتبرناه قويا جدا. ومع ذلك، كلما قلبت هذه الأمور في رأسي والقضايا الأخرى المتعلقة بها، فإن المتعة التي كانت تنتج عن لعبة الذاكرة كانت تطرح تلك الهواجس جانبا، مثلما كنت قد طرحت جانبا ذات يوم اكتشافا رمى بحمل الجبال على كاهلي، وهو أنني قد نسيت أكثر بكثير مما نسوا، ولذلك لم أكن الأكثر تأهيلا للحديث عن الذاكرة. لكن كان قد فات الأوان: فقد أدرت العجلة، ولم يعد يمكنني إيقافهم.

## نيفينا .. الأول من كل شهر

كان أبي يعمل في مصنع، وكانت أمي ربة بيت. كانت أهم عطلة عائلية لنا هي الأول من كل شهر. كان أبي يحضر الراتب الشهري إلى المنزل في «جيب الراتب» (ذلك ما كان يطلق عليه)، ويقدمه لأمي. كانت أمي تعتني بالنقود: المبلغ كذا وكذا للغاز، كذا وكذا للكهرباء، وكذا لأجرة البيت، وآخر لسداد ثمن الأشياء التي اشتريناها بالدين. بعد ذلك، نرتدي أفضل الملابس عندنا، وكأننا ذاهبون للعشاء في أحد المطاعم، ونخرج للتسوق. كان أبي يستخدم الكلمة التركية للتسوق «باكالك/البقالة»، وأمي تستخدم الكلمة الألمانية بصيغتها الكرواتية «فاسنوج».

كانت أمي تقود حملة التسوق، لأنها دون غيرها كانت تعرف ما نحتاج إليه (كم من السكر، وكم من الدقيق، وكم من الزيت والقهوة، وكم من المكرونة وشرائط المكرونة ستدوم لتكفينا حتى اليوم الأول من الشهر التالي)، وكنا جميعا نتقافز مرحا وراءها. كانت أمي تشتري دائما القهوة غير المحمصة، والتي كنا نحمصها بأنفسنا في قدر معدنية اسطوانية ذات أبواب صغيرة ولها يد على الجانب. كنا نسكب حبات القهوة الرمادية عبر الأبواب، ثم نغلق تلك الأبواب ونضع القدر على موقد الغاز. ثم نقوم بتدوير اليد التي تقوم بدورها بتدوير القدر، والقهوة بداخله تدور مرات كثيرة ببطء وتتحمص على النار. كانت رائحة القهوة المحمصة الطازجة تفوح في الشقة بكاملها. كم أحببت تلك الرائحة. لقد كنا نحتاج إلى كمية كبيرة من البن، لأن الجارات كن يجئن لزيارة أمي وشرب القهوة كل يوم. لم نكن نشترى أشياء أخرى كثيرة. كانت أمي تصنع المربى، والأشياء المحفوظة. كانت تخلل الخيار، وتحول الفلفل الأحمر إلى بابريكا، وإيفار، ومثل هذه الأشياء. كانت جيدة أيضا في عمل الخمرة المحلاة من الكرز، والشيكولاتة بالمكسرات، لذا لم نكن نشترى ذلك أيضا. حفظنا كل شيء في حجرة المؤن، وكانت أمي تلصق ورقة على الجرار تحمل اسم المنتج وتاريخه. كان أكثر الأوقات إثارة لنا نحن الأطفال هو وقت تقديم الحلوى. كانت أمي تشتري بضع علب من البسكويت، و«شوكولاتة الطبخ» (ذلك ما كان يطلق عليها)، لأنها أرخص الأنواع. كان هناك نوع من البسكويت على شكل خُف عليه خطوط من الشوكولاتة، يدعى «بسكويت ربة البيت»،



الذي كان الأفضل للغمس في الحليب. وكانت أمي دائما تشتري لكل منا قطعة دائرية من البسكويت المغموسة بالشوكولاتة، إذ كنا نعتقد نحن الأطفال دائما أن الحلوى التي تباع في السوق أفضل مذاقا من تلك التي تصنع في المنزل.

كانت أمي تشتري أيضا كعك الأصابع، والبسكويت المالح، ليس لنا، بل لضيوفها. وكلما زارنا أحد كانت تقدم كعك الأصابع، والبسكويت المالح في كوبين مختلفين. كان الضيوف يجلسون على الأريكة. كانت أمي تقول، وهي تضع الفناجين على طاولة القهوة الطويلة المنخفضة: «تفضلوا بعض البسكويت المالح»، فكان الضيوف يأخذون الأصابع ويمضغونها بصوت مسموع. كانوا يبدون مثل الأرانب. بعد ذلك، كانت أمي تخرج طبقين أو ثلاثة من الأطباق المسطحة، التي كان أبي يسميها الأطباق اليابانية، مملوءة بحلقات من شرائح المخلل، والنقانق والفلفل، والجبن. كانت تغرس في كل شريحة عود تنظيف الأسنان يبرز منها، وفي الوسط كانت تضع كومة من صلصة «آفار». كان الضيوف دائما ما يعبرون عن إعجابهم بتلك الأطباق، لكنهم كانوا يشيرون أعصاب أبي.

فقد يقول بغضب: «يوما ما سيختق أحدهم بأحد عيدان تنظيف الأسنان التي تضعينها».

وكانت ترد عليه: «أنت لا تفهم كنه ذلك».

أعتقد أن كلمة «كنه» كانت الأكثر شعبية في ذلك الوقت. كانت أمي تعرف كنه الأثاث، والإنارة، وتصفيف الشعر، والستائر، والحداء، وإطارات النظارات. كان الزمن الذي كان يجب أن يكون فيه كل شيء طيعا. وكان البلاستيك هو «الكنه» الأعظم.

بعد تناول الحلوى كان أبي يشغلّ جهاز التلفاز. كانت الشاشة مغطاة بمرشح بلاستيكي مثل قوس قزح لتجعله يبدو ملونا، على الرغم من أنه في الحقيقة كان بالأبيض والأسود. كنا نضحك كثيرا عندما يأتي المسلسل الكوميدي «المواطن موليكدل». الآن، وبعد أن كتبت هذا، لست على يقين تماما بأن الأمور كانت هكذا. فالأمر برمته ضبابي جدا ويشبه الحلم، وكأني أروي قصة شخص آخر وليست قصتي.

## بوبان.. الرسوم الكارتونية المفضلة عندي

لم يكن هناك الكثير من الكتب في منزلنا، لكن كان هناك واحد منها قد راق لي تماما عندما كنت صغيرا. لقد كان حافظة رسوم أكثر من كونه كتابا. كان له غطاء جلدي أسود، وحواف صفحاته مذهبة. ظهر في منتصف الغطاء الأمامي شعار معدني يشبه قطعة نقد معدنية كبيرة، نُقِشت عليها صورة لرجل بلحية. في صغري، كنت أحاول أن أخدش ذلك الشعار ونزعه، لكنني لم أنفذ ذلك أبدا. كان في داخل الكتاب أوراق بحجم ورقة الطابعة، مصفرة من القدم؛ وثائق، ورسومات زيتية، وخرائط، وصور. كانت النصوص قليلة مقارنة بالرسومات الكثيرة. بدت كأنها سلسلة من رسومات كارتونية مرتبة بشكل سيئ. كان جدي يقول لي: «إنه كتاب عن الثورة». وكنت أردد بعده: «التولة». «إنه كتاب عن ثورة أكتوبر العظيمة».

بعد أن تعلمت القراءة كنت أنطق عنوان الكتاب مرات ومرات: حياة وأعمال فلاديمير إيليتش لينين ١٨٧٠-١٩٢٤، كان أكثر ما أحببته في الكتاب صور رجال الثورة. أظهرتهم الصور بنظرات غامضة، تأملية، وهم جالسون غالبا حول إحدى الطاولة يتجادلون. وعلى الرغم من أن الكتاب كان عن لينين، فإن ستالين كان يظهر دائما في الصدارة. عادة كان لينين يقف خلف ستالين الذي كان يجلس إلى الطاولة. راقني أن كل شيء في الصور كان شبه معتم. كان الضوء يأتي دائما من مصباح، أو من إحدى النوافذ. لكن أكثر ما أحببت كان الكتب. كان توجد في الخلفية دائما خزائن مملوءة بالكتب. ظهر في إحدى اللوحات ستالين وهو يزور لينين في غرفته، وقد وقف لينين للترحيب به تاركا كتابا مفتوحا على كرسيه. وفي لوحة أخرى ظهر لينين وستالين في دردشة مع مفوضي جمهوريات آسيا الوسطى. أتذكر ذلك كأنه حدث البارحة. كان مفوضو جمهوريات آسيا الوسطى يرتدون تلك القلائص الآسيوية، وقد ظهرت في الخلفية خزانة كبيرة للكتب، ويمكنكم أن تروا في الصورة انبهار المفوضين بعدد الكتب الموجودة بالخزانة. كذلك أتذكر صورة معنونة: ف.إ. لينين وزوجته ن.ك. كروبسكايا في منفاهما في سيبيريا، وقد أظهرت لينين وهو يقف بجانب مجموعة من الصناديق منهمكا في قراءة كتاب، بينما كانت زوجته واقفة بجانب رف للكتب.

فيما بعد، قرأت كلام الإهداء. كان مكتوبا بخط دائري جميل. كان الإهداء يقول: تمنياتي القلبية إلى أعز الأصدقاء نيبوشا كرسيتش. وكان التوقيع: الرائد فليكو فوكاشنوفتش.

كان اسم جدي نيبويشا كرستيتش.

كان جدي عضواً في الحزب. كان من أوائل من انضموا إلى رجال المقاومة. وكان أبي يدعوه أودباس، أي أحد أفراد الشرطة السرية، إلا أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن بدأ الشيوعيون يفقدون مواقعهم. كان أبي سيئاً. ولكن معظم الناس كانوا سيئين. كانوا يفعلون الشيء ونقيضه. ما الذي يجعلك تعتقد أن الشيوعيين يختلفون كثيراً عن المعلم الهندي ساي بابا؟ لقد حاول الشيوعيون القيام بالمعجزات أيضاً حتى انكشف المستور، هذا هو الأمر. ولا أعتقد أنهم قرأوا كل تلك الكتب.

لو طلب مني شخص أن أرسم لوحة تمثل عائلتي، أتعرفون ماذا سأضع إلى جوار أبي؟ سوف أضع السيارة «زاستافا ١٠١»، لأنه كان يهتم بتلك السيارة العتيقة أكثر مما كان يهتم بي. وإلى جوار أمي سأضع تلك الحقيبة البلاستيكية التي كانت تحمل فيها البقالة عند عودتها من السوق. وإلى جانبي سأضع كرة قدم. وجوار جدي سأضع المسدس القديم الذي كان يضعه على الطاولة إلى جانب سرير، ولم يدعني قط أقرب منه. كان والداي ريفيين بسيطين. وكان الشيوعيون طيبين!

## آنتي.. دعوة إلى حفلة

أتذكر حفلات الشاي الراقصة التي كنا نقوم بها في المدرسة، ونحن في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر. اختفت هذه الحفلات بعد أن أدخلت نوادي رقص الديسكو. لم يقدم الشاي

قط في تلك الحفلات أو أي شيء آخر، ومازلت أتساءل: لماذا سميت بحفلات الشاي. كانت الغرف تضم صفوفًا من الكراسي بمحاذاة الجدران. كان الأولاد يجلسون في جهة، والبنات في جهة أخرى. كان هناك مسؤول عن كل حفلة، ربما للتأكد من أننا لم نتجاوز حدًا في شرب الشاي الذي لم يقدم أصلاً. وكان هناك شخص آخر مسؤول عن الموسيقى. تلك كانت الأيام التي لم يزل الناس يستخدمون فيها مشغل الأسطوانات، ومسجلات الأشرطة، التي اختفت هي أيضًا الآن. كان كل واحد منا يذهب إلى بنت ويقف أمامها كعاشق أو ما إلى ذلك، من دون أن ينبس ببنت شفة. كان ذلك يعني طلبها للرقص. وبين الحين والآخر، كان المسؤول يعلن بصوت عالٍ: «الفتيات يخترن الآن!»، وعندها تقف البنات ويجئن إلينا. وهكذا تعرف من التي تحبك من الفتيات. تلك هي سنواتنا «الهرمونية»، إذ كنا نتطلع بشوق إلى الرقص البطيء، أو ما كنا نسميه «العصارات». كانوا يشغلون موسيقى أغنية «أنت فقط»، بطيئة، فتضم الفتاة ضماً شديداً لدرجة أن كلا منا يجد صعوبة في التنفس. وقد تتخدر من الإثارة تقريباً، لكنك تتظاهر بعدم التأثر. مازال مجرد التفكير في ذلك يبهر أنفاسي. كان الأمر كأنني أغوص في الماء ثم أخرج وخدي ملتصق بخدها. وقد نكون قرييين جداً، لدرجة أن عيناى تفقد التركيز وتحول. أحس بلمس بشرتها الصافية، البيضاء كالحليب؛ حتى أنه يمكنني أن أرى العروق الزرقاء في جفونها. أستشيق في أنفاسها قطرات النعناع الأخضر. مازال مجرد التفكير في ذلك يدوخي. كان اسم تلك الفتاة سانيا بترنتش.

## ميليهـا .. الطبق البوسني الساخن

وسائل الحفاظ على الذاكرة

مارسيلا بروسلتش

المقادير: نصف كيلو لحم خنزير مخلي من العظم، نصف كيلو لحم بقر مخلي. نصف كيلو حبات بطاطس صغيرة غير مقطعة. ٢ بصلة مقطعتين إلى نصفين. ١٠ فصوص من الثوم. ٤٠٠ جرام طماطم. ٤ حبات من الفلفل الأخضر أو الأحمر. ٣٠٠ جرام لفت. ٢٠٠ جرام من الملفوف. ٢ حبة جزر. ٢ حزمة بقدونس. ١ حزمة كرافس. ١ حبة كرنب. ١٠ قرون فاصوليا. ٢ ملعقة صغيرة من الفلفل الأحمر. من ١٥ إلى ٢٠ حبة فلفل أسود. حوالي ٣٠٠ جرام من الماء، أو المرق، أو النبيذ الأبيض. قطعي الخضار قطعاً كبيرة. ضعي اللحم والبصل والخضار في إناء، ويفضل أن يكون خزفياً. أضيفي السائل. ضعي شريطاً من العجين على حافة الإناء الداخلية لمنع البخار من التسرب، ثم ضعي الغطاء. ضعي الإناء على النار حتى يغلي، ثم اتركيه على نار هادئة لمدة ٤ أو ٥ ساعات.

## جوهانكي.. أكواز آيس كريم الفانيليا

أنتمي إلى عائلة كبيرة. لقد أحب والدائي يوغسلافيا. وكذلك نحن الأطفال. والآن أدرك أن ثمة سبباً آخر جعلنا نقضي إجازتنا الصيفية في يوغسلافيا، وهو أن تكاليف الحياة كانت

رخيصة جدا فيها . كنا نخيم في عدة أماكن على طول شاطئ البحر الأدرياتيكي في واحدة من تلك الخيام الواسعة، واعتدنا أن نكون من بين أوائل السياح الأجانب. كان عندي سبعة من الإخوة والأخوات. كان أبي يعمل، وبقيت أمي في البيت معنا، لذا كان علينا أن نقتصد كل جيلدر، وألا نبعثر نقودنا في العطلات، فحتى الهولنديون كانوا فقراء في ذلك الوقت. بعد اندلاع الحرب، بدأ الهولنديون يذهبون إلى دول أخرى (نيوزيلندا، وكندا، والبرازيل)، وكانوا يكدحون مثلهم مثل اليوغسلاف من أجل كسب رزقهم. لذلك، كان البحر الأدرياتيكي الجنة بالنسبة إلينا. في كل يوم كنا نحن الثمانية نصطف - من الأصغر إلى الأكبر - والوالدين في المؤخرة، ونذهب لتناول الآيس كريم، وفي كل يوم كان «نظيف» يُحينا بكلماته المعهودة: «أنتم أيها الهولنديون بيض البشرة كالفانيليا».

انتشر هذا الوصف في البلدة، وسرعان ما أصبح الكل ينعنا به: «انظر، ها قد جاء الفانيليون!» (وكان اسمنا الحقيقي تير بروجن هوجنهولتز، والذي لم يكن أي أحد يستطيع نطقه)، وقد اتخذنا لأنفسنا أسماء أولى نحن أيضا. سميناها أسماء الصيف. فكنت أنا جوكا، وأخي جيرارد أصبح اسمه جريج، وفرانس أصبح فراني وفولتر أصبح وولتر، على اسم وولتر الشخصية التي ظهرت في الفيلم الذي شاهده الجميع، ذلك الفيلم الذي يدور حول الدفاع عن سرايفو، وبدأ الجميع ينادونه به، بألمانياتهم المهجنة: «ها هو وولتر». مازلت حتى الآن أناديه بتلك العبارة.

كان ذلك الآيس كريم ذكرياتي المبكرة عن يوغسلافيا.

لم يصطحبنا والدائي لتناول الآيس كريم أبداً في هولندا، إذ كانت مكلفة جداً. وكان السكان المحليون ينادون بائع الآيس كريم نظيف (بشيبتار). وبما أنني لم أكن أعرف جماعاتكم العرقية المختلفة حينذاك، فلم أكن أعرف أنها تعني «ألباني». أنتم جميعاً بدوتم بالنسبة إلينا متشابهين. ونحن بدونا لكم بلون الفانيليا، وأنتم بدوتم لنا بلون البندق.

## سليم .. الحنين إلى الجنوب

كان فرض علينا جميعاً دراسة تاريخ الأدب المقدوني، والسلوفيني، والكرواتي والصربي، والبوسني، وأدب الجبل الأسود، كما تعرفون جميعاً. لم أحصل قط إلا على مقبول. كان من بين ما درسناه تلك القصيدة المقدونية بعنوان: «الحنين إلى الجنوب». كنت أعرف العنوان فقط، لأنني لم أقرأها قط، لكن دائماً ما بدا لي العنوان غريباً. لقد كانت أشبه بإعلان أكثر منها قصيدة. ثم في أحد الأيام وجدت نسخة لها بالفاكس في قاعة المطالعة بالقسم هنا. وكما تعرفون، كان قد كتبها «قسطنطين ملادينوف» قبل أكثر من مائة وخمسين عاماً. على أي حال، أنتم تعرفون كيف يطيل أصدقاءنا الهولنديون الحديث عن خططهم للصيف، وإجازاتهم الصيفية وتحضيراتهم لها، أو عن عودتهم للتو منها، أو التساؤل عن وجهة الذهاب هذا العام، حسناً، هذا ما ينطبق على تلك القصيدة. قد تظن أن من كتبها هولندي وليس مقدونيا. كان عليّ أن أترجمها لصديقتي «ميكي». لذلك



رحت ألقياها بالمقدونية - وتيتو شاهد على ما أقول - وكان عقلي يسترجع القصيدة من دون أي خلل. لا أريد أن أسبب لكم الضرر، ولكن دعوني أذكركم ببدايتها، إن لم تكن بحوزتكم الآن.

الظلمة في كل مكان، الظلمة تلفني.  
يطوق الضباب الكثيف الأرض...

حسنا، تستمر هذه النشرة الجوية لبعض الوقت، ثم يصل إلى هدفه، والذي صدمني.

لا أستطيع الاستمرار بالعيش في هذا المكان؛  
لا أستطيع العيش بين الثلج والبرد والجليد.  
هب لي يا إلهي أجنحة لكي أحلق بها؛  
حتى أعود إلى الوطن دون إبطاء؛  
لكي أتمكن من تكحيل عيني مرة أخرى  
بشمس «ستراجا» وشاطئ «أوهريد» الجميل.

وعندما وصلت إلى النهاية، إلى الأبيات التي تقول:

هناك سأعزف لحن الوداع الأخير،  
وعندما تغرب الشمس، سوف أموت.

يا إلهي، لقد انفجرت في البكاء. هأنذا هنا، أتكلم المقدونية

بطلاقة كابن لتلك الأرض، وأصرخ من رأسي. اعتقدت أنني تجاوزت النهاية العميقة. على أي حال، قمت بترجمة القصيدة لصديقتي «ميكي» والدموع مازالت تسيل على خدي. أتعلمون ماذا قالت؟ «موي!» عندما سمعت تلك الكلمة الهولندية، صفعتها صفقة قوية، فانفجرت في بكاء شديد. طبعاً، كان أفضل أن أرفس نفسي. لا أعرف ماذا دهاني. شيء ما في تلك الكلمة جعلني أتصدع. لا أستطيع تفسير ذلك، على الرغم أن تلك الكلمة تعني «جميل» ربما كان الحشيش هو الذي رجرع دموعي بالنسبة لهذه القصيدة.

## داركو.. أمي تشابك الأيدي مع تيتو

هذه ليست ذكرى تخصني؛ لقد حدثت لأمي. كانت أمي تنتمي إلى الرواد مثلها مثل بقية الأطفال في مدرستها. ومرة، لأنها كانت الأولى في صفها، وقع عليها الاختيار لحضور الاحتفال بعيد ميلاد تيتو. كان عرفاً أن يرسلوا أفضل الرواد إلى ذلك الاحتفال. أخبرتنا والدتنا بأنه عندما دخل المصور لأخذ الصورة التقليدية «لتيتو مع الرواد»، أسرع إلى تيتو وأمسكت بيده. لقد رأيت تلك الصورة. كانت تميل عليه وهي تضغط يده في يدها، وكان يمسك بسيجار كوبي بيده الأخرى. عندما انتهت مراسم التصوير، حاول تيتو أن يفلت يده من يدها، لكن أمي تشبثت بها. كانت ملتصقة به كالغراء. حاول الإفلات مرة أخرى، لكن أصابعها تحولت إلى «كماشة» حية. بدأ الناس يشعرون بعدم

الارتياح. كان لا بد من أن يأتي أحد حراس الأمن لفكها عنه. عند ذلك، أطلقت صرخة مدوية.

قالت لي: «لا أعرف ما دهاني . أو من أين جاءتني تلك القوة؟».

في إحدى المرات رأيت تيتو بلحمه ودمه . كان ذلك في معرض زغرب التجاري. كنت أنا وأمي من بين الحشود التي اصطفت على طول الطريق عندما مر وحاشيته. كان قد بدا أصغر حجما مما كان في الصور، ومقاطع الأفلام. لقد بدا عليه التقدم في العمر والوهن، كان أشبه ما يكون بمومياء. وعندما لامس شعاع الشمس أعلى رأسه، وبدت جليلة لي، ظهر أعلى رأسه مبرقشا بنقاط خالية من الشعر، وقد غُطيت بخصلات شعر مصبوغة حال لونها إلى البرتقالي.

«هيا»، قالت أُمي، وهي تشدني بقوة من يدي، وأخذتني لتناول الآيس كريم. وقد بالغت أُمي في طلب الآيس كريم، حتى أنني لم أستطع أن أكل ربع الكمية التي طلبتها. لا أعرف ما الذي دهاها؟!

## ماريو.. قطارات بلا جداول للمواعيد

بالنظر إلى الوراء كان لديّ انطباع بأن كل شيء في يوغسلافيا السابقة كان له علاقة ما بالقطارات، فإذا ما رتّبت القطارات المهمة وغير المهمة في حياتنا في سلسلة لحصلت على تاريخ مواز للدولة. ولا يقل صحة عن التاريخ الرسمي.

١- إذا ما استثنينا الشاعر الذي يدعو إلى «الأخوة والوحدة» في يوغسلافيا السابقة، فلن يتبقى منها سوى سكك الحديد ومحطات القطارات التي تربطها بالنمسا والمجر. كنت أشعر بغصة في حلقي في كل مرة أرى فيها واجهات المحطات الصفراء ونبات الجيرنيوم المزهر الأحمر في أحواضها. كان مجرد رؤيتها يعني الوطن.

٢- أول قطار ظهر في حياتي كان في كتاب الأطفال «قطار في الثلج» لصاحبه ماتي لوفراك. وأول حدث في تاريخ يوغسلافيا، وفي تاريخ السينما اليوغسلافية، كان كتاب فليكو بولايتش «قطار بلا جدول مواعيد». هذا الكتاب يروي قصة رحيل مجموعة من الناس من جبال روكي الدينارية بالألب، إلى «سلة الخبز» اليوغسلافية، إلى إقليم بارانيا (أم أنه كان باتشكا؟) الغني، الخصب في الشمال. وفي خضم تلك الرحلة، أولئك الناس تحابوا، وتخاصموا، وتجادلوا فكريا، وشهدت الرحلة مولد بعض الأطفال، وموت بعض الرجال. تلك القصة كانت سببا في سلسلة أفلام القطارات في السينما اليوغسلافية، حتى وصلت إلى مشهد الحب القاسي في الحمام القذر في فيلم «أمير كوستاريكا»، عندما كان أبي مسافرا في عمل. بالمصادفة، كانت السينما اليوغسلافية بفيلم كوستاريكا ذاك قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

٣- كانت السكك الحديدية أيقونة الخمسينيات، وهي مرحلة حركة الشباب العمالية الصادمة محليا وعالميا. أوكلت للجيل الصاعد بناء خطين مهمين: خط «برتشكو - بانفويتشي» (وكان

الشعار «برتشكو» بانفويتشي هدفنا، نهاية الصيف ستشهد صرحنا)، و خط «شاماك - سراييفو». لفترة من الزمن شكلت كتائب الشباب حدثا ساخنا في الأفلام الموجهة للاستهلاك المحلي. إن فيلم «الفتاة الرائعة» الذي أدت فيه ملينا دراافتش دور البطولة، ليس إلا واحدا من بين العديد منها.

٤- بعد بناء تلك السكك لم نتمكن من الحصول على العدد الكافي من القطارات، لقد استخدمنا القطارات للذهاب في الرحلات المدرسية، وللذهاب إلى الشواطئ وللالتحاق بالوحدات العسكرية. طبعت على كل القطارات JDZ بالأحرف اللاتينية والسلافية القديمة. عرف العديد من الناس اللغات الأجنبية من خلال القطارات. نقشت عبارة «لا تمل بجسمك خارج النافذة» على صفائح نحاسية تحت النوافذ برفقة ترجمات إلى الفرنسية، والألمانية، والروسية. لقد أصبحت عبارة مشهورة في الكتب والأفلام، واكتسبت صيتا لافتا في لازمة الأغنية الشهيرة «الزر الأبيض»، وهي (استقلي القطار يا سيلما، ولكن لا تميلي بجسمك خارج النافذة...)، الصقت فوق كل مقعد في القطار لوحة لبلدة، أو منتجع سياحي يوغسلافي. كان خطي المفضل خط ماكارسكا مروراً ببيوكوفو التي كنت أعشقها. كانت الشطائر التي نأكلها في القطار هي الألد على الإطلاق، وكذلك كان الدجاج المشوي في القطار الأفضل على الإطلاق. كان الاختراع الأهم في ذلك الوقت هو «الترمس»، وكان المشهد الذي لا ينسى والذي نقش في ذاكرة ملايين اليوغسلاف، هو منظر ظهور

شاطئ الأديراتيكي في الأفق بعد غياب طويل. كان جميع من استقل القطار إلى البحر يشارك في اللعبة نفسها : فعلى كل من يرى البحر أولاً أن يصيح بأعلى صوته «الماء!»، وسيحصل على خمسة دنانير، أو أيا كان الرهان المتفق عليه...

٥- اتسمت الستينيات والسبعينيات «بقطارات العمال الأجانب» التي كانت وسيلة المواصلات المفضلة عند العمال اليوغسلاف، واليونانيين، والأتراك، وهم في طريقهم من الدول العربية وإليها إلى أن بدأ الأمر يحتاج إلى امتلاك سيارات. كان الحنين الجامح في رحلة العودة بالقطار إلى الوطن يظهر جلياً في مقطع قصيدة غنائية مجهولة المؤلف:

(...) انتظريني أيتها الحبيبة.

فأنا في اشتياق منذ مغادرتي فرانكفورت الجميلة.

٦- كان القطار الذي يذهب إلى تريستا أيقونة النزعة الاستهلاكية اليوغسلافية في الثمانينيات، إذ كان يُحمّل ببضائع السوق السوداء من الجينز، والبن، والأرز، وزيت الزيتون، و«التشيرتات»، والسراويل، والملابس الداخلية، وكل ما يخطر على البال. تزامن أوج الانغماس في التسوق في تريستا مع وفاة تيتو. مات تيتو في سن الثامنة والثمانين. لقد استذكر الناس الحدث بطرق عدة، منها القيام بحملة نشاطات زراعية: فزرع البعض «ثمانى وثمانين وردة للرفيق تيتو»، وزرع البعض «ثمانى وثمانين شجرة بتولا للرفيق

تيتو»،... وهكذا . ومن هنا جاءت النكتة الفجرية التي تقول:  
سأل ضابط الجمارك غجريا في القطار القادم من تريستا:  
«ما لديك في تلك الأكياس»، فرد الغجري بعفوية لافتة:  
«ثمانية وثمانون بنطلون جينز للرفيق تيتو».

٧- كان آخر قطار يوغسلافي هو «القطار الأسود»، الذي  
حمل جثمان تيتو من خط «ليوبليانا - زغرب- بلجراد»، ليوارى  
الثرى في حديقة الزهور في بلجراد. اصطف مئات الآلاف من  
اليوغسلاف على جانبي السكة لإلقاء نظرة الوداع على «الابن  
الأعظم للشعوب والقوميات اليوغسلافية»، وقد خلد العهد  
اليوغسلافي «الإخوة والوحدة» في أبيات شعرية قوية مثل:  
في نفق السكة، في الظلام،  
تسطع نجمتنا الخماسية الحمراء.

٨- يعود انهيار يوغسلافيا، والحرب التي اندلعت إلى ذلك  
اليوم التاريخي الذي قام فيه صرب كرايينا في كرواتيا، بقطع  
خط «زغرب - سبليت» باستخدام الكتل الصخرية، وبذلك  
وضعوا حدا لتلك الخدمة لسنوات عدة.

٩- أُعيد فتح خط «زغرب - سبليت» قبل عامين، واستغرقت  
رحلة القطار الذي سمي «قطار الحرية» يوما كاملا، وقد تم  
بثها على التلفزيون الكرواتي. ويعود سبب استغراق تلك الرحلة  
كل هذا الوقت إلى أن رئيس الوزراء الكرواتي كان ينزل من  
القطار عند كل صفارة للتوقف لإلقاء خطاب في الجمهور. أثناء  
ذلك، كان الصرب الذين طردناهم من كرايينا يشقون طريقهم

إلى صربيا مشيا على الأقدام، أو بالحافلات، أو بالسيارات، أو بالجرارات، أو بالعربات التي تجرها أحصنة، أو بأي وسيلة أخرى ماعدا القطار.

١٠- أخيرا وليس آخرا، ارتبط بالقطارات كذلك أحد أقوى مواطن الجدل بشأن اختلاف اللغة الصربية عن اللغة الكرواتية، وبناء على ذلك كانت الحرب ضرورة تاريخية. فالكلمة التي تعني «قطار» مختلفة في اللغتين: فالكروات يسمونه «فلاك»، بينما يسميه الصرب «قوز».

## إيجور.. الرعب والبستنة

(تعليقات صديقي ميكا على الشعر اليوغسلافي، بعد اطلاعه على مجموعة مختارات جديدة من الشعر اليوغسلافي زغرب، ١٩٦٦ التي أعرتها له).

ضمّت المجموعة الجميع: الصرب، والكروات، والمقدونيين، والسلوفينيين. لم يحظ شعراء البوسنة، والجبل الأسود بفصول مستقلة، رغم وجودهم في المجموعة. أكثر ما لفت انتباهي هو قراءة الشعر السلوفيني باللغة السلوفانية، والشعر المقدوني باللغة المقدونية، من دون ترجمة لهما.

قلت لنفسي، لا بأس، لنر ماذا كان أجدادنا في الوطن يقرأون قبل أن يكون لنا وجود. هلم نحضر الآلة الحاسبة كما نفعل في الأسواق. يسأل دولاك: كم سعر البيض اليوم يا عزيزي؟ ثم يجري الحسبة. من بين ١٧٣ شاعرا في المجموعة، ثمة ٥٦



صربيا، و٦٢ كرواتيا، و٤٠ سلوفينيا، و١٦ مقدونيا. لا بأس، هذا جيد. دعني الآن أحصِ النسوة بينهم. ثمة واحدة بين الصرب، وثلاث بين الكروات، واشتان بين السلوفينيين. في المجمل هناك ١٦٧ شاعرا، وست شاعرات. كان من بين الشاعرات واحدة دفعتها الرهبة إلى استخدام اسم ذكري مستعار. ومن الأشياء التي لاحظتها أن هؤلاء الشعراء يعيرون اهتماما كبيرا لأسمائهم، ويفضلونها من ثلاثة مقاطع بدل مقطعين، ويقومون، مثلهم مثل الأبطال الحزبيين، بتسمية المدارس بأسمائهم، فنجد اسما مثل يورى فرانيتشيفتش- بلوتشار، أو ميلينكو بركوفتش- كرني، ولا تستطيع أن تحدد من يملك ناصية القلم، ومن يملك ناصية السيف. وهذا ينسحب على النوع الحالي من الساسة ممن يتوقون إلى النازية، فهم يصرون على ثلاثة مقاطع في أسمائهم، ويسترسلون في ذلك، فطول الاسم له أهمية خاصة عندهم. وهذا يجعلني أتساءل إن كانوا يحاولون التعويض عن عاهة بيولوجية، حيث يشكل سنتيمترا أو سنتيمترين فرقا ذا دلالة؟ أو، ثمة شيء آخر. يقوم شعراؤنا بإهداء قصائدهم لبعضهم بعضا. أتعرف ما أقصد؟ كرجل يغازل آخر. هل ثمة حاجة إلى المزيد؟

على أي حال، لنستمر في الحديث. والمدهش. المدهش حقيقية! أن حوالي ٥٠٪ من قصائدهم تدور حول الأم، أو الأم الوطن. أي نوع هذا الذي يحول الأم وطنا والعكس؟ ثم يتباكون على كليهما. دعني أقل لك إنه مجرد هراء. والأدهى من ذلك كله أن حوالي ١٠٪ منها تدور حول قصص الرعب، أعني بالضبط

القبور، والأضرحة، وما شابه ذلك. يا إلهي، إنه شيء يخيفني حقاً. أعني أن شعراءنا غيلان، ينبشون الأرض دوماً بحثاً عن عدو أو آخر. أحدهم يحدد أرضه (هذه هي الأرض التي بذرت فيها أمواتي)، ومن ثم يرفع معوله (أنا استدعيك أنت، يا ظلال) ويجول في خاطري، أنت خاطف الجثث اللعين. أنت تدخل الرعب حتى في قلب ستيفن كنف، ملك قصص الرعب. وبينما أحاول التغلب على ذلك الخوف، أجد نفسي وجهاً لوجه مع هذه السطور:

يا مرآة الرعب! أظهري مشاهد دون مقاصل أو مشانق!  
الدماء! الدماء! يصرخ دمي في أرض الكروات المستباحة.

### اللعنة!

لكن لننتقل الآن إلى العشرة في المائة التي تنتمي إلى ما يمكن أن أسميه «جنون العظمة»، أو قصائد أنا، أنا، أنا، التي يتحدثون فيها مع النجوم، ومع الكون، مثل «إن كنت رجلاً، فامش مطاولاً السماء» ذلك الهراء. قصائد تجعل من كل رجل، رجلاً خارقاً بمنتهى السخافة.

لا بأس، لنستمر في الحديث. الفئة التالية تشكل ٢٠٪، وتتغنى بجمال الطبيعة بما فيها فصول السنة، وهطول المطر، وما إلى غير ذلك من هراء. تظنهم مجموعة من المتبئين الجوّيين أمثال كامنكو كاتيتش. هؤلاء المنحرفون يهتمون بالحياة النباتية أكثر من الحياة الحيوانية. صحيح أنني وجدت قصيدة تتحدث عن

عجل، لكنني لم أدرك ذلك حتى وصلت إلى نهايتها. اعتقدت في البداية أنها عن فتاة جذابة، إذ كانت اللغة جميلة، وجنسية، ولكن في منتصف القصيدة ثمة بيت يتحدث عن الروث... لكن لنعد إلى الحياة النباتية. كانت هناك أنواع كثيرة من القصائد عما هب ودب من الأشجار، بما فيها أشجار الحور، والصفصاف، والسنديان. بعد كل ذلك الرعب فوجئت بأن لشعرائنا ما يقولونه عن الورود، بما فيها زنبق الوادي، والبنفسج ثلاثي الألوان، والورد، ونبات بخور مريم المزهر. لم أكن أتخيل أن الرعب والبستنة يتناغمان. مع ذلك ذكر أحدهم شيئاً عن عن زهور بخور مريم الدموية. كم يشكل ما تحدثت عنه ٩٠٪؟ لا بأس، فقد فحصتهم من كتب باحثاً عن الجنس في شعرهم. وقد أصبت بالدهشة لأنهم لا يهتمون بالجنس على الإطلاق. وهذا يظهر جلياً لك من دون الحاجة إلى آلة حاسبة. صدقني أن الوقت الوحيد الذي يكتبون فيه عن المرأة هو عند موتها، ودفنها. يبدو الأمر كأنهم ينتظرون موت المرأة بفارغ الصبر حتى يكتبوا قصيدة عنها، وشعارهم هو أنه كلما كبر المصاب ازدادت القصيدة حسناً. أنتم تعرفون القصيدة التي تقول:

رأيتك ليلة البارحة في منامي، حزينة، ميتة.  
في وسط القاعة المحتومة أنشودة رعوية للورد.  
في تابوت عالي المقام بين آلام الشموع.

طبعاً، أنتم تعرفون هذه القصيدة، فقد كان لزاماً علينا تعلمها

في المدرسة. وكتب الشاعر نفسه يقول:

لا أعرف من أنت: أأنتِ امرأة أم أنثى الضبع؟

اللغة! هل هذا الرجل يغيظني؟ أعني ما الحكمة إن كنت لا تميز المرأة عندما ترى واحدة؟ وهناك أيضا الشاعر الذي لم يستطع أن يجد مكانا لدفن امرأته (أين أستطيع دفنك، أوه، يا حبيبتي، أنت الآن رحلت؟)، والرجل الآخر «كلما ازدادت قراءة، ازدادت انزعاجا»، الذي غاب طويلا وعند عودته وجد حبيبته قد ماتت: وعندما عدت، وجدتك قد قضيت.

لماذا عاد ذلك الأحق؟ وهناك أيضا شاعر آخر درسناه في المدرسة، أتذكرونه؟

ومع ذلك قد يأتي الحب، ويصيبنا، ولكن هل أتمناه، أم أتمنى ذهابه؟

دائما ما جعل ذلك الدم يغلي في عروقي. مشكلتك يا صديقي ليست فيما إذا كنت تريد أم لا، بل فيما إذا كنت تمتلك القدرة. لذا، عليك أن تحزم بضاعتك، وتمشي، فأنا لن أشتري بضاعتك. هؤلاء الشعراء مجموعة من المرضى النفسيين. وهذا لا يقتصر على الموجودين في المختبرات الشعرية التي بين أيدينا،

إذ لم نجد صوتا عاقلا بين شعرائنا خلال المائتي سنة الماضية، أو حتى منذ بدأوا يقرضون الشعر. وهذا ينسحب على الجميع، الصرب والكروات، والسلوفينيين، والمقدونيين لا فرق. كلهم ضرطات قديمة. وأنت لست في حاجة إلى آلة حاسبة لإثبات ذلك.

## يوروش.. أتمنى لو أنني عندليب

خلال عامنا الثاني في المدرسة الابتدائية، طلبت منا معلمتنا أن نكتب موضوع إنشاء عن «تيتو». أخبرتنا أنه قد بُترت إحدى ساقي تيتو، وأنه يتعافى من تلك العملية الجراحية، وسيكون سعيدا إن كتبنا شيئا لطيفا عنه. كتبت أنني تمنيت لو أنني عندليب لأتمكن من الطيران إلى المستشفى الذي يرقد فيه الرفيق تيتو كل صباح لأوقظه بغنائى وهو في سريره. امتدحتني المعلمة كثيرا وقرأت ما كتبت أمام الفصل. سخر زملائي في الفصل مني ونادوني بالعندليب. كانوا يصيحون بالهراء ضاحكين: «ها قد جاء العندليب»، وعندما سمع أفراد عائلتي بموضوع الإنشاء، سخرُوا مني أيضا، وأخص بالذكر والدي. بعد ذلك بوقت ليس بالطويل، مات تيتو، وبكى والدي عليه، وجلس أفراد العائلة جميعهم أمام التلفاز لمدة ثلاثة أيام أثناء الجنازة وهم ينتحبون. وأكثر ما شدَّ انتباههم هو العدد الكبير من الشخصيات الأجنبية المرموقة التي حضرت الجنازة. قالت والدتي: «كل هؤلاء المشاهير!» وجدوا متنفسا للتسلية لهم في نقد نطق المذيعين لأسماء رؤساء الدول، والشخصيات المشهورة. ولكن عندما

قلت إن اسم مارجريت تاتشر هو تاتشر وليس «تراتشر»، رد والدي قائلاً : «هذا يكفي منك، يا عندليب. اذهب وأحضر لي زجاجة بييرة من الشلاجة. واحذر أن تفلت من منقارك!». وانفجر الجميع ضحكا على ما قاله أبي.

كانت يوغسلافيا مكانا بغيضا. كان الجميع يكذبون. طبعا، وما زالوا يكذبون، ولكن كل كذبة انقسمت إلى خمس، كذبة لكل بلد.

[...] أعتقد أنه من الأفضل أن أبين مباشرة  
 أن المناطق الشمالية من هولندا جعلتني دائما  
 أشعر  
 بقلق محدد، حيث أستهل الكلمة بالحرف الكبير  
 كما تتطلب اللغة الألمانية، كأن ذلك الحرف الكبير  
 وفق مذهب الفلسفة الطبيعية المبكرة كان من  
 العناصر الأساسية، مثل النار والماء  
 التي تكوّن الحياة على الأرض. الحرف الكبير يمنح  
 المرء  
 شعورا بأنه وضع في صندوق أسود  
 حيث لا مهرب سهلا منه.

### سيزنوتيبوم

تعد أمستردام من أجمل مدن العالم. برغم أن هذه مقولة  
 مبتذلة من كثرة الاستعمال، غير أنني لن أتردد في قبولها من  
 دون حرج من ابتذالها، ليس لما تهمله سهواً أو عمداً: إحساس،  
 يكاد يكون إحساساً مادياً بالغياب بشأن تلك المدينة، إحساس  
 طاردني من وقت لآخر، ولم أستطع تحديد مصدره.  
 خلال تجوالي في المدينة، كنت أمر بحزام من مناطق الشم:  
 رائحة البول التي تتلاشى أمام رائحة العفن الذي يمسّ خياشيمي  
 في أثناء نزولي على الدرج، ورائحة العفن التي تفسح في المجال

أمام رائحة الزيت النتن التي تفوح من مخلفات الطعام على الشاطئ وتسكن في شعري، ورائحة الزيت التي تتنازل عن رائحة العرق الآدمي الذي يعلق بي وأنا أشق طريقي عبر الحشود، ورائحة العرق التي تختفي أمام رائحة مخدر الحشيش القوية البغيضة. لم تكن لطبيعة المكان التي طالما أحاطتني أي قدرة على الإثارة، إذ تركت الانطباع نفسه الذي تركه الرجل المسن غريب الأطوار الذي كان يؤدي خدعا بهلوانية على حبل مشدود، وهو عار تماما في ميدان أمستردام العام. ذلك المخلوق البشري العاري وغير المؤلف الذي يتلوى ويتقلب على الحبل، كان مثالا غريبا لتناقضات المدينة.

تفصيلة بعد أخرى أفقدتني حذري . دائما ما كنت أواجه بازدواجية ما: إذ بدا لي أن كل شيء يمضي يدا بيد؛ وكل زيادة يقابلها نقص. لقد اتخذ غياب الجمال الأشكال النموذجية في التماثيل المدنية القبيحة، الذبابة الحديدية الممددة والتي تقبع على الأسفلت في حي «هارليم»، والجرارات المعدنية التي ترحف خلال الميدان الرئيس، والتماثيل الصغيرة بحجم الكرات المطاطية التي تبرز من داخل العشب المبتل من متزه لآخر. كان الجمال أيضا حاضرا، وقد اتخذ أيضا أشكالا نموذجية: في المتاحف، والمنازل الأرستقراطية، والقنوات، والصور المنعكسة.

بالإضافة إلى القول المبذل الأول، غالبا ما كنت أسمع قولاً آخر، أعني «أمستردام مدينة ذات بُعد إنساني». بالنسبة إليّ، كان بها بُعد طفولي. واجهات المتاجر في المنطقة الحمراء تعرض الدمى الحية لإغراء الكبار، ومتاجر الأدوات الإباحية بزخرفتها



كانت تشبه متاجر اللعب، والمقاهي التي تشبه روضات الأطفال بالفطر البلاستيكي «المزروع» عند المدخل، وجاذبية حديقة ألعاب السد. والأمر ليس أن هذه المسحة الطفولية مخربة أو باعثة علي السخرية، إذ لا يبدو أن هناك دافعا أيا كان من ورائها؛ إذ إنها حولت أمستردام تماما إلى نوع من «ديزني لاند» كئيبة. غالبا ما كنت أشعر بالخزي والعار وأنا أتجول في المدينة.

ومتسائلة إن كان بعض الناس غيري يرونها هكذا؟!!

إن كانت نوافذ أمستردام الشهيرة غير المغطاة بالستائر تكشف ما في الداخل، فإن الداخل يكشف غياب الخصوصية. بذلك يتم تأكيد متناقض لحق الخصوصية المقدس من خلال غيابه. وتمثل الشرفات الأمامية التي لا تتسع لأكثر من كرسي أو اثنين مكانا آخر لعرض مفهوم الغياب: فعندما يكون الجو حارا، يجلس المواطنون على تلك الشرفات في عروض حية يراقبون خلالها عروضاً حية أخرى، حركة المرور، والماضي المتبخر. إن أمستردام خشبة مسرح دائم، لكن إذا كانت تتشارك في هذه السمة مع غيرها من المدن على الأرض، فإنها تختلف عنها في تلقائية الجهد الذي يبذله السكان في أدائهم على خشبة المسرح، من خلال تحويل نوافذهم إلى واجهات للعرض، والتتزه مشيا على الأقدام، أو راكبين دراجاتهم الهوائية. لقد فتفت في البداية «ديزني لاند» الكبار هذه، ولكن سرعان ما وجدتتها منفرة. ربما أنني أسقطت كوابيسي على هذه المدينة، وقرأت من خلالها معاني لم يكن لها وجود. ومع ذلك، تبقى الحقيقة أن أمستردام هي المدينة التي اخترتها للعرض على شاشتي.

إن كانت أمستردام خشبة مسرح، فقد كان لي دور مزدوج: فكنت المُشاهد والمؤدي، المراقب، والمراقب في الوقت نفسه. الماء، والسماء، وألواح زجاج النوافذ، طبقات منفصلة تعكس الواحد منها الآخر، فعند توقفي أمام نافذة فإنها تجبرني تماما على اختلاس النظر، فكنت ألمح صورتني تذوب في الداخل، والصورة على شاشة التلفاز، وصاحب المنزل يحملق في الشاشة من على كرسيه، والصور المنعكسة للمارة الآخرين. وإذا ما مررت بنافذة في المنطقة الحمراء، كانت صورتني المنعكسة تمر عبر وجه بائعة للهوى كظل. كانت كل الأشياء تعكس بعضها، وكل الأشياء اندمجت في بعضها، فصور المنازل المنعكسة في القنوات توحدت مع صور النوافذ المنعكسة في السماء. كنت أصاب بالدوار من مجرد التفكير في ذلك.

كان لبعض الأبواب الأمامية مرايا بارزة على قضبان معدنية هدفها تمكين النزلاء من رؤية من يقرع الجرس من دون أن يتمكن هو من رؤيتهم عند النافذة. وكثيرا ما كنت ألمح صورتني المنعكسة في تلك المرايا، ويتولد لدي شعور بأنني قد أنزلق من خلالها إلى عالم مواز، وأرتعب من فكرة أن أرى نفسي من الداخل متوارية خلف الستار، وأقرع جرس الباب.

مررت في أحد الأيام بمجموعة من السياح الأمريكيين الذي تحلقوا حول عازف مُسن متجول لأرغن متنقل، وعند سماعهم يتدفقون عليه وهم يهتفون «رائع» تذكرت ما يعادلها في الهولندية، كلمة «ليوك»، وأدركت أنها المفتاح لحل المشكلة. كانت «الليوكينية/ الروعة» مُطهرا، مبيدا للجراثيم يزيل كل

البقع، والكدمات، وتضع كل شيء على قدم المساواة، تجعل كل شيء مقبولا. كانت بالقرب من منزلي حانة للمثليين اسمها «رأس الملكة»، معروض في واجهتها عشر دمي ذكرية، في عشرة مناظر. كان عرضا لـ «ليوك/الرائع». كلما مررت به، تداعت إلى ذهني صور الدمية «باربي» الحقيقية من فتيات مولدافيا، وبلغاريا، وأوكرانيا، وبييلاروسيا، التجار، المتاجرين باللحم الآدمي لمن تم شراؤهم من أجل التصدير. كنت أفكر في اللحم الشرق-أوروبي المتجه في رحلته الطويلة إلى الغرب. إذا عجزوا عن التقدم إلى منطقة صربية، أو بوسنية نائية، فسينتهي بهم الأمر إلى هنا. فكرت بهم، وفي المناظر الشرق - أوروبية للذين جاءوا إلى هذه الـ «ديزني لاند». كم كان كل هذا رائعا/ليوك! والشيء «ليوك/الرائع» يتخطى الخير والشر؛ المسألة ليست «الأخلاقي واللاخلاقي»؛ المسألة هي ببساطة: أقبله أو أرفضه، ليس إلا.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام كنت شاهدة علي منظر طعني كما لو كانت مدية اخترقت جسمي. كانت الشوارع لم تزل فارغة... مزقت صيحة الفجر البورسيليني تماما امرأة آتية في اتجاهي، تضرب بذراعيها، وتحكم قبضتيها في إشارة تهديد، وفمها يقذف بكلمات ممزوجة بالأنين. لمحت قناعا مندمجا مع وجهها، قناع الألم. خلت عيناها من الدموع، محبوستين في نظرة محدقة كليلة، وكان فمها يميل إلى أسفل. مرت من دون أن تشعر بوجودي، على الرغم من أنني كنت الكائن الحي الوحيد في الجوار. بدت كأنها تستذكر قائمة من الشتائم جمعتها طوال حياتها. ومع أنني لم أفهمها، غير أنها اخترقتني في الصميم.

ما نال مني هو ذلك المزيج من صيحات الذعر القاتلة، والوجه الورقي المُعجّن الذي خلا من أي أثر للحياة.

ذات مرة في أثناء إحدى رحلاتي العصبية بالقطار، نزلت في لاهاي، وذهبت إلى زيارة مدينة «مادورودام»، حيث وجدت نفسي فعلا في قلب الاستعارة التي كنت أبحث عنها. إن «مادورودام» نموذج بالحجم الطبيعي لهولندا، إنها «ديزني لاند» هولندية. ضمت كل شيء، المدن، والمنازل، والقنوات، والجسور، وطواحين الهواء، وكل شيء حقيقي في الحياة: فالماء يجري، والأزهار تتفتح، والأعشاب تنمو، والقوارب تتكدس في الممرات المائية، والجسور ترتفع لتفسح لها في الطريق، والهواء يموج بالطائرات الهليكوبتر. كان هناك الناس أيضا: سائقو الحافلات والترامات الصغيرة، ورجال الشرطة، وحراس القطارات، والطيّارون، والمشاة، والأطباء، وأصحاب المتاجر والعاملون في المتاجر، والسياح، والأطفال، والكبار، والمسنون المتقاعدون، والمزارعون، ورجال الإطفاء. كان بها أيضا مطار بمدرجاته، وطائراته وأبراج مراقبته، وبواباته، والمسافرين. كان بها البرلمان الموجود في لاهاي، والكاتدرائية في أوتريتش. وكان بها سوق آلكمار للأجبان الشهيرة، ومتحف رايكس بأمستردام، وجسر روتردام، ومحطة قطارات جرونيجن، ومنارة جزيرة أميلاند... وفجأة ظهر أمام عقلي شيء: لقد رأيت نفسي جالسة على مقعد في متنزه «فونديل» كفراشة في ألبوم للصور، أو معبرة عن إعجابي بلوحة بحجم ظفر طفل في متحف رايكس. كنت أنتقل بعقلي من أمستردام إلى مادورودام، ومن مادورودام إلى أمستردام. وفجأة

أدركت أنني أعيش في أكبر بيت للدمى في العالم. رفضت أن أنظر عبر النافذة. ماذا سأرى؟ لا شيء سوى أوسع بؤبؤ عين في أوسع عين طفل.

بعد ذلك قد أغير منظوري وتصبح أمستردام «من أجمل مدن الدنيا»، و«زهرة الصحراء». تخطر ببالي رياح الصحراء وهي تستوعب رمال الصحراء غير مبالية، وتطحنها بأسنانها، ثم تصقلها بألسنتها الملتهبة، وتخرج زهرة من الصخر. في الأيام الماطرة عندما تهبط السماء هبوطا كبيرا كأنها تلامس السطوح، تلف الزهرة الصخرية حلة داكنة بغيضة. لكن حين ترتفع السماء، فإن الزهرة تمتلئ بالضوء، وتشع ببريق، يتركني مبهورة الأنفاس. في الجزء الأكبر كنت عدلت نبضي على نبض المدينة، وتابعت حياتي. كنت أذهب إلى السوق، وابتعت السمك، والفاكهة، والخضار، وعينات مختلفة من الجبن الهولندي؛ وواصلت حضور أحدث الأفلام؛ وراقبت الناس في المقاهي؛ وزرت المعارض والمتاحف. وأبدت الحياة طبيعتها، واسترخيت من جديد. كنت أسكن في قلب مدينة أمستردام الذي، أو هكذا تراءى لي أحيانا، تدفق نهرا من الحلوى أكثر مما تدفق من الدم. قد تكون غريزة البقاء هي الصمغ الذي أبقى قلبي ملتئما، وجعلني أظن أن كل شيء كان «طبيعيا».

نحن رواد،

جنود شجعان وحقيقيون.

نبت على مر الأيام

مثل العشب من جديد.

واصلت الاعتقاد بأنه كان لدينا الوقت لمعرفة الحقيقة، لكن الفصل الدراسي الأول انتهى قبل أن أدرك الأمر. وبما أن نهاية الفصل تزامنت مع عيد ميلادي، اقترحت أن نخرج جميعا ونحتفل بالمناسبتين معا. كانت لدي تذكرة طائرة للذهاب إلى زغرب، حيث يفترض أن أمضي أسبوعا قبل العودة من أجل التحضير للفصل الدراسي الثاني.

اختار الطلبة حانة هولندية قديمة بالقرب من محطة القطار الرئيسية. كان أحدهم يعرف صاحب الحانة. كانت الحانة تكاد تكون فارغة: فلم يوجد بها أكثر من ثلاثة أو أربعة من الزبائن الدائمين جالسين عند المشرب، وهم سكارى. قال داركو: «انظروا. سيكون المكان لنا فقط».

أحضرت ميلها علبة من الكعك البوسني الأصلي صنعتها والدتها. قدم إيجور ونيفينا، وسليم (وجميعهم كانوا يعملون في الوزارة)، قدموا لي مصنوعات جمعوها في أثناء العمل: قيدا لليدين مخفيا في حزمة من الأزهار الصفراء من إيجور، وطوقا من الجلد بمسامير معدنية من سليم، وسوطا أسود ملفوفا بورق

بنفسجي ومزينا بشريط أحمر من نيفينا .

قال إيجور وهو يقبل يدي: «عقبال المائة عام، يا رفيقة  
ماكارينكو! الآن لديك كل ما تحتاجين إليه».

سألت نفسي مستغربة، أين اكتشف إيجور ذلك الاسم، فعملاً  
«ماكارينكو» عن الأحداث الجانحين في الاتحاد السوفييتي  
«الطريق إلى الحياة»، و«قصيدة تعليمية»، قد نُسيَا منذ زمن  
طويل حتى في موطنهما الأصلي.

كانت جوهانكي قد ذهبت إلى متجر أطعمة معلبة بوسني في  
روتردام كي تشتري الأفاري المقدوني كثير التوابل، وشوكولاتة  
نبابوليتنكا المحشوة، وكيسا من بن ميناس، وضعتها كلها في  
صندوق ثم لفته وكتبت عليه: «صندوق الإسعافات الأولية لمن  
يعانون الحنين إلى يوغسلافيا»، قدم لي آنتي نبتة روزماري،  
وقدمت أنا نسخة من مبادئ القراءة الأولية ليوغسلافيا  
ما بعد الحرب. تساءلت: إلي أي مسافات ذهبت لإحضار تلك  
النسخة... إلى أمستردام؟

حضر أيضا ماريو، وبوبان، وداركو، ويوروش. وحتى أمرا، الأم  
الشابة، جاءت لفترة قصيرة، برغم أنها لم تحضر أي محاضرة  
في الفصل الدراسي تقريبا. وقد حضر زول لمدة وجيزة، وهو  
الشخص الذي كان قد ادعى أنه يسكن مع أحد المثليين ليتجنب  
الطرد من هولندا، كذلك فعل لافي، الذي كنت قد نسيتَه تماما.  
أحضر آنتي آلة الأكورديون، بينما كانت أقذاح البيرة ينفذ  
منها الشراب وتعباً من جديد ببهجة غامرة، شرع آنتي في  
التحدث عن إسهامه المعجز في الأغاني الوطنية، وأغاني المدينة

الشعبية، وأغاني الحب البوسنية، وحفلات الرقص الصربية، والمقدونية، والقصائد الغنائية من مقاطعة ميديموريان، والطرب الدماسي، ورقصات البولكا، وبعض الألحان المجرية، والفجرية. كان يعرف كل القديم المفضل: «إمينا»، و«بليانا تنظف الفرش»، و«يا لشعرك الشديد السواد، يا حبيبتي»، و«كنت زهرة»، و«كان لأبي مهريّن»، و«فتاة بليتشا»، و«من فاردار إلى تريجلاف»، وحالما بدأت الموسيقى تحرك ذكرياتهم، سالت المقاطع والألحان الواحد تلو الآخر، وسرعان ما بدأ الحضور التنافس على من يتذكر أكثر من الآخر. بدا الأمر كأنه برنامج مكثف في تاريخ الأغنية الشعبية اليوغسلافية. عرجنا على أعياد أوباتيا سنة تلو الأخرى: زدينكا فوتشكوفتش، وآيفو روبتش، ولولا نوافكوفتش، ولادو ليسكوفار، وزفونكو شيشيتش، وديوردي ماريانوفتش، وليوبكا ديميتروفسكا... لقد استمتعنا كثيرا لمجرد نطقنا بتلك الأسماء بشكل جماعي.

«أتذكر عندما غنت لولا نوافكوفتش: لم تأت قط لتقدم لي يدك، وردد اليوغسلاف بصوت عال من ورائها، طبعا لأن الجميع يعرف من الذي لم يأت». «لا أعرف. من كان ذلك؟».

«لماذا؟ أيها الغبي! إنه كيون جويكوفتش».

تدخلت بينهما مقاطعة وسألت: «ولكن كيف لك أن تعرف؟ لم يكن معظمكم قد ولد بعد».

أجابوا جميعا بصوت عال: «نحن لدينا جينات يوغسلافية، يا رفيقة، أتذكرين ذلك؟ تلك الجينات تتولى الأمر».



كان أنتي يغذيهم بمزيد من الغناء، وكانوا يلتمسون منه المزيد :  
«أحسننت يا أنتي! أنتي، ماذا عن...».

وأخيرا وصلوا إلى أغاني «ديوردي بلاشيفتش» بين الحلوة  
والمرّة، والتي كان يُظن أنها من الأغاني التي تنقص من الكآبة  
اليوغسلافية البائسة، ثم انتقلوا إلى أغاني «الروك» اليوغسلافية  
الشهيرة تاريخيا، مثل المؤشرات والأزر الأبيض، وآزرا. وفي أثناء  
إحدى فترات راحة أنتي، قمنا بجمع كلمات قسّم الرواد التي  
تقول: «أقسم بشرفي أن أحافظ على مكتسبات الوطن»، والنشيد  
الوطني اليوغسلافي: «أصغوا أيها اليوغسلاف! سيبقى صوت  
أجدادنا مدويا طالما بقيت قلوب أحفادهم تتبض بعنفوان»، الذي  
قمنا بإنشاده بلحن مقطعي جديد. جمعنا قائمة بكل الموسيقيين  
الذين كتبوا ألحانا نُعتت بالشعبية، وذاع صيتها في السبعينيات،  
والذين كتبوا اللون الموسيقي الشعبي الذي أعقبها. وقد ضحكنا  
بصخب حول أسخف المقاطع الهزلية:

اشتر لي سيارة، يا أبي. وكذلك برتقالات.  
أو اشتر لي دبا صغيرا مباشرة من حديقة الحيوانات.  
اشتر لي أرنباً أو حلوي أو كرة.  
لا، اشتر كل شيء . فأنا أريدها كلها .

بمجرد أن وصلنا إلى الأرنب، والغدير، حتى ولجنا طفولتنا  
الثانية. فذرفت نيفينا دمة عند سماعها «والآن يبكي الأرنب  
المسكين وينتحب ...»، وتابعنا الحديث لنصل إلى التلفزيون

اليوغسلافي، فسررنا أولاً وقائع برامج الأطفال: حرفاً بحرف، وميندو وسلافريكا، ونيفين وقاطني الضباب، ثم أوائل المسلسلات الأمريكية «بيتون بليس»، و«داينستي»، و«دالاس»، وكذلك المسلسل البولندي كابتن كلوس، والمسلسل السوفيتي كابتن شتيتليتز، والمسلسل التشيكي مستشفى الضواحي. ومن هناك انتقلنا عائدين إلى عهد المغنية رادميلا كاركلايتش، التي كان من الممكن أن تكون أما أو جدة لنا، وعرجنا على أغنيتها «زومبان زومبا»، «سمكة القند المملحة»، وممرنا بكل النكات العرقية: النكات البوسنية (عن ميهو وميوجو، وفاتا وسوليو)، وتلك التي من مقاطعة فويفودينا الصربية (عن لالا)، والسلوفينية (عن جانيوز)، ونكات الجبل الأسود، والدالاما، ومقدونيا. وقلدنا الطريقة التي يتحدث بها الألبان الكوسوفيون (لغتاً) (عندما أحب أقبل، وعندما لا أحب أقتل)، وكل اللكنات المحلية. لم يكن بمقدور أحد إكمال جملة من دون تدخل شخص آخر. لقد كانت جلسة ثرثرة مطولة عن الحياة في يوغسلافيا. ظللت قلقة من أن تنفجر حقيبتنا البلاستيكية - ذات الخطوط الأحمر، والبيض، والزرق - وتتفجر معها المؤسسة الجدية التي أسسناها لمتحفنا الافتراضي عن الحياة اليومية في يوغسلافيا.

و لم يتحاشوا الحديث عن الحرب أيضاً.

(ثمة شيء خطأ جداً من أساسه في لغتنا، فهي بدل أن تقول: «الطفل نائم بارتياح» أو «الطفل نائم بعمق»، تقول: «الطفل نائم نوم القتيل».

«هذا هو الذي قاد إلى الحرب».

«ماذا تعني؟».

«إذا اعتقدت أن طفلك على وشك أن يذبح، فما عليك إلا سحب سلاحك وإطلاق النار مباشرة».

لم يعرف طلبتي أنني كنت سمعت الشيء نفسه من بعض المهاجرين اليوغسلاف، حتى أنهم ذكروا أن ذلك كان السبب الرئيس لتركهم وطنهم. (لماذا رحلت؟ لأن الأطفال في اللغات الأخرى ينامون النوم فقط، بينما أطفالنا ينامون نوم القتل). في تلك اللحظة شعرت بموجة من الشفقة تغمرني؛ في تلك اللحظة شعرت بالرتاء لهم، وأحببت كل شيء يخصهم، الطريقة التي ينظرون بها، والأشياء التي يقولونها، والطريقة التي يتحدثون بها عنها... كانوا هم أطفالني. وبينما كانت عيوني تنتقل بينهم، كنت التقط صوراً فورية لأبرز ملامحهم: أصابع سليم الطويلة بشكل غير عادي، والناعمة، وطريقته العصبية في ضرب ذراعيه كالأجنحة، ووجه ميلها عندما تجتاحه ابتسامة كالزيت، والشق العميق بين حواجب أنا، الذي يكاد يكون وسمة، وجفون يوروش القلقة نصف المغلقة برموشه المبيضة، ورأس نيفينا الذي يلتوي التواء رابطة العنق قبل أن ترفع عينيها. كنت الوحيدة التي ليس لها صورة كاميرا فورية: فالمكان الذي حُجز لي على الطاولة كان فارغاً، مجرد فجوة.

ارتفعت حرارة المجموعة كارتفاع رغوة البيرة. لا بد أننا جميعاً، فقدنا عقلنا مؤقتاً. لم يكن لدينا فكرة أين كنا. في اجتماع للرواد؟ في مهرجان حزبي؟ في رحلة مدرسية ميدانية؟ وفجأة بسبب التناول المفرط للشراب، أو الإثارة المفرطة،

أو الإرهاق، أو شيء من الاسترخاء الجماعي - انفجرت ميلها في البكاء. حذا آخرون حذوها، أو شعروا بغصة في حناجرهم. تولد لدي إحساس بأننا شربنا الكأس حتى الثمالة، وبأنه بين لحظة وأخرى، قد تتقلب تلك اللحظة العاطفية للجماعة إلى شيء آخر. وهذا ما حصل بالفعل.

يوروش، الذي كان من الواضح أنه شرب أكثر من الآخرين، وقف ونادى بأعلى صوته: «أرجو الهدوء من الجميع، أرجو الهدوء. سأقول شيئاً».

بدا وجهه شاحبا، وترنح قليلا وهو يحاول التقاط نفس عميق.

في أرض فلاحين

في جبال البلقان

في يوم واحد

جاء موت شهيد

لمجموعة من الأطفال.

الكل أتى إلى هذه الحياة

في السنة نفسها.

الكل ذهب إلى المدرسة نفسها،

الكل حضر

الاحتفالات نفسها؛

الكل أخذ

اللقاحات نفسها،

والكل مات في اليوم نفسه.

استمعنا له من دون النطق بكلمة واحدة. كان «آنتي» يعزف أغنية وطنية «جبل كونيوه».

وخمس وخمسون دقيقة  
قبل تلك اللحظة المشؤومة  
كانت مجموعة الأطفال  
جالسة على مقاعدها  
يجهدون في حل مسألة حساب صعبة  
كم يستطيع المسافر أن يقطع  
إذا مشى بسرعة...؟  
وهلم جرا.

كان ذلك مشهدا مؤلما من «حكاية دموية» للشاعرة «ديسانكا ماكسيموفتش» التي كانت تحفظها أجيال من تلاميذ المدارس عن ظهر قلب في يوغسلافيا السابقة. كانت تلك القصيدة مقررة في كل الكتب الدراسية والمختارات الأدبية، وكانت تشد في «المناسبات الرسمية»، والاحتفالات والاجتماعات المدرسية. كانت تعالج حدثا وقع بالفعل، فالألمان أعدموا فعلا فصلا كاملا من التلاميذ في مدينة كراجويفاك سنة ١٩٤١، ولكن القصيدة فقدت قوتها نتيجة تكرارها المبتذل، وتحولت مع مرور الوقت إلى محاكاة ساخرة لا تعكس جوهرها. فسئم الناس سماعها. وبينما كان يوروش يجلس في نشيده، تذكرت صورة تلفزيونية لشاعرة تبلغ من العمر تسعة وتسعين عاما، وهي ترتدي قبعة بحواف تكبر رأسها ثلاث مرات. كانت تجلس في الصف الأول

مصغية إلى خطاب «سلوبودان ميلوسيفتش» داعيا للحرب، وكانت مشرقة، وتومئ برأسها مثل مشعوذ غريب أو كلب آلي.

حفنة من الأحلام نفسها .  
والأسرار نفسها ،  
أسرار الحب وحب الوطن ،  
تقبع دفينة في جيوبهم ،  
وجميعهم كانوا يظنون أن لديهم  
كل ما يحتاجون إليه من الوقت  
ليجروا تحت القبة الزرقاء  
و يضعوا حدا لمشاكل العالم ...

بدأ طريق هذه القصيدة البريئة من حدث تاريخي: وهو إعدام مجموعة من الأطفال أثناء الحرب. وما إن جسدت القصيدة ذلك الحدث، حتى أدخلت في المقررات المدرسية. وبعد مرور خمسين سنة على ذلك؛ تحول مغزى تلك القصيدة المناوئ للحرب إلى عكسه: فالابتسامة التي منحتها تلك الشاعرة للزعيم القومي مثلت دعما رمزيا للحرب التي كان يشنها، وكل ما يتصل بتلك الحرب من معان. هنا في الحانة كانت أبيات تلك القصيدة تسيل من فم ذلك اللاجئ الشاب مثل لعاب كرية. يستحيل أن يكون الموقف أكثر ألما، وسوءا. لقد فقد «يوروش» الغاية. على نحو مميت. ما إذا كنا أصغينا إلى يوروش بدلا من اختلاس النظر، فلن يكون سبب القصيدة، أو أدائها هو ما صدمنا، بل السبب

الحقيقي هو أن يوروش نفسه من صدمنا . لقد ثقب البالون الذي كان يجمعنا في الداخل، وتبخر حنيننا الجمعي واختفى . فانقلب سحر اللحظة إلى زعر .

في صف أطفال تلو آخر  
تشابكوا بالأيدي وغادروا الفصل،  
ذاهبون من آخر حصة دراسية لهم  
إلى كتيبة الإعدام مثل الخراف،  
وكأن الموت لم يعنهم البتة .

وبعد إلقاء آخر بيت في القصيدة، انهار يوروش ساقطا في كرسيه . لم ينبس أحد ببنت شفة . كان الصوت الوحيد في المكان هو عزف أنتي الهادئ . أخرج يوروش ورقة نقدية من فئة خمسة وعشرين جيلدر، وبصق عليها ولطمها بجبين أنتي . سكنت آلة الأكورديون . أنزل يوروش يده وقبض بقوة على الكأس التي أمامه محطما إيها إلى قطع، ثم ضرب رأسه بالطاولة .  
عندما رفع رأسه، رأيت نوافير من الدم تسيل على وجهه . سمعت صرخة مصدرها نيفينا، أو آنا، أو ميليا . رأيت ماريو، وإيجور يرفعانه عن الطاولة ويسحبانه إلى الحمام . فقدت الإحساس وشعرت بانفصالي عن الواقع تماما . كان بمقدوري سماع الأصوات في المكان، ولكنها بدت آتية من بعيد .  
- كان ذلك شبيها بفيلم بيتروفتش: «قابلت غجرا سعداء» .  
- ويوروش يؤدي دور بيكم فهميو .

- فهمي .
- منذ متى وأنت خبير بأسماء الشيبটার؟
- منذ متى وأنت تدعو الألبانيين بالشيبটার؟
- لماذا ينتهي «أهلنا» دائماً إلى هذه المرحلة؟ لماذا نعمل دائماً من الحبة قبة؟

بعد فترة عاد الجميع إلى وضعهم الطبيعي. بدا يوروش في وضع مقبول، فقد اعتنى إيجور، وماريو به جيداً، إذ مسح الدم عن وجهه وضمدا الجروح بمساعدة من صاحب الحانة، ولفا يده بوشاح أحد الموجودين.

تلعثم يوروش قائلاً وهو يغادر المكان: «آسف إن كنت...». عندئذ عادت الأصوات إلى طبيعتها من جديد. «أنت يا رفيقة! هل أنت بخير؟ تبدين شاحبة كأحد الأشباح». كان ذلك إيجور.

أومأت برأسي وطلبت كأساً من الماء. ثم جاء النادل ودفعنا الحساب. وضعت الهدايا في حقيبتي. ثم غادرنا الحانة في صمت.

مررنا في وسط ضباب كثيف. بصعوبة كان يستطيع المرء أن يرى يده أمام وجهه.

«يا إلهي! ضباب شبيه بالظلمة!».

تمثلت استجابتي بأخذ عدة أنفاس عميقة فقط.

كان الطلبة ينظرون إليّ وهم يقفزون صعوداً ونزولاً ليحافظوا



على دفتهم، ومن ثم بدأوا في التفرق.  
صاح ماريو من وسط الضباب: «أشعر كأني في أحد أفلام  
جون كاربنتر».

قالت ميليا من أجل تهدئة الخواطر: «انظروا إليّ! لا تتزعجوا  
كثيرا مما فعل يوروش. الحفلات البلقانية لها نهايات بلقانية».  
تمتت: «أنا بخير. سأراكم بعد أسبوعين».  
سألت نيفينا: «ذاهبة إلى زغرب لقضاء الإجازة؟».  
«نعم».

«متى؟»

«غدا».

قالت وهي تقبلي على خدي: «أتمنى لك إجازة سعيدة!  
أحضري بعض الشوكولاتة الطيبة من زغرب».  
تواروا الواحد تلو الآخر في الضباب. وسرعان ما بقيت أنا  
وإيجور وحدنا. كنت ممتنة عندما عرض إيجور أن يوصلني  
إلى المنزل. حمل الحقيبة وبدخلها الهدايا، وأخذته من ذراعه  
واتكأت عليه، إذ لم أزل أشعر بالضعف.

كان الضباب بكثافة حلوى شعر غزل البنات. كان الألم الذي  
شعرت به أثناء ما قام به يوروش في الحانة يتلاشى تدريجيا  
أمام بهجة أمستردام وسحرها الطفولي.  
همس إيجور: «الضباب يتماشى مع أمستردام، أليس كذلك؟».  
«لماذا تتحدث هامسا؟».  
رد مرتبكا: «إنه الضباب».

نظرت إليه. وجدت ارتبাকে مؤثرا. كان الضباب مثيرا. أشبه بتخيل طفل عن اختفائه في الأثير الرقيق. الآن أنت تراني، الآن أنت لا تراني. ذلك مغر ومرعب في الوقت نفسه، مثل قبعة الإخفاء في الحكايات الخرافية الروسية.

قال مستفسرا: «ما الأمر؟ لماذا تتظرين إلي هكذا؟».

«يا لك من طفل رائع!».

«أنتِ الطفلة! أراهن أنه ليس لديك فكرة أين أنتِ».

«ذكرني».

«في بلدة ماكوندو الخيالية».

«لماذا ماكوندو؟».

«أتذكرين كيف أن الجميع في تلك البلدة توقفوا عن النوم فجأة وفقدوا ذاكرتهم تماما؟ لذا كان عليهم أن يلصقوا على الأشياء أسماءها، وكيفية استعمالها لمعرفة التعامل معها. أتذكرين أيضا كيف اخترع أركانديو بوينديا آلة الذاكرة؟».

بدا كل شيء من حولنا ساكنا. لم يعد هناك المزيد من الحواف الحادة. كل شيء كان ناعما، الأصوات، والتعبيرات، والأضواء. كل شيء هادئ، في مستوى منخفض، ويحبس أنفاسه. كان علينا عمليا أن نتلمس طريقنا عبر الضباب. كل شيء كان وهميا.

«كلا، لا أتذكر».

«أتذكرين من أنقذهم؟».

«كلا، لا أتذكر».

«ذلك الفجري ميلقوديادس، الذي عاد من عالم الأموات وأحضر لهم ماء محلى بالسكر في زجاجات صغيرة».

«كوكا كولا؟».

رأيت رجلا بعينين سوداوين، لامعتين، مائلتين ميلا خفيفا  
تحملقان فيّ من خلال الضباب. كانت شفّاته الكبيرتان رطبتين  
ومنتفختين، وكان جسمه مشدودا كوتر . بدا كأنه يرتجف.  
بدت صورة تبزغ في ذهني كأنها من ماض تم نسيانه. رأيت  
نفسي متعبة، ( ... ).

قلت لاهثة وأنا أنسل إلى مدخل منزلي: «تصبح على خير».

# الجزء الثاني



اتصلت بي قائلة: «سأحضرك من المطار»، أجبتها: «لا تكلفني نفسك. سأتي بسيارة أجرة». لكن عندما نزلت من الطائرة، شعرت بوخزة خيبة الأمل: لأنني لم أر وجهها هناك. جال في خاطري، أن الدولة الأجنبية هي الدولة التي لا يستقبلك فيها أحد في المطار. كنت مندهشة من حساسيتي هذه: فهي طفولية إلى حد كبير. ولم يكن لدي الوقت لأرتدي ترسا يحميني من ذلك.

أقسمت أن أكظم كل «عواطف المهجر»، لقد كنت مدركة لقائمة الشكاوي المألوفة، «لا أحد يستفسر عن حالنا، فهم يتحدثون عن مشاكلهم فقط» (ماريو). «نحن» من غادر الوطن، و«هم» من بقي هناك، «فهم» يعيشون «هناك»، ونحن نعيش «هنا»، «إنهم» الأكثر معرفة بالأمور. وهم يقاطعوننا بمجرد أن نفتح أفواهنا، إذ إن لديهم رأيا في كل شيء. (داركو). «لماذا ينبغي أن يكون لهم رأي في كل الأمور؟»، «عندما يتحدثون يعطون الانطباع أنهم يعرفون أمستردام أكثر منا، على الرغم من أن أقدامهم لم تطأها قط» (آنتي). «لا يتوقفون عن الشكوى من سوء الأمور عندهم، ومحاولة جعلني أشعر بالذنب لتركي الوطن» (آنا). «كلما عدت إلى الوطن، أشعر وكأنني أشيع جنازتي» (نيفينا). «أشعر وكأنني كيس للتدرب على الملاكمة، إذ أتوجع في كل أنحاء جسمي» (بوبان). «اعتدت أن أمثل شخصية بابا نويل وأحصل على كم هائل من الهدايا. كان ذلك يسعدني. أما الآن، فالأمور مختلفة» (جوهانكي). «لا أعرف كيف تسير الأمور هناك، فأنا لم أعد إلى هناك ولا توجد لدي الرغبة للعودة» (سليم). «لم أعد إلى هناك أيضا، فأنا أخشى من المواجهة» (ميليا).

تركت أُمي باب شقتها مواربا . تأثرت بعمق تفكيرها : فقد كانت تنتظرني على أحر من الجمر ، وتخوفت من عدم سماع رنة الجرس ، أو من مشقة البحث عن المفتاح في مكان لا تتذكره ، ومن ثم الجري نحو الباب الذي قد لا يفتح بسهولة : فأنتِ لا تعرفين متى سيعلق القفل .

رمت بنفسها بين ذراعي كطفل . ( «يا إلهي ! تبدين كالخيال ! أين تعيشين ؟ في بنغلادش ؟ لا ، أنت تعيشين في دولة تزود العالم بالطماطم . بالمناسبة ، مذاقها سيئ ؟ » ) ، أجلسنتي إلى طاولة المطبخ وبدأت تتحدث عن الأطباق التي حضرتها ( «لا ، لا سأضع ذلك في طبق لك ، لا تتحركي » ) ، وما إذا كنت أريد ملحاً أو المزيد من هذا أو ذاك .

بدت أقصر وأكثر ضعفا مما كانت عليه في آخر مرة رأيتها . زادت تجاعيدها وبدأت تفقد الشعر في أعلى رأسها . مجرد رؤية أعلى رأسها من خلال شعرها الأشيب الخفيف المتناثر آثار حناناً مؤلماً في نفسي . يا إلهي ، كم تقدمت في العمر !

كانت لأُمي موهبة فطرية في تحويل الناس إلى مراسليها . فعلت ذلك مع كل من كان حولها - معي ، ومع أهلها ، وأصدقائها - ولم يعترض أحد ولو بكلمة واحدة . لقد كنت صفحة صغيرة ، مطبوعة في بلاطها ، أو على الأقل هكذا نظرت إلى نفسي . اعتادت أن تمطرني بألفاظ محببة من أسماء الدلع - فكنت «نجلتها الطنانة» ، و«فطيرتها بالترفاح» ، و«ضفدعتها الغنية» ، و«أنستها السمكة» - لكنها لم تخصص لي وقتاً كافياً قط . كانت تراقبني طوال الوقت ، ذلك كل ما في الأمر : فهي لم تكن تعيرني اهتماماً ،

بل كانت تعتني بي. وبالرغم من أنها غالبا ما كانت تتركني في رعاية الآخرين - من الطلبة، وربات البيوت من الجارات، وفي الرعاية النهارية مع «الخالات»، فإنني كنت دائما أنضم إلى «النشاطات التي تعقب المدرسة»، وكنت أنتظرها بفارغ الصبر لتأخذني. في إحدى المرات نسيت أن تأخذني من مستشفى حيث أجريت لي عملية بسيطة. أتذكر جلوسي على السرير طوال الليل، مرتدية كامل ملابسني، متظاهرة بالشجاعة، بينما كنت أقطع من الداخل: متخوفة من عدم رؤيتها مرة أخرى. جاءت في صباح اليوم التالي. رفضت أن تدعني «أهول» من هذا «العبث»، وفي آخر الأمر، تربي عندي التعود على تدبير الأمر من دونها. كنت قد أصبحت «ضفدعة أمي الغنية المعتمدة علي نفسها»، لقد كانت تكذب في العمل. كانت عالمة اقتصاد، وانتهى بها الأمر مديرة لأحد البنوك. كانت أيضا تتنقل جيئة وذهابا بين العديد من العشاق الثابتين، وزوجين. وفي خضم ذلك كله كنت أنا - صغيرة أمها التلميذة الذهبية - و«كنز أمها الوحيد».

والآن كانت تتابع الحديث بابتهاج مصطنع عن الجيران الذين لم تعرفهم سابقا أي اهتمام البتة، والأقارب الذين لم تتحدث عنهم سابقا قط، وعن أناس لم أسمع بهم من قبل إطلاقا. كان هذا التقرير الطويل، والمفصل، طريقتها في ملء الفراغ، وإخفاء حقيقة أنه لم يعد لديها إلا القلة القليلة من الأصدقاء، وكان طريقتها في إبعاد شبح الموت، وتجنب مواجهة حقيقة معي، وتخفيف الألم الناتج عن زيارتي، التي هي بمنزلة بداية لرحيل وشيك، ومحو الزمن الذي انقضى منذ زيارتي الأخيرة - خلاصة



القول، كانت طريقة «لوضع الأمور في نصابها»:  
«هل تذكرين السيد شارتش في الطابق الثاني؟ لقد مات أخيراً».

«ما سبب موته؟».

«سكتة قلبية».

«يؤسفني سماع ذلك».

«وعائلة بوشيفيتش في الطابق الثامن - لقد فقدوا ابنهم».

«ما الذي حدث؟».

«كان حادث سيارة. لن تستطيعي التعرف على السيدة بوشيفيتش. تبدو أكبر من عمرها بعشرين عاماً، إذ غزاها الشيب بين ليلة وضحاها. ولكن أصغي إلي، فأنا لم أخبرك إلا بالأشياء الحزينة، وما زال في جعبتي أخبار سارة أيضاً.

لقد كانت تختبرني، وتجس وضيي العاطفي. هل سيكون ذلك مقبولا أم سيكون عليها أن تؤنبنني؟ («أنت لا تعيرين جيراننا أي اهتمام»، وكأنها كانت تفكر بهم طوال الوقت). لقد جاء هذا الاهتمام بالمشاعر مع التقدم بالعمر، فهي اعتادت أن تهزأ من الذين يعبرون عن عواطفهم.

انتصبت وغادرت الغرفة لبرهة قبل أن تعود بكراسة في يدها. وبفرحة طفل يريد أن يعرض لعبته الجديدة ناولتني دفتر «مذكراتها»، بدت في معظمها مجموعة من الأرقام.

«ما هذا؟».

«مذكراتي».

«ماذا؟».

«معلومات يومية عن مستوى السكر، فأنا مصابة بمرض السكر. على أن أقيس مستوى السكر يوميا».

«هل تعانيين من ذلك كثيرا؟».

«إلى حد ما. لكنني مواظبة على إبر الأنسولين».

«لماذا؟».

«يقول الطبيب إنه من الأفضل أن أبدأ بجرعات صغيرة بدل الانتظار حتى تظهر الحاجة إلى جرعات كبيرة».

كانت تتحدث عن المرض بدرجة عالية من الحميمية والتفهم والاهتمام، وكأنه كلب أو قط أليف تقتنيه في المنزل. كانت تشير بإصبع منتفخ قصير إلى التواريخ المختلفة مفسرة لماذا قفز مستوى السكر في بعض الفترات بينما عاد إلى المستوى الطبيعي في فترات أخرى.

قالت: «سأريك كيف أقوم بقياسه». ثم أضافت على عجل:

«كم ستقضين هنا؟»

«أسبوعا».

قالت وهي تزم شفيتها: «ستكونين مشغولة جدا».

«ماذا تقصدين؟».

«عليك أولا أن تحسلي على بطاقة هوية جديدة لسبب واحد. يوجد نظام جديد. طوابير الانتظار رهيبة. يقف الناس طوال اليوم. كنت قد أغمي علي تقريبا أثناء قيامي بذلك. ثم عليك الذهاب إلى محام بشأن شقتك، وعليك أيضا الحصول على بطاقة جديدة للتأمين الصحي. هناك نظام جديد لهذا أيضا. إنهم يغيرون القوانين باستمرار».

أجل، فهذه الثرثرة المستمرة تعد إشارة إلى أنها تعلمت كيف توظف الكلمات كقناع تغطي به خوفها، على الرغم من الغموض الذي يلف ذلك.

عندما فتحت الدرج في خزانة الأواني الصينية لتريني شكل الهويات الجديدة، رأيت صورة لي ولجوران في برلين، في المكان الذي احتفظت فيه بصور العائلة.

قالت وهي تتابع نظراتي: «ينبغي أن تقومي بزيارة والدي جوران. إن ماركوس ليس بحالة مطمئنة».

نظفنا طاولة الطعام وغسلنا الأواني. ثم فتحت الحقائق وأعطيتها الهدية التي أحضرتها لها، وهي معطف شتوي للاستخدام داخل المنزل، وأخفاف. وأثناء وضعها للمعطف في خزانة الملابس، أررتي الملابس التي ابتاعتها منذ آخر مرة رأيتهما. «لقد ابتعت عددا ليس بالقليل من الأشياء الجديدة، وليس عندي أي مكان أذهب إليه لأتباهى بها». تهتدت قبل أن تقول: «ارتديت هذه القطعة مرة واحدة فقط، في عيد ميلادي».

بعد ذلك جلسنا نشاهد المسلسل التلفزيوني البرازيلي. كانت أمي تحاول دون جدوى أن تجذب انتباهي إلى قصة المسلسل. كان جلوسها أمام الشاشة لساعات طويلة ومتابعتها لمصير ماريسول، وكساندرا أو أيا كانت الأسماء - كان ذلك مثله مثل الثرثرة، استراتيجية للدفاع عن الذات. كان لديها ثلاثة أجهزة للتلفاز - واحد في غرفة النوم، والثاني في غرفة المعيشة، والثالث في ما سمته «غرفة الضيوف»، هذا الانغماس الكامل في عالم المسلسلات التافهة، هذه الهستيريا، والغيوبة التلفزيونية، وهذا

الرفض المطلق لمواجهة الواقع، كلها جاءت مع الحرب، عندما انسل الواقع خفية إلى داخل المنازل على شكل ترجمات تلفزيونية تافهة، بل إنها أكثر تافهة من كلام «ماريسول» أو «كساندرا» في أدوارهما. تلك كانت كامل المساحة التي سمح بها، إذ أصبحت المسلسلات التلفزيونية الماء الذي استخدم في إطفاء نار الخوف، والذي كان ينبغي استخدامه مرتين يومياً في معية الأصدقاء، ليعطي مفعوله. كانت أمي تشاهد المسلسلات في معية اثنتين من جاراتها: فاندا، والسيدة بودين، إذ أصبح ذلك المخدر البرازيلي إدماناً بالنسبة لهن.

غدت أمي، التي كانت تتكلم عند مجرد التفكير بالتودد للجيران، لا تستطيع التوقف عن التحدث عنهم، وأصبح بمقدوري معرفة مكانتهم العاطفية عندها من خلال طريقتها بالإشارة إليهم. فإذا ما أشارت إليهم «بالسيد»، و«بالسيدة»، («تقول السيدة فرانسيتش في الطابق الخامس إن البترول الكرواتي قد بيع إلى الأمريكان»)، أعرف أن لها علاقة طيبة بهم. وإذا ما أشارت إليهم «بجيراني» («جرتي فاندا متشوقة لرؤيتك»)، أعرف أن لها علاقة حميمة بهم. أما إذا أشارت إليهم باسم العائلة فقط («ماركوفتش في الطابق الثالث في حالة سكر طوال الوقت»)، أعرف أنهم من غير المحبين لها. لقد كنت تدريجياً عائلة لها من الناس الذين حولها. («قد لا يكون هناك أشخاص ذوي شأن، لكن المتسولين لا يمكن أن يختاروا. ليس لمن في عمري. فإذا ما حدث شيء لي، فسيكونون موجودين حولي، بينما أنت»)، كان ذلك أهم اتهام يمكن أن توجهه لي، فوالداها

قضايا منذ زمن بعيد، وشقيقتها مات منذ عشر سنوات، وزوجها قتل في بداية الحرب، ثم جاء سفري لأبقى بعيدة عنها. كانت تصدق أنها لم يعد لديها آراء، وهي التي كانت في الماضي لها رأي في كل شيء. بينما كانت في الماضي لا تغير اهتماما كبيرا لآراء الآخرين، بدت الآن شغوفة بها («تقول السيدة فيريتش إن أمستردام أصغر من زغرب»)، طبعاً، كان الأمر تمثيلية برمته. كان الأمر وكأنها تجلس في كرسي متحرك غير مرئي، طالبة الاحترام لحالة إعاقتها، ومانحة رضاها عمّن يتجاوب معها.

قالت: «ستأتي فاندنا في الساعة الخامسة. ربما تريدان الاستحمام وتغيير ملابسك».

امتلئت فوراً للذهاب إلى الحمام للاستحمام وتغيير الملابس. بينما كنا ثلاثتنا نشرب القهوة، تلت أُمي على فاندنا تقريراً مشوقاً حول حياتي في أمستردام.

تقول تانيكا إن أمستردام واحدة من أجمل مدن الدنيا. لقد شاهدت أخيراً برنامجاً تلفزيونياً وثائقياً عنها، وأستطيع القول إنها أجمل حتى من مدينة البندقية.

تانيكا تقول هذا، وتانيكا تقول ذاك. مثل الأمر طريقة للتواصل معي وطريقة لمتابعة الدردشة مع فاندنا على حد سواء. بعد أن ذهبت فاندنا، تجولت في الشقة. امتدحت الخزانة الجديدة في الحمام ولفت نظر أُمي لضرورة فعل شيء فيما يتعلق بالبقع الصفراء في سقف الحمام. رفعت رأسها. كان السبب تسرباً من حمام عائلة آيفتش، ولم يكونوا في عجلة من

أمرهم بشأن إصلاحه. هكذا كان الناس في الماضي، وما زالوا كذلك، فهم يتسببون بالإيذاء، ثم ينكرون أي علاقة لهم بذلك. قلت: «سأتولى أمر هذه المشكلة».

توردت تقريبا من الفرح، وكأن عرضي عرض للزواج. فأنا من سيتولى الأمور، وأقوم بما ينبغي القيام به، أعتني بها. («لقد جاءت تانيكا وتولت الأمور، شكرا لله. شكرا على أي حال، فتانيكا هي من ستتدبر الأمر»).

شاهدنا نشرة الأخبار وتحدثت لي بإسهاب عن كل ما يتعلق بالتلفاز: عن مذيعة الأخبار، وعن المقدم الشهير لبرنامج المسابقات، وعن المسلسلات الجديدة.

قالت: «أنت منقطعة عما يجري بالكامل. يبدو وكأنك قد غبت مائة عام». لم تكن تلك تهمة، بل حجة من أجل ولوج حديث مطول. وقد كانت محقة. فأنا كنت منقطعة تماما عن مشاهدة التلفاز. على الأقل بدت الحياة على شاشة التلفاز مختلفة بالكامل.

تهددت فجأة: «لا أعرف ماذا أفعل. لقد ارتفعت تكاليف الحياة كثيرا. ليس لدي إلا ما أتقاضاه من راتب التقاعد الضئيل، وينتابني القلق حتى حول مقدرتي علي تدبير الأمور. وقد أضطر لبيع الكوخ الريفي».

«امض في الأمر».

سألتني: «تقصدين أنك لن تنزعجي من ذلك؟».

كانت تختبرني مرة أخرى.

أجبتها: «لا يمكنني القول إنني لن أنزعج. لكن افعلي ذلك إن كنت تعتقدين أنه الحل المناسب».

«لكنه لك!».

قلت :«كلا، إنه لك أنت».

«إنه يقبع هناك طوال فترة الصيف دون أن نستخدمه. اعتقدت أنك وجوران ستعودان يوما وتحتاجان إلى مكان على البحر، مكان تقضيان فيه الصيف معا. لكن هذا الكلام لا يجدي نفعا الآن. أكره أن أرى ذلك الكوخ قابعا هناك هكذا».

كانت تزين القصة بعض الشيء. فأنا وجوران لم نستخدم ذلك الكوخ إلا نادرا. كانت العائلة هذا الوتر الذي طالما عزفت عليه. هي من كانت تقضي الصيف تلو الآخر هناك مع زوجها، حتى جاءتة الأزمة القلبية وهما في الكوخ، وقد نأت بنفسها عن المكان منذ ذلك الوقت. في الحقيقة يقبع الكوخ هناك لهذا السبب فقط.

بعد المزيد من الحديث عن التلفاز مرة أخرى، وارتفاع الأسعار، قالت إنها متعبة، وذهبت للنوم. سرعان ما غرقت في نومها مثل طفل. أطفأت التلفاز والنور وذهبت إلى غرفتي، وهي «غرفة الضيوف».

وضعت وشاحا صوفيا يعود إليها على كتفي وخرجت إلى الشرفة، ورحت أحملق في الظلمة. فكرت بالنزr اليسير الذي بقي مني في هذا المكان، بعض الصور، وبعض الملابس، ليس إلا. الأمر ليس أن ذلك أوجعني. لماذا ينبغي أن أتوقع أكثر من ذلك؟ لطالما نلت مجرد النزr اليسير عندما كنا نعيش معا: فهي من كانت تحصل على حصة الأسد، وكنت دائما أحشر في زاوية ما.

والآن أنا موجودة في شظايا مجمدة تم اختيارها بعناية. هي من لها السلطة المطلقة في محيطها، فهي ترتب وتعيد ترتيب المحتويات وكأن الحياة معرضا للصور. كان سبب احتفاظها بصورتي مع جوران هو إبقاء العلاقة حية، فهي في دورها كمدير لأموال العائلة رفضت أن تعترف بانفصالنا.

نعم، لقد عدت إلى «المنزل»، ومازلت أمضغ ذلك الشعور مثل قطعة علك قديمة في محاولة لاستخراج آخر ما بقي من نكهتها. «المنزل» لم يعد «المنزل» الذي أعرفه، فكل ما بقي منه هو أمي. لم يغب جوران فقط، بل أصدقاءنا أيضا. العديد منهم رحل إلى أماكن بعيدة في العالم، ومن بقوا لم يعودوا بعد أصدقاء. لم يكن لي أو لهم أي خيار في ذلك، فالأمر حدث وحسب.

متفحصة المباني التي بدت وكأنها تنظر إلى انعكاسها في مرآة الماضي، حاولت أن أفرغ ذهني. استمتعت بغرق في الظلمة. ثم أويت إلى الفراش جارة وشاح أمي ورائي. غرقت في النوم ضامة ذلك الوشاح بين ذراعي وكأنه لعبة «الدبodob».

قالت ميلليها: «بعد رحيلي، لم أستطع حقا أن أربط الأمور معا بتاتا. لم أكن متأكدة من الوقت، أتعرفون ما أقصد؟».

كان الزمن بالنسبة إليهم مقسما إلى ما «قبل» وما «بعد» الحرب، وبينما كانت باستطاعتهم إعادة تشكيل فترة «ما قبل الحرب» دون صعوبة، فإن فترة «ما بعد الحرب»، والتي ضمت الحرب نفسها، كانت فوضى تامة. كانت أسئلة كفيلة بجعلهم يتعثرون.

«هل تعني متى غادرت الوطن؟».



تلك كانت الطريقة التي وضعوها، مختزلين، الأمر للقاسم المشترك الأدنى.  
«بالضبط».

«حسنًا. لم آت إلى هنا مباشرة».

هذا ما حدث أولاً، أم ذاك. بداية فعلوا ذلك وذهبوا هناك، وبعد ذلك جاءوا إلى هنا، إلى هولندا. خلت قصص المنفى من التاريخ. كانت التواريخ تسترجع بسهولة أكثر باللغة الهولندية لكثرة طلبها من المسؤولين الهولنديين. «متى أول مرة دخلت فيها إلى هولندا؟»، وعلى الرغم من درجة إتقانهم العالية للإجابة عن ذلك السؤال، كان المضمون الكامن وراءه يهرب منهم. كان «ما بعد الحرب»، زمننا أسطوريا حيث لم يعد هناك فرق إن مر مائة عام، أو مائتان، أو ثلاثمائة. باختصار، لقد حدث الكثير من الأشياء في فترة «ما بعد الحرب»، فجنت ساعاتهم العقلية في ظل التوتر. كل شيء جن، كل شيء تصدع، وقطع أربا. انقسم المكان والزمان إلى ما «قبل» و «ما بعد»، وحياتهم إلى «هنا» و«هناك»، أمسوا فجأة دون شهود، ودون والدين، ودون عائلة، ودون أصدقاء، وحتى دون المعارف اليوميين الذين نعيد تشكيل حياتنا في ضوء وجودهم باستمرار، وبافتقارهم إلى هؤلاء الوسطاء الفاعلين الحقيقيين، أعيدوا إلى أنفسهم.

كان الشعور الذي تولد عندي لدى دخولي الغرفة هو أنهم أوقفوا عقارب الساعة بكامل إرادتهم. لقد حاولوا إغرائني بولوج عالمهم من أجل تأجيل مسألة التفكير بالموت. لكن الموت كان

يحيط بهم من كل صوب، لقد كان شبحا متواريا. حتى الهواء نفسه كان ينفث رائحة الموت الكريهة.

كان بابا (والد جوران) يرتدي بيجاما، وبرنس حمام متجعد مفكوك الحزام. برز أنبوب للقسطرة من سحب البيجاما المفتوح. أدهشني ما يرمز إليه ذلك من أنه لم يعد يسيطر على نفسه. بالكاد استطعت أن أعرفه بجسمه النحيل، ووجهه غير الحليق وبشرته الشاحبة، والبقع السوداء الدائرية تحت العينين. بدت ماما (والدة جوران) في وضع أفضل منه، إذ كانت ترتدي بلوزة جميلة، وزينت شففتيها بأحمر الشفاه. لقد تأثرت بمحاولتها أن تريني أنها على الأقل لم تزل تمسك بزمام الأمور.

كنت أناديهما بماما وبابا. عملت أولجا، وماركو في سلك التعليم. جاءت ولادة جوران في مرحلة متأخرة من زواجهما. تخرج بابا في كلية تدريب المعلمين قبيل اندلاع الحرب، وانضم إلى الثوار. بعد انتهاء الحرب حصل على وظيفة مهمة في وزارة التربية الكرواتية. في العام ١٩٤٨ ارتكب زلة لسان سياسية، ومثل كثيرين غيره، تم ترحيله إلى جزيرة «جولي أوتوك»، الجزيرة القاحلة، حيث قضى ثلاث سنين في الأشغال الشاقة. وبعد إطلاق سراحه، أرسل إلى مدرسة ابتدائية في قرية صغيرة نائية. لم يستطع العودة إلى «زغرب» إلا عندما دخل جوران الجامعة.

تميز بابا دائما بالإيجاز، والتحفظ، فقد تعلم في تلك الجزيرة كيف يبقي فمه مغلقا. كان ذكر معسكرات الاعتقال، وفضائنها محرما حتى السبعينيات، ولم يقل عنها الكثير حتى في تلك

الفترة. لذا، لاذ بابا بالصمت طوال حياته تقريبا. ومع ذلك، كان مستمعا جيدا، ويطرح الأسئلة المناسبة. لم يكن يستعرض في حبه لجوران إلا قليلا، بدا وكأنه ترك تلك الوظيفة لماما. أعتقد أنه قد أحبني أيضا، بطريقة الخاصة.

فجأة لم يكن بمقدورك أن تحصل على كلمة واحدة من جانبه، فهو يتحدث من دون توقف طارحا الأسئلة ومجيبا عنها في الوقت نفسه.

«سمعت أنك تقومين بالتدريس. هل لديك العديد من الطلبة؟ مازلت أحاول إحصاء عدد التلاميذ الذين علمتهم خلال الثلاثين سنة التي عملت فيها كمعلم، وهذا ينسحب على أولجا أيضا. لا أستطيع أن أحدد كمية الوقت الهائل الذي صرفناه في ذلك، وصدقي أو لا تصدقي أننا لم نصل إلى أي نتيجة. لذلك قلت لأولجا، يا أولجا، إن لدينا عالم رياضيات في العائلة، أليس كذلك؟ اكتبي إليه واطلبي منه أن يقوم بالحسابات».

قالت ماما: «دعك من ذلك الآن. ثم التفتت نحوي وسحبتني قائلة: «تعالى وساعديني في المطبخ، من فضلك يا تانيا!». همست: «الآن ترين كيف تجري الأمور هنا». لم أعلق على ذلك.

«كلام، كلام، كلام. من دون توقف. لقد توقفت عن الإصغاء له».

«لماذا يستخدم أنبوب القسطرة؟».

«لا تسألني. إنه مجرد... أحضري البسكويت من حجرة المؤن، من فضلك!».

لقد تأثرت برغبتها في مشاركة أسرارها معي. فتحت أبواب الخزانة التي بجلتها باسم «حجرة المؤمن»، أدهشني وجود غلاف مجلة ملصق بطريقة يعوزها الإتيقان على الباب. ظهر في الغلاف صورة تيتو في زي الماريشال. كنت أعتقد أن ماما وبابا يكرهان تيتو بالرغم من أنهما لم يصرحا بذلك. والآن نجد «شانق» بابا مسترخيا في النعيم بين مؤنهم المتواضعة من أرز، ودقيق، وبصل، وبطاطس. لقد قرروا أن يعيدوا تأهيله، في حجرة ماما للمؤمن. من الواضح أنهم كانوا يفضلون سنوات حكم تيتو على الوضع الحالي، بالرغم من أنهم لم يجرؤوا على التصريح بذلك علنا، تماما مثلما لم يجرؤوا على التصريح بالعديد من الأشياء في عهد تيتو. سألتها وأنا أنزل الصندوق المعدني الذي يظهر عليه صور الكعك: «متى بدأت الثروة القسرية عنده؟».

«لا أستطيع تحديد ذلك، فقد بدأ بالتدريج. لكن أخيرا كان لا بد من أن ألاحظ ذلك. فهو يتحدث للجدران عندما لا أكون في الغرفة. إنه يستمر في الكلام، ليس إلا. لم يعد بمقدوري تحمل ذلك. هذا يتجاوز قدرتي، فقد سمعته ألف مرة، حتى إنني أتخيل سماعه يتمم في نومه»، قضمت شفرتها وأضافت: «أتمنى أن ينتهي هذا في أقرب وقت».

«ماذا عن جوران؟ هل يعرف بهذا الأمر؟ كيف حاله، بالمناسبة؟».

«يمكنك الاطلاع على رسائله إن أردت».

«لا. ما نفع ذلك؟».

غادرت الغرفة لبرهة، ثم عادت ويدها صورة.  
«ينبغي ألا أريك هذا، ولكن ربما من الأفضل أن تعرفي».   
ناولتني الصورة التي ظهر فيها جوران مع امرأة يابانية.  
قلت: «جميلة».  
قالت بارتياح: «اسمها هيتو. أنا وبابا ندعوها تيتو، على سبيل  
المزاح. تبدو جميلة، أليس كذلك؟».  
عندما نظرت إلى الصورة مرة أخرى، شعرت بوخز من الغيرة.  
تتهدت ماما.  
«الحياة تستمر يا تانيا. لكن ليس لنا، فقد عشنا ما يكفي.  
لكن أنتم أيها الشباب تستحقون حياة أفضل، تخبرني أمك أنك  
على خير ما يرام في أمستردام».  
«إنني كذلك».  
«كنت دائما الأولى في صفك».  
شعرت بأنها أرادت قول شيء آخر - قول، أنها كانت  
«بجانبى»، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات للتعبير عن ذلك.  
«حزن جوران كثيرا عندما رفضت الذهاب معه».  
«أعرف ذلك».  
«الزمن يداوي كل الجراح، لحسن الحظ».  
ظهر بابا عند الباب.  
«ما الأسرار التي تتحدثان عنها هنا؟ لا أحب أن أترك وحيدا.  
وماذا تقصدين بقولك «الزمن يداوي كل الجراح»، أنتن أيتها  
النسوة تتعلمن شيئا ما وترددنه كاللبغاء في كل مكان. الزمن لا  
يداوي الجراح، إنه يصنعها».

قالت له، وكأنها تتحدث إلى طفل: «أنت تفرط في قراءة الروايات».

عدنا إلى غرفة المعيشة، وتناولنا بعض القهوة. فتحت ماما صندوق الكعك. كان الكعك قد صنع في يوغسلافيا السابقة، فكان قديما جدا لدرجة أنه فقد نكهته بالكامل.

استمر بابا في الثثرة. ومن وقت لآخر، كانت ماما تطلق ذراعا في الهواء وكأنها تطارد الذباب. ثم نهضت وفتحت التلفاز. بدأ بابا يتذمر من أنها لم تعد تصغي إليه، بل إنها لم تصغ إليه قط، إذ كان شغلها الشاغل ذلك الصندوق التافه. خفضت ماما صوت التلفاز، إذ كانت تشاهد مسلسلا مترجما، ولم تكن بحاجة إلى الصوت.

عندما جلست بنظري في الغرفة، انتابني شعور بأن الأشياء قد تقلصت. بدت ماما وبابا أصغر من حجمهما الطبيعي. بدا كل شيء أكثر قدما أيضا، وبدت الأشياء رمادية ورثة، أشبه ما تكون بالنبذة الاصطناعية المكسوة بالغبار التي تقبع في الزاوية.

غمرت كلمات بابا الغرفة، كانت تصفي الحسابات وتبرر الأفعال وتعبر عن الغضب والاحتجاج. يكاد أن يكون لكلماته واقعا فسيولوجيا، إذ جاءت في مرحلة متقدمة من العمر، وفي غياب السيطرة على عمل المثانة. لم يكن يدرك أن الكلام يتدفق منه هكذا.

لم أدرك كم مضى من الوقت، لكن عند نقطة ما وقفت وكأني أصحو من حلم.

قلت: «حان وقت الذهاب. ستصنع أمي العشاء لي الليلة».

لم يحاولا تثبي عن الذهاب.

قالت ماما معتذرة: «حسنًا، أنت تعرفين الآن أي حياة نعيش هنا». صاح زاجرا: «ما المشكلة في حياتنا! نحن نعيش أفضل من الناس في أماكن كثيرة. لولا أن الأمور أخذت منعطفًا آخر، لكننا نعيش أفضل من الأمريكيان».

ذهب بابا، وهو يلتقط أنفاسه، وأخرج ثلاث كراسيات من تحت المنضدة التي وضع عليها التلفاز. كانت كراسيات من القطع الكبير، ومثبتة يدويا.

قال لي: «ها هي، ألقى نظرة على هذه. إنها كتاباتي». قبلت كليهما عند الباب. من الواضح أن بابا لم يرق له ذلك، إذ أفشلت شفثاه كل محاولاته لرسم ابتسامة. ذلك التعبير جعله يبدو كطفل تم التخلي عنه يبذل ما في وسعه للتغلب على تجاهله. لا بد أنه كان التعبير الذي بدا على وجهي عندما وصلت إلى المطار.

راقبتها وهي تخز إصبعها بإبرة وتسحب نقطة من الدم عبر قطارة صغيرة، ومن ثم تدخل القطارة بيدها المرتجفة عبر فتحة جهاز صغير، متتبعة الأرقام الظاهرة وتسجلها بعناية في دفتر يوميات مرض السكر: مسجلة التاريخ، والساعة، ومستوى السكر في الدم. راقبتها تلقي نظرة قلقة باتجاه ساعة الحائط وتفتح الثلاجة، ثم تخرج تجهيزات الإفطار وتضع كل شيء بإتقان على الطاولة: طبقين، وكوبين، وملعقتين، ومنديلين.

«اصنعي القهوة لنفسك. أنا لا أشربها بسبب مرض السكر». سكبت بعض القهوة في حليب بارد.

«سخني الحليب. ألا تريدان تناول الإفطار؟».

«لا أستطيع».

تهتدت قائلة: «علي تناول الإفطار، فلا بد من أخذ وجبات منتظمة في أوقات منتظمة. هكذا يتم التعامل مع مرض السكر». راقبتها تفتت الخبز بأصابعها كما يفعل الأطفال، وهذه عادة أخرى من عاداتها.

قالت فجأة من دون تفكير: «أنت تراقبينني. أشعر وكأنني خنزير غينيا».

«ماذا تقصدين؟».

قالت مستخدمة ضمير الجمع: «أنت تراقبينني منذ أول يوم وصلت فيه إلى هنا».

قلت: «هذا ليس صحيحا».

التقطت كسرة طرية من الخبز وجعلت تعجنها مشكلة كرة منها. شعرت بغصة في حنجرتي. أوشكت على البكاء. وكانت ستبكي هي أيضا لو حدث ذلك.

«هذا يجعلني أشعر بأنك تلوميني لشيء ما. أنتِ تظنين أنني السبب وراء ترك جوران لك».

رحت أكرر لنفسني: «يجب ألا أسمح لنفسني بالوقوع في هذا الشرك. يجب ألا أسمح لنفسني بالوقوع في هذا الشرك».

قلت بكل ما أوتيت من رباطة جأش: «بعد الإفطار سنحزم متاع السفر ونتصل بسيارة أجرة». لاحظت أنني أيضا استخدمت ضمير الجمع.

سألت، منتقلة إلى مزاج الهجوم: «التوقيت في أمستردام هو



التوقيت نفسه في زغرب، أليس كذلك؟».

«طبعاً إنه كذلك. أنت تعرفين هذا».

«إذن الساعة الآن الثامنة والنصف هناك؟».

«هذا صحيح، مع أننا نقولها بشكل مختلف في اللغة

الهولندية».

«لا أعرف لماذا، ولكنني اعتقدت أن الوقت هناك يسبقنا

بساعة واحدة».

«كلا، إنه التوقيت نفسه».

تهتدت، ثم اضافت: «حسناً، ينبغي أن تعرفي، لا أستطيع

القول إنني مرتاحة لوجودك هناك».

«لماذا؟».

«تلك القنوات، أراهن أنها كريهة الرائحة».

«لا، أبداً».

«لكن مياهها راكدة. لا بد أنه تفوح منها رائحة كريهة».

«من الغرابة بمكان أن هذا لا يحدث».

«حسناً، من جانبي لا أود العيش هناك حتى لو دفعت لي

راتباً».

«لم لا؟».

«لأن المطر لا يتوقف هناك أبداً، والقنوات تعج بالجرذان التي

تسبح فيها».

«ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟».

كذبت قائلة: «شاهدت ذلك على التلفاز».

«أنا لم أر جرذا واحداً».

«أنت لا ترين شيئاً . تفكيرك دائماً فوق السحاب».

فكرت في أن ما تقوم به هو من انفطار القلب. الحاجة إلى مضايقتي وأنا على وشك الرحيل. لقد كنت أتركها، وكان عليها إيجاد طريقة لمعاقبتي. في الماضي كان مثل هذا الشيء يدفعني للبكاء، ولكنني تعلمت كيف أحمي نفسي. الآن تمر هذه الأشياء مثلما يمر الماء على ظهر بطة.

قلت، وقد نهضت متجهة إلى غرفتي: «سأحزم حقائبي».

تبعثني إلى الغرفة.

«أتريد أن أأخذ أي شيء كذكارة».

«مثل ماذا؟».

«لا أعرف. لدي بعض مربى الخوخ المصنوع في المنزل».

«أأنت من صنع مربى الخوخ؟».

«لا، إنها السيدة بودين. ولا أستطيع تناولها بسبب مرض

السكر».

قلت لإسعادها: «إذن سأأخذها».

أحضرت جرة زجاجية في كيس بلاستيكي.

قالت وهي تعيد ترتيب الملابس في الحقيبة: «يا إلهي، ألم

تتعلمي كيف تحزمين الحقائب بعد؟ لفي حولها بلوزة، أو أي شيء

آخر لئلا تنكسر. هل هناك شيء آخر؟ أي شيء من أغراضك؟».

قلت وأنا أغلق سحاب الحقيبة: «لست بحاجة إلى أي شيء

آخر، يا أمي». نظرت إلى ساعتني ووجدت أنه لم يزل هناك

متسع من الوقت. «يمكنك أن تتصرفي فيما بقي من أغراضي.

قد تستفيد منها فاندًا».

«عندما أعود إلى الوطن، أشعر وكأنني أشيع جنازتي» (حسب نيفينا).

تجاهلت ما قلته عن قصد.، صنعت فنجان قهوة آخر لنفسي. سألتني: «كيف تستطيعين شرب تلك القهوة باردة؟ دعيني أسخنها لك».

«أحبها باردة».

«لطالما كان لك رأيك الخاص في الأمور، لماذا لم تتصلي بسيارة الأجرة؟».

«ما زال هناك متسع من الوقت».

«تتأخر سيارات الأجرة كثيرا في الوصول إلى هنا».

«ثمة الكثير من الوقت».

نظرت إلي، ثم خفضت عيناها. كان كلانا يكد في البحث عن أرض محايدة.

عرضت علي: «دعيني أقيس ضغط الدم عندك. أراهن أنك لم تقومي بقياسه من قبل قط».

قلت، على الرغم من انحباس أنفاسي من وقع المفاجأة: «هذه فكرة جيدة».

«عندما أعود إلى الوطن، أشعر وكأنني كيس للتدريب على الملاكمة، إذ أتوجع في كل أنحاء جسمي» (حسب بوبان).

أحضرت كيسا بلاستيكيًا، وبغناية أخرجت منه جهازا لقياس ضغط الدم. لفت الشريحة حول ذراعي الأيسر، وضغطت على الزر بيدها الأخرى. راقبت الأرقام تتغير بسرعة حتى استقرت مع أزيز الجهاز. لم تستغرق العملية أكثر من دقيقة. قالت، وقد

بدا عليها بعض الذهول، لكنها احتفظت بهدوئها: «ضغط الدم عندك طبيعي».

رفعت عينيها لتلاقيا عيني.

«كان مجرد فحص عادي»، سارعت للقول مثل طفل مدان بالكذب. «أردت أن أرى إن كان الجهاز يعمل. الآن أعطني ذراعك».

أعطيتها ذراعي. أمسكت أصابعها المنتفخة، بسبب تقدمها بالعمر، بذراعي ولفت الشريحة حول الجزء العلوي منه. كان الجهاز في حضنها. أمسكته بكلتا يديها، ثم ضغطت على الزر فظهر رقم ثمانية مكررا ثلاث مرات. عندما اختفت الأرقام، ضغطت بعناية على زر التشغيل. لم تنبس بينت شفة. شعرت بانتفاخ في ذراعي. أصغينا إلى أزيز الجهاز وتتبعنا الأرقام وهي ترتفع وتنخفض في المقياس. عندما استقرت الأرقام، تولدت لدي رغبة مفاجئة بالبقاء في تلك الحالة، كما كنت وإلى الأبد. قالت وهي تنزع الشريحة: «أنت طبيعية! لا داعي للقلق إطلاقا».

تلك كانت قبلة الوداع بيننا. فقد كان جهاز قياس الضغط بديلا مرثيا لشيء غير مرئي، وهو حبل سري مخضب بالدماء، نضر، ولامع مثل سلك معدني. كان ضغطنا طبيعيا، ونبضات قلبينا منتظمة. في تلك اللحظة، كنا قد بحنا لبعضنا بكل شيء كان علينا قوله.

اتصلت بسيارة الأجرة التي جاءت على الفور. اصطحبتني إلى المصعد. قبلتها على خدها. أخذت نفسا عميقا واستنشقت

رائحة بشرتها وولجت المصعد دون زفرها .

«أحبك!»، قالتها فجأة بالإنجليزية. لا بد أنها تعلمت تلك العبارة، ونغمتها من الأفلام الأمريكية التي كانت تشاهدها على التلفاز. حركت تلك العبارة مشاعري، فهي لم تخاطبني بتلك العبارة الإنجليزية من قبل. والآن أتت تلك العبارة ربما بصوت أجش، لكنها كانت مفعمة بكل ما أرادت قوله ولم تعرف إليه سبيلا. لقد ولجت تلك العبارة مباشرة إلى أعماقي، وانهرت في داخلي.

كان بمقدوري أن أراها من خلال النافذة الضيقة في باب المصعد وهي تلمس خدها بيدها. لا بد أنها كانت تسمح دمة ذرفتها. وعندما ضغطت على الزر، كان باستطاعتي أن أسمعها تهرول عائدة في شبشبها.

«أحبك»، كنت أظن أنني أغنيها لها، ولكنها خرجت من شفتي أشبه ما تكون بنشيج.

ابتعت بضع علب من أنواع الشوكولاتة التي أوصيت أن أحضرها معي من السوق الحرة في المطار. كانت علب الشوكولاتة الكرواتية الشهيرة المسماة «كراش» مزخرفة بشعار النبالة الكرواتي، ومصممة بطريقة لتشبه جواز السفر الكرواتي الجديد.

بعد إقلاع الطائرة شعرت بإحساس غامض من الارتياح. بينما كنت أتصفح المجلة الموجودة على متن الطائرة، تمعنت في قائمة وجهات الرحلات الجوية، ثم انتقلت إلى الغوص في المقالات التي تتناول نبات الفطر «الأستيري»، وحسناوات «كوتشولا»، والسيرة

الباهرة لعازف البيانو «أيفو بوغوريلنتش»، وآخر نجاحات بطل كرة المضرب «جوران إيفانسيفتش».

لم أنجز أي شيء في الأيام السبعة التي قضيتها في «زغرب». لم أحصل على هوية جديدة: لم أتصل بمحام. طبعاً، كانت الشقة قضية خاسرة: فهناك آلاف القضايا المشابهة، علماً أنني لم أكن مغرمة بالأشياء التي نتركها وراءنا. صحيح، أنا أشتاق إلى الكتب التي تعود إليّ، ولجوران، ولكن حتى لو وافق الساكن الحالي على إعادتها، فلن أجد مكاناً لها.

ومع كل هذا، فقد أقنعت القاطنين في الشقة التي تقع فوق شقة أُمِّي بأن يجدوا عاملاً حرفياً لإزالة البقعة الصفراء المنفرة من على سقف الحمام من تحتهم. كذلك تركت بعض النقود لأُمِّي لأشياء طارئة مشابهة، واشترت لها حنفية للحوض. شاهدت أثناء السبعة أيام في «زغرب» سبعة مسلسلات برازيلية. حفظت أسماء أفراد العائلات الممتدة للممثلين. كان، على الأقل، واحد من أجهزة التلفاز الثلاثة شغلاً من لحظة نهوضها من الفراش.

قالت بطريقة تبرر نفسها: «هذا يشعرني بأنني لست وحدي هنا».

«لماذا لا تقرئين؟»

«لا أستطيع. القراءة متعبة لعيني».

«أحصلني على نظارات جديدة».

«لقد فعلت، لكن ذلك لم يحل المشكلة. يبدو الأمر كأن هناك

رملاً في عيني».

لم أجر أي مكالمة هاتفية، إذ لم يكن ثمة من اتصل به. كنت أتصفح الأرقام في دفتر العناوين القديم، ومرة رفعت سماعة الهاتف وضغطت على أرقام هاتف صديق، لكنني أعدت السماعة إلى مكانها قبل أن يرد أحد. ذلك جعلني أشعر بالارتياح.

فكرت بأمي وكيف كانت تدافع عن حلبتها. ما كان يعنيها بالمقام الأول هو إزالة البقعة في سقف الحمام، وإصلاح الصنبور الذي يسرب الماء، والمحافظة على نظافة الستائر، وأن تأخذ الحياة مجراها الطبيعي. لكنها كانت مقاتلة أيضا، وقد وجدت عدوا، مرض السكر. لقد رفضت أن تعترف بأي عدو آخر، فقد غزاها الوهن الآن، وكانت ستخسر أي معركة أخرى. وهكذا حددت حلبتها، وتمتعت ببساطة مطلقة فيها.

كانت صورتني مع جوران في خزانة الأواني الخزفية في غرفة معيشة أُمي. رؤيتي للصورة هناك جعلتني أدرك الشبه بينها وبين عروض التذكارات التي رأيتها في غرف معيشة المهاجرين. لم تعبر عروض التذكارات في منازل المهاجرين عن حنين لحياة خلت أو حنين لوطن، بل على العكس من ذلك: فقد عبرت عن غياب ذلك الحنين. لقد شكلت تلك القلوب المصنوعة من خبز الزنجبيل، ومنافض السجائر على شكل أحذية الفلاحين، والقبعات الآتية من جزر الدما أو الجبل الأسود، والأشياء المطرزة والأشرطة الزينية المصنوعة يدويا، وقرعات الشراب المغطاة بالجلد، والأصداف الأديرياتيكية، شكلت أضرحة كثيرة جدا، قبورا صغيرة جدا تضع علامة لنهاية طريقة حياة، واختيارا صريحا لتقبل الخسارة واستعدادا لقبول النتائج المترتبة على ذلك الاختيار.

لم أستطع القول إنني قبلت بهذه الخسارة ونتائجها . ما يمكنني قوله هو أنه خلال الأسبوع الذي قضيته هناك كنت قلقة باستمرار . ليس نفس درجة القلق عندما أكون مع أمي مثلها عندما أكون خارج البيت . تجولت في شوارع «زغرب» بصفعة غير مرئية على وجهي ، متفحصة الأشياء بشيء من الارتياح مثل أرنب ، معانقة واجهات المباني بحثا عن الأمان . بدا كل شيء متعطلا ورماديا ، فالآن يعني نفسي ، الآن يعني أجنبي ، الآن يعني سابق .

لم أخبر أمي قط بأنني حاولت الحصول على هوية جديدة . الأمر كان ، أنني لم أستطع أن أجد المكتب المعني . وبالرغم من أنني كنت قد ذهبت إلى ذلك المبنى عدة مرات من قبل ، وبالرغم من أنني أعرف المنطقة عن قرب ، وبالرغم من أنني أملك حسا جيدا لتحديد الاتجاهات ، إلا أنني لم أتمكن من الوصول إلى المكان . عندما سألت عن المكان ، أشار الناس إلى اليسار ثم إلى اليمين ، إلا أنني لم أستطع الوصول إليه . بقيت أحوم في مساحة دائرة محددة - في محيط شارعين أو ثلاثة على الأكثر - حتى اجتاحني الفزع فجأة وانفجرت في البكاء . ظهرت إلى السطح صدمة المنفى ، صدمة الاختفاء المفاجئ لأم من محيط رؤية طفلها ، ظهرت إلى السطح في مكان لم أتوقعه - «في الوطن» ، حقيقة أنني ضللت الطريق في منطقة أعرفها كمعرفتي لأصابع يديّ قد ملأنتي رعبا .

سردت تلك القصة للمسافر الذي جلس إلى جانبي في الطائرة . كان من «زغرب» ، ويعمل مهندسا معماريا ، وقد يكون



تخرج قبلي ببضع سنوات. لقد ترك «زغرب» عام ١٩٩١، وهو في طريق عودته إلى أمريكا، حيث وجد عملا في شركة واستقر هناك.

«اعتقدت أنني فقدت عقلي».

رد قائلا: «لماذا؟ لديك أسباب وجيهة لأن تضلي الطريق. لقد تغير كثير من أسماء الشوارع».

«لكن الشوارع بقيت كما هي».

«ليس عندما تحمل أسماء جديدة».

«ومع ذلك، لا أصدق ما حدث».

«فقدان مؤقت للذاكرة. فقد حدثت تغيرات هائلة في فترة قصيرة جدا».

«ولكن كيف لي أن أضل الطريق في مدينتي؟».

«ماذا لو لم تعد زغرب مدينتك؟».

قلت بعناد، مصغية لسخافة ما أقول: «زغرب ستبقى مدينتي إلى الأبد».

«في المرة القادمة، حاولي تعلم أسماء الشوارع الجديدة، ستكون الأمور على ما يرام. ويمكنك تسريع هذه العملية بنسيان الأسماء القديمة».

«أتظن أن من السهل فعل ذلك؟».

«ليس سهلا بأي شكل من الأشكال. أستطيع أن أرى كم أنت منزعة من ذلك. كنت متضايقا أيضا، ولكنني تمكنت من التخلص من ذلك. أو، بالأحرى، اختفى ذلك مع مرور الوقت. لقد شطبونا، أنا، وأنت، وجميع من رحلوا. صحيح أننا مواطنون

غير فاعلين، لكننا لا نحسب. نحن أقلية مهمة. انظري، أنتِ قد عدتِ لفورك من الوطن، فهل تولد لديك الانطباع بأن الناس متضايقون خاصة من أحداث السنوات العشر الماضية؟  
«لا أعرف».

«لقد تنفس الناس الصعداء العام ١٩٩١، كانت الحياة في يوغسلافيا صعبة على معظم الناس، كلاب تأكل بعضها. ولكن كان دائما هناك هدف على المرء أن يسعى إليه: المستقبل المشرق أو الإصلاح بشكل أو بآخر. كان هناك أولئك الجيران الأشرار الذين يتلصصون لمعرفة إن كانت دجاجاتك تبيض أكثر من دجاجاتهم. لذا تنفس كثير من الناس الصعداء عندما انهارت يوغسلافيا القديمة: فقد أصبح بإمكانهم أن ينكشوا أنوفهم، أو يحكوا أردافهم، أو يرفعوا أرجلهم فوق المنضدة، أو يستمعوا إلى الموسيقى الصاخبة، أو يجلسوا فحسب ويشاهدوا الملاكمة. طرد الكروات الصرب، وطرد الصرب الكروات واعتدوا بالضرب على الألبان. أما البوسنيون المساكين - فقد شطبهم كل من الكروات والصرب، مثلنا نحن المهاجرين. صحيح أن المكان يعج بالمجرمين الآن، والمجرمون يستغلون الكثير من الناس، لكن الناس مازالوا يظنون أنهم أفضل حالا مما كانوا عليه من قبل: فالمجرمون على الأقل أصحاب عمل مستقل، ولا أحد يضع معايير مستحيلة. في النهاية، ينبغي أن يكونوا ممتين «لilusيفيتش»، فهو من سحب القابس عن يوغسلافيا. لم يكن أي أحد آخر يملك الشجاعة لفعل ذلك. كان الكل ينتظر تلك اللحظة».

«ولكن ماذا عن آثار الكارثة؟ المسؤولية عن كل ما حدث».

«لماذا تكثرين بذلك؟ وما جدوى طرح مثل هذه الأسئلة؟ انظري، خلال سنة أو سنتين لن يتذكر أحد «فوكوفار». أو حتى «سراييفو» لذلك السبب. ولا حتى الناس الذين يعيشون هناك. لذلك لا تتحيري. فالأمر لا يستأهل كل هذا، صدقيني». «لكنني حائرة».

«أخبريني، هل صادف أن قابلت أحدا من المهاجرين الذين رحلوا بعد الحرب العالمية الثانية؟ أو حتى ممن رحلوا بعد الحملة ضد القوميين العام ١٩٧١؟ لقد قابلت أناسا من هؤلاء. عندي عم في أمريكا، وقد قدمني إليهم. كان الأمر أشبه ما يكون بمقابلة الأشباح. كانوا يسترسلون بالحديث عن أشياء لا تتصل بحياتنا على الإطلاق. كان إدراكهم للزمن هو سبب ذلك. عندما ترحلين فإنك تغيرين ما هو أكثر من تغيير مكانك، فأنتِ تغيرين زمنك، زمنك الداخلي. الزمن في «زغرب» يمضي الآن بسرعة تفوق كثيرا سرعة زمنك الداخلي. أنتِ مازلت عالقة في إطار زمنك الغابر. أراهن أنك تظنين أن الحرب اندلعت أمس». قلت بانفعال: «إنها كذلك. وهي لم تنته بعد».

«حسنا، هذا ينطبق على الناس الذين لم يغادروا الوطن! إن «أمسك» هو تاريخهم الغابر. هل تتذكرين المهاجرين الذين سارعوا بالعودة من كندا، وأستراليا، وأوروبا الغربية، وأمريكا الجنوبية عندما أعلنت كرواتيا استقلالها؟ الكروات الذين حاولوا وصدقوا. أصبح من لبوا الدعوة المدوية «لتودجمان» يطلق عليهم المحتالون، وجحافل المحاربين القدماء، والقتلة، والفاشليين». «معروضات من متحف إقليمي».

«بالضبط. خلال بضع سنوات سنبذو مثلهم في أعين الناس الذين بقوا في الوطن. لذا، فأفضل شيء هو النسيان، نسيان كل شيء».

«إذن، من سيتذكر؟».

«لماذا، في رأيك، يخترع الناس بدائل رمزية؟ يفعلون ذلك لزيادة معاناة الآخرين وجعلهم يتذكرون بدلا منهم».

«لا أعرف إن كنت...».

«حسنا، دعيني أقل لك الآتي. ليس من السهل سرد قصتنا. حتى الأرقام تحكي قصصا مختلفة لأناس مختلفين. ما نعتبره طوفانا، يعتبره آخرون زخات من المطر: فمقتل مائة ألف شخص، أو تهجير مليون أو مليونين، أو اندلاع حريق هنا أو انفجار قنبلة هناك، أو بعض النهب، كلها مجرد أشياء تافهة! لقد قتل أكثر من ذلك في فيضانات الهند هذا العام فقط».

«لا بد أنك فقدت صوابك!».

«ليس للناس قدرة على احتمال المحن، صدقيني. هم لا يقدرّون على التوحد والمشاركة الوجدانية مع الكوارث الجماعية. ليس لفترة طويلة على الأقل، حتى لو أن الكارثة حلت بهم هم أنفسهم. لهذا لجأوا إلى الحل البديل».

«لا أفهم ما تقول».

«عدد الناس الذين يعلمون أن «إلفيس بريسلي» لم يعد له وجود بيننا أكبر من عدد أولئك الذين يعرفون أنه لم يعد لمكتبة سرايفو وجود بيننا. وهذا ينطبق على الضحايا المسلمين في مذبحة «سيربرينيتشا. يضع الناس الكوارث جانبا».

«إن ما تقوله مربع حقا».

«أنت لم تسمعي إلا القليل حتى الآن. إذا ما استرسلت في الحديث، ستتوقين إلى التخلص مني...».

تقاطع حديثه مع إعلان إحدى المضيفات بدء نزول الطائرة باتجاه أمستردام.

قال مبتسما ابتسامة ودية: «أنقذني الجرس».

(أشعر براحة أكثر عندما أتحدث بالهولندية. كانت «نيفينا» قد قالت ذلك، وكأن الهولندية كيس نوم).

قلت معلقة: «أشعر براحة أكثر وأنا في الجو».

تجاهل رفيق السفر تلك الملاحظة، وكأنه لم يستسغها.

كانت الرؤية ممتازة: فالجو صاف، والسماء زرقاء، والشمس مشرقة ساطعة. بدت الأرض من تحتنا كفطيرة المشروم، انقسمت إلى أجزاء رفيعة منتظمة، أشبه ما تكون بصورة هولندا. مثل الميدان الأبيض «لماليفيتش»، وعشرات الآلاف من الآثار الأدبية الهابطة. فجأة أدركت أنني لم أحتفظ ولو بصورة واحدة «لزغرب» في مخيلتي. حاولت جاهدة أن أستحضر شيئاً، لكن كل ما استطعت تجميعه كان سلسلة من الصور المشوشة، والغريب كفاية أنها كانت بالأبيض والأسود. إن لاوعيي لسبب ما نقل ملفات مدينتي «زغرب» إلى عصر ما قبل الألوان.

قلت، وقد التفت على نحو مفاجئ لجاري: «أخبرني. هل متجر «فارتيك» لا يزال في ميدان الجمهورية؟».

«تقصدين ميدان المحافظ يلاتشيتش».

«أيا كان الاسم».

«لا أعرف».

«كذلك أنا. لقد كنت هناك أمس، ولا أتذكر إن كنت رأيته».

قال: «لم أبتع شيئاً من ذلك المتجر قط. لماذا يزعجك هذا الأمر كثيراً؟».

قلت: «إنني أنزعج وحسب».



# الجزء الثالث





انفجرت قنبلة يدوية بين  
 الصبي اليافع وأبيه. يا له من مشهد!  
 لم يبق من الصبي المسكين إلا القليل الثمين،  
 وفقد الأب كلتا ذراعيه  
 حاولوا أن يحشوا الصبي في كيس.  
 ولكن سرعان ما بدأوا يسبون يائسين،  
 فكل ما تمكنوا أن يجمعوا منه  
 لم يتعد فردة من الحذاء وخصلة من الشعر.  
**نينو مويتشينوفتش**

بعد يوم من وصولي إلى أمستردام، قمت بزيارة القسم. لن  
 تبدأ الدراسة إلا بعد أسبوع، ولكنني ارتأيت الذهاب إلى هناك.  
 أخبرتني السكرتيرة بنبرة قد تستخدمها للإبلاغ عن تغيير  
 في الجدول الدراسي: «سمعت أن أحد طلبتك قد أقدم على  
 الانتحار».

تدبرت أن أقول: «عم تتحدثين؟».

«هذا ما سمعته».

«أي طالب؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

كان من الممكن أن أخنقها.

«من أخبرك بذلك؟».

«أحد طلبتك الآخرين. للتو».

انطلقت نازلة الدرج واتجهت إلى المقهى حيث وجدت نيفينا، وإيجور. استطعت أن أعرف من تعبيرات وجهيهما أن هناك خطبا ما.

نعم، لقد سمعا أن «يوروش» قتل نفسه. لكنهما لم يعرفا كيف حدث ذلك. سمعا أن شقيق «يوروش» جاء إلى أمستردام لمتابعة الأمر، وأن والد «يوروش» مشتبته بارتكابه جرائم حرب، ويتم استجوابه حاليا في محكمة لاهاي. وقالوا لا، ليس لديهما أي فكرة عن والده، إطلاقا. فقد كان «يوروش» كتوما جدا. وقد لاحظت أنا هذا أيضا. وهم مثلي لم يحدث أبدا أن رأوه خارج حجرة الدراسة.

قال إيجور ببساطة: «إنه الشعور بالعار، يا رفيقة».

لقد جلبت الحرب بعد اندلاعها سلسلة من حوادث الانتحار. أخبرتني ماما بقصة جندي عاد من جبهة القتال - صبي، لم يبلغ العشرين من العمر - وقام بزيارة المدرسة التي كان يدرس فيها. اتضح أنه قضى اليوم بكامله في فناء المدرسة موزعا الحلوى على الأطفال، وكان يشرح لهم ما هي القنبلة اليدوية. في الصباح التالي كانت أشلاؤه مبعثرة في جميع أرجاء المكان. سقطت بعض أجزاء من جسمه فوق شجرة وظلت ملتصقة في الأغصان. لقد فجر نفسه قبل بضع ساعات من بدء الفصول الدراسية. هيئة العاملين في المدرسة لم تعرف بذلك - فكيف كان لهم أن يعرفوا؟ - وهكذا دخل التلاميذ مندفعين بأعداد كبيرة وهم يدوسون على البقايا المخضبة بالدماء.

نعم، موجة عارمة من حوادث الانتحار. انتحار بهدوء، وسكينة،

بعيدا عن الإعلام، فقد كان هناك الكثير من المحن والموت تحيط بالناس الذين لم يعد لديهم مزيد من الشفقة ليغدقوه على المنتحرين. إن الانتحار رفاهية أثناء الحرب؛ والشفقة شحيحة. كانوا يُقدمون على الانتحار بطرق مختلفة: فكان البعض يتناول الشراب حتى الموت - وتلك أرخص الطرق؛ وكان البعض يأخذ جرعة مفرطة من المخدرات - نتيجة للحرب فإن الحدود فتحت على اتساعها، وتدفقت المخدرات بسهولة كبيرة؛ أو كانوا يموتون بكل بساطة بسبب «انفطار القلب»، وهذا تعبير تلطيفي عن الأزمات والسكتات القلبية التي لم تعالج، والتي انتشرت انتشار النار في الهشيم في أثناء الحرب. ويمكن أيضا وضع الأمراض الأخرى التي لم تعالج تحت مسمى الانتحار. ثم هناك حالة الطالبة ابنة الجنرال الصربي، وهو من مجرمي الحرب، التي وضعت حدا لحياتها بسبب الشعور بالعار. كذلك تلك المرأة العجوز من «بلجراد» التي ترحلقت وسقطت عندما توقفت الحافلة أمام حشد من الركاب. اندفع الحشد إلى داخل الحافلة، وهم يدوسون على جسمها بأقدامهم. لم يفكر أحد في مساعدتها. استطاع الأطباء ترميمها، ولكنها ما إن عادت إلى المنزل، حتى ألفت بنفسها من نافذة الطابق الرابع. إنه الشعور بالعار مرة أخرى.

هناك حوادث الانتحار بين من فروا من الحرب أيضا. لقد سمعنا كل أنواع القصص عندما كنا في برلين. سمعنا قصة المرأة البوسنية التي شنقت نفسها في مستشفى للأمراض النفسية قبل خروجها من المستشفى بيوم واحد. وقصة اللاجئ البوسني

الذي شئق نفسه في مخيم للاجئين بعد أن خنق زوجته وطفلهما البالغ من العمر سنتين بالوسادة. وهنا في أمستردام قامت امرأة كرواتية في أحد مراكز اللاجئين بفتح الغاز ثم أحرقت نفسها. لقد فعلوا كل ذلك بسبب المذلة، واليأس، والخوف، والوحدة، والعار. وهناك كثير من الوفيات غير معروفة، والتي مرت وحسب، ومعظمها لضحايا الحرب، رغم خلو سجلات الحرب منها.

عرفنا تفاصيل ما حدث ليوروش من داركو الذي لم يتأخر كثيرا عن المجيء للمقهى. فقد كان داركو الشخص الوحيد الذي احتفظ بعلاقة شخصية إلى حد ما مع يوروش. أخبرنا أن يوروش أطلق النار على صدغه من مسدس. لم يجد صعوبة في الحصول على ذلك السلاح: فكل ما كان عليه فعله هو الاتصال بمجموعات المافيا اليوغسلافية. كانت أمستردام تعج بالأسلحة اليوغسلافية: فداء ما كانت الشرطة تعثر على قنابل تم التخلص منها في المتزهات. وقد مات طفلان أخيرا بعد أن داسا على إحداها.

كان يوروش قد نظف شقته بشكل جيد قبل أن يطلق النار على نفسه. لقد تخلص من كل الأشياء التي كان يملكها - الكتب والملابس، بما فيها الملابس التي كان يرتديها قبل سحب الزناد. ترك وراءه حقيبة بلاستيكية سوداء فقط لا غير. ألصق على تلك الحقيبة بطاقة مكتوبا عليها اسم وعنوان شقيقه بأحرف كبيرة متقنة. أقدم على الانتحار يوم السبت أو الأحد، عندما كانت صاحبة الشقة خارج المدينة. وقد وجدت الجثة مساء الإثنين،

واتصلت بالشرطة مباشرة. كان ملقى في منتصف الغرفة وهو عار تماما. كانت الجثة نظيفة فيما عدا بضع نقاط من الدم والبول، ولم تتحلل بعد. كانت الجثة محاطة بسبع حقائب أطفال كرتونية (حقائب لعب أطفال!) تباع في متجر «بلوكر». احتوى كل منها على الأشياء نفسها: فرشاة أسنان غير مستعملة، ومخدة صغيرة، وقلم رصاص مشحوذ بشكل جيد، و«يرملك»، القبعة التي يستخدمها اليهود.

سألت نيفينا: «هل كان يوروش يهوديا؟».

رد داركو: «لم يكن يهوديا وفق علمي. كان والده بوسنيا صربيا، كما تعرفون جميعا».

بدا وصف «داركو» لمشهد موت «يوروش» طفوليا، مع أنه كان وصفا باردا، وحادا كالسيف في آن واحد. كانت الحقائب الكرتونية هي المتاع الذي رأى «يوروش» أنه ضروري لرحلته: يرملك، وفرشاة أسنان، ومخدة، وقلم رصاص، مكررة سبع مرات. لقد كانت أيضا بمنزلة وصية «يوروش» بأحرف هيروغليفية لأي شخص يريد أن يحللها.

قال داركو: «أوه، وهناك شيء آخر. لقد وضع رصاصة في فمه».

قالت نيفينا: «إنني أتساءل عن سبب ذلك!»  
«لا أعرف».

قال إيجور مذهولا: «حقا. ألا تعرف سبب ذلك؟».

قال داركو: «كما قلت، لا أعرف. ولكن ماذا لو - ما أن نظف المكان وخلع ملابسه وصوّب المسدس إلى رأسه - أدرك أن الأمر

سيكون مؤلماً. إذ ربما قد يصرخ. قد يسمعه شخص ما. ربما تذكر مشهداً في فيلم حربي ما وضعوا فيه شيئاً صلباً بين أسنان رجل مصاب قبل أن يجروا له عملية جراحية من دون استخدام المخدر، ليتجنبوا صراخ الرجل. وربما للحظة أحس بالفزع فلم يتبق له شيء: فقد وضع كل شيء وفقاً لترتيب معين. لذا فقد أخرج رصاصة من المسدس ووضعها بين أسنانه قبل أن يطلق رصاصة أخرى على رأسه».

كان داركو بالكاد ينطق كلماته. بدا وكأنه على وشك البكاء طوال الوقت الذي كان يحاول فيه إعادة تركيب المشهد. كان الأمر وكأنه يفكر كيف أن موت يوروش موت بلا معنى - وفي الوقت نفسه معترضاً على هذا التفكير. هناك موت نبيل، ذو معنى، ولكن في النهاية، لماذا اختار يوروش موتاً بلا معنى؟ كان داركو متعاطفاً مع يوروش لذات السبب، وهو أن موته خلا من أي معنى يمكن تخيله. لكن كل هذا ليس إلا مجرد حدس بما كان يدور في ذهن داركو. في حقيقة الأمر، لقد كان الاعتراض هو اعتراضى أنا.

أرانا «إيجور» مقالاً قصيراً في النشرة الصادرة عن المجلس النرويجي للاجئين تتعلق بمحاكمة ثلاثة من مجرمي الحرب، وكان أحدهم والد «يوروش». كانوا أول من سيمثلون أمام المحكمة، إذ إنهم من صغار القوم. لن يجلب المجرمون الكبار للمحاكمة قبل سنوات عدة.

سأل إيجور، وكان يقصد والد يوروش: «هل نذهب ونلقي نظرة عليه؟».

«أتقصد أن المحاكمة مفتوحة للجمهور؟».

«حصلت على تذكرتين للدخول اليوم من القسم».

«كما لو أنك ذاهب لمشاهدة فيلم».

قال بسخرية: «إنهم ينظرون إليها من قبيل ممارسة اللغة.

مجانا».

«متى سيكون ذلك؟».

«غدا، إن أردت».

لم ينبس أحد ببنت شفة. كنت قد نسيت ما يتعلق بالحرب في أثناء الفصل الدراسي الماضي. كذلك الطلبة نسوا ذلك. لكن موت «يوروش» أعادني من جديد إلى خضم الحدث، إلى الكابوس. لقد كنت بجانب نفسي. كيف فشلت في أن أعرف؟ لأنني لم أسأل قط. ولم أقم بالسؤال لأنني كنت خائفة من ذلك. والآن، فات الأوان، لقد كنت مرعوبة من الأسئلة التي كان من الممكن أن أ طرحها.

«لقد رتب شقيق يوروش كل شيء. ساعده أصدقاؤه الذين يعيشون هنا منذ زمن طويل. ليس ثمة شيء واحد كان يمكنك أو يمكن لأي منا فعله. لا يمكننا حتى الذهاب إلى مراسم الدفن».

قالت نيفينا وهي تتجه إلى البار: «يمكننا أن نحتمي الشراب على روحه، أليس كذلك؟ إنها دعوتي لكم».

ارتشفنا «الراكيا» الهولندية في صمت. لم أعد أفكر في يوروش؛ كنت أفكر في مسلسل شاهدته على التلفاز في وقت مبكر من الحرب. ضم المسلسل فتى سلوفينيا يرتدي الزي الرسمي للجيش الوطني اليوغسلافي، كان في عمر يوروش، تم



أخذه أسيرا على يد قوات الدفاع السلوفينية الجديدة. كان يقف رافعا يديه، والدموع تنهمر على خديه وهو يصرخ «لا تطلقوا النار، أيها الرجال! أنا واحد منكم!» بعد بضع ثوان، أطلق الرجال السلوفينيون النار على رجلهم السلوفيني.

بعد انتهاء جلسة الشراب، ذهب نيفينا، وداركو، وإيجور، وأنا، كلٌّ مضى في طريق مختلف. في ذلك اليوم بدت أمستردام في مشهد «أماركورد» لفيليني. بدت رقائق الثلج المتساقطة أكبر من حجمها الحقيقي بكثير بشكل لا يصدق.

من حين إلى آخر سوف ينبش شخص ما

تحت الأشجار

النزاعات الصدئة

ويلقي بها في القمامة.

## ويسلاوا زيمبورسكا

لم أعرف ما أريد فعله. سرت الهوينا في المساحة الضيقة لشقتي، وأنا أرتجف من حمى خفيفة. لم أستطع التركيز على أي شيء، فالتفكير في موت يوروش تملّكني كالشقيقة. ثم وقعت عيني على الدفتر، أحد الدفاتر الثلاثة التي أعطاني إياها بابا حديثا في «زغرب». لقد تركت الاثنين الآخرين عند أمي، مدركة أنه لن يكون لدي الوقت أو الرغبة لقراءتها. إذا أخذت ولو واحدا منها، فهذا لمجرد إراحة ضميري. خطفت الدفتر من على الرف وبدأت أقلب الصفحات.

كان النص مطبوعا بمسافة واحدة بين الأسطر ومن دون هوامش. لم تكن الكتابة واضحة، فمن المؤكد أن تلك النسخة كانت النسخة المصورة الثالثة، أو الرابعة لذلك النص. كان قد قام بتدريس الأوراق بعضها مع بعض، وغلفها بكرتون أخضر فاتح، وكتب على الغلاف بخط يده مذكرات مُعلم في بلدة صغيرة. كان يسمي تلك الدفاتر «كتبا». وأنا لا أعرف العنوان الذي أعطاه «للكتاب رقم واحد»، الذي قد يكون تناول طفولته المبكرة. وقد يكون عنوان «الكتاب رقم اثنين» يوميات المدرسة في عصرها

الذهبي. كان لدي «الكتاب رقم خمسة» الذي حمل إهداء «إلى ذريتي المستقبلية». لم يكن لدى بابا إلا القليل من الأمل في ذرية مستقبلية، إذ كانت «الذرية» مجرد عذر رومانسي، ولكن، بما أنه صور العديد من النسخ من «هذا الكتاب»، اعتراف حياته، فمن الواضح أنه كان يأمل بأن يقرأه شخص ما في نهاية المطاف. ذهبت إلى بلدة «ن» للقيام بما كنت قد دربت للقيام به: التدريس. كنت مدرسا مثلي مثل غيري خلا شيئا واحدا: أنني ذهبت إلى المدرسة، وبلدة «ن» - بعد إطلاق سراجي من سجن «جولي أوتوك».

كانت اعترافات بابا منقوعة بتجربته كسجين سياسي في سجن «جولي أوتوك»، بسبب تعاطفه مع مكتب الإعلام الشيوعي. لقد غيره ذلك تماما: فحتى بعد إطلاق سراحه لم يشعر بأنه غفر له. بينما كان في الداخل، «مُغَيِّبا عن الحياة»، وبينما كان يقضي «طوال اليوم»، وكل يوم، وهو يحمل صخرة تزن عشرة كيلوغرامات لمسافة خمسين مترا لأعلى المنحدر، وإذا حدث وكان الحارس في مزاج جيد، فكان يسمح له أن يطرحها أرضا للحظة من أجل الراحة قبل أن يعاود جرها إلى أسفل المنحدر؛ كان الناس في الخارج قد تعلموا، بمزيد من الوقاحة، كيف «ينهبون أموال الدولة». لقد نعت حياته بعد خروجه من السجن «بحياة ما بعد الوفاة»، ونعت نفسه «بالجثة»، وقد اضطر إلى إخفاء ماضيه في سجن «جولي أوتوك» كمن يخفي إصابته بالسفلس. كان يشعر بأنه نُفي من الحياة لأسباب أخرى أيضا: لقد فقد مكانته كمحارب نصير للحرية (وفي أحد السياقات يصف كيف تم تجريده من كل

أوسمته العسكرية)، ولم يعد عضوا في الحزب (فقد طُرد من الحزب). لقد أضحى مجرد مُعلم في المدرسة الآن.

لقد تنوعت النبرة، والمزاج: فكان رثاء الذات يفسح مجالا للوعظ المدرسي، أو غضب المؤمن الحقيقي، أو الناشط الاجتماعي - الشيوعي السياسي الذي يقوم به الموظف الإقليمي. في البداية اعتقدت أنه يخاطب مجموعة غير مرئية من جدران أحد السجون، ولكن سرعان ما أدرك أن جمهوره لم يكن ذريته المستقبلية، ولا تيتو، أو الحزب، أو الشرطة السرية، أو الدولة اليوغسلافية، أو الحراس القساة في سجن «جولي أوتوك»؛ لقد كان جمهوره تلك البلدة الصغيرة التي درّس فيها.

ما ظهر بالتدريج كان صورة للحياة اليومية في الأقاليم اليوغسلافية في الخمسينيات، والستينيات. لقد أعطى بابا وصفا دقيقا لكيف بدأ، بعد سنوات عدة من العمل مدرسا في بلدة «ن»، بترميم المدرسة المهلهلة، حيث صب الأسمنت على الساحة الموحلة وأقام ورشة؛ وكيف أنه، بعد وقت طويل حين أصبح رئيسا لفرع الوزارة الإقليمي، أسس مركزا للثقافة وجمعية اجتماعية للفنون؛ وكيف أنه أنشأ مسرحا للهواة، واستطاع أن يؤمّن له أضواء كشّافة حقيقية؛ وكيف بُنيت أول دار للسينما، وكيف تحصّلوا على الأفلام لها؛ وكيف أنهم أسسوا أول مكتبة عامة حقيقية فيها قاعة للمطالعة وكيف مؤّلو شراء الكتب لها؛ وكيف أنهم أعادوا الحياة إلى المتنزه البلدي المهمل؛ وكيف أنهم قاموا ببناء مجمع لمدرسة ثانوية وحمام سباحة؛ وكيف أنهم نظموا ناديا لكرة السلة؛ وكيف أنهم أسسوا أول مدرسة للموسيقى ...

كانت الصفحات التي تتعلق بتلامذته تتميز بالدفع بوجه خاص. في أحد السياقات تحدث عن زلة لسان حين قال: «اذهب على السبورة»، بدلا من قوله، «اذهب إلى السبورة». وبينما كان يدير ظهره، نفذ الطالب معنى ما طلب منه حرفيا، «فرغ السبورة عن قاعدتها الخشبية وخطا عليها، مثيرا البهجة في غرفة الصف. لقد حصل ذلك الصبي فيما بعد على شهادتين جامعتين».

عندما تقاعد من الخدمة - آنذاك، كان قد انتقل إلى زغرب - حصل على الساعة الذهبية الرمزية لقيامه بواجباته، ولكنه كان مجروح المشاعر بشدة لأنه لم يتلق أي كلمة عرفان من البلدة التي أمضى فيها أفضل سني عمره.

في نهاية «الكتاب» كرس بابا مساحة مغالى فيها لوصف الأنواع المختلفة من خزائن الكؤوس والأطباق، وخزائن الملابس والرفوف في حياته، من مرحلة الطفولة حتى السن المتقدمة في العمر (كانت الأكفان التي تخصه من ضمنها). وتوسع بشكل خاص بالحديث عن رفوف الكتب في شقة «زغرب» التي عادة ما كانت تسقط منها مختلف أنواع الوثائق، والملصقات، والميداليات. كانت إحدى الملصقات تشي على «جهوده التربوية المتفانية بالنيابة عن جيل الشباب في أثناء حرب التحرير الوطنية»، وأخرى تمتدح «جهوده المتفانية في تطوير وتعزيز الحياة الاجتماعية والثقافية في الدولة». وكانت هناك أخرى سميت «شهادة المعلم الحزبي»، وهذا ذكرني بالزمن الذي كانت تدرس فيه القراءة والكتابة والحساب على وقع

هدير القاذفات الألمانية من جهة وقاذفات الحلفاء من الجهة الأخرى، ووقع أصوات المدافع عن بُعد، وأصوات الرشاشات عن قرب. كان تلامذتنا يجلسون تحت إحدى الأشجار وألواح الأرذواز في أحضانهم، والطباشير في أياديهم، ليتعلموا المفردات، والقراءة، والحساب، وعين المعلم الحزبي تراقبهم من كُتب.

في أحد الأيام بدأت أبحث في الوثائق المصفرة، ولم أجد سوى ورقة وحيدة مدموغة بالختم الحكومي من أعلى. لم أرَ فيها إلا اسمي مشفوعاً بأنني حصلت على ميدالية لقاء خدمة الوطن. جلست هناك أفكر مع نفسي، أي نوع من الأوطان يكون هذا الوطن إن كنت قدمت له من الخدمة ما يكفي ليستحق ذلك التكريم وبعد ذلك أنسى أنني تلقيتها؟ «نعم، جلست هناك ممسكاً بتلك الورقة وفجأة، في لمحة بصر، تبدد الخوف من أن حياتي ذهبت هدرًا. نظرت إلى الورقة من جديد، وكانت موجودة بكل تأكيد. بدا الأمر وكأنه حدث البارحة...».

أصل إلى «زغرب» وليس لدي فكرة عما أفعله هناك، ولكنني باللباس الرسمي الكامل من ربطة عنق وغيرها (كان ذلك معاناة حقيقية لا يتخيلها المرء حتى من ألد الأعداء). ينمّ المدرج الذي أدخلت فيه عن جو رسمي، فالناس يتهايمسون ويترقبون الآتي من دون وجود حتى ولو ابتسامة واحدة في المكان. ومن ثم يدخل مدير فرع الجامعات الكرواتية إلى المسرح حاملاً مجموعة من الأوراق المهمة تحت ذراعه. «الفارس الذي يستحق الشهادة الأولى للمساهمات الرئيسية في تعزيز ونمو وتطوير مستمر للتعليم

والثقافة في الجمهورية الكرواتية الاشتراكية هو...»، ثم يقرأ اسمي بصوت عالٍ.

ينتمي بابا إلى الجيل الذي آمن بحق أنه كان يبني مستقبلاً أكثر إشراقاً. كان قد انضم إلى حركة المقاومة كواحد ممن اقتنعوا بمناهضة الفاشية وشعر بأنه قد ربح الحرب. إن كان قد انتهى به الأمر في أحد المعتقلات لمن يشك في ولائهم السياسي، فلا بد أن يكون ذلك بسبب تصريحه علناً في مكان ما عن رفضه لوجود المعتقلات الستالينية. وعند إطلاق سراحه، وهو «لم يزل متشبثاً بمعتقداته»، عاد «ليبني مستقبلاً أفضل»، ولكن عندما تقاعد من الخدمة كان قد فقد أوهامه، وكذلك الاهتمام «بكتبه». هنالك استرجع أطراف الناس الذين سيحطمون كل شيء آمن به في نهاية المطاف، وكثير منهم، مصابون بوهن لا يمكنهم من تحمل غريزة حب البقاء، كانوا من الجيل الذي ينتمي إليه نفسه. وحالما تخلص عن كل ما كان يعرفه، فتح النافذة ليأخذ نفساً عميقاً ويتفحص الدمار. لقد نكص الزمن، إذ عاد إلى حيث كانت البداية. فقد عادت الحرب من جديد، وعادت المعتقلات والأسلاك الشائكة.

تساءلت إن كان أحد سيقراً ما كان عليه أن يقوله. فالأحفاد الذين أمل بهم، إن وجد له أحفاد، سيتكلمون اليابانية. أما أولجا، التي سمعت تلك القصص منه آلاف المرات، فكانت أكثر اهتماماً بالوقت الذي تستطيع فيه صبغ جدران المنزل باللون الأبيض. وعبر السنين، تحول بابا من ضحية إلى جلد، وحول ماما إلى أم مؤمنة يجلدونها بكلماته من دون توقف.

كان باستطاعتي أن أصور بابا هكذا، وهو يضمد الجدران بشكاواه، مرسلا إشارات لا يتمنى أحد أن يستقبلها، ومبررا وجوده وذاته، ومراجعا الإهانات التي تعرض لها، مقتفيا إياها قائمة تلو الأخرى في الهواء، ومفتاظا من خيبة الأمل والدناءة وقذارة الخيانة الإنسانية. تصورته وهو يقف في منتصف الغرفة في بيجامته، بأزرارها العلوية المفتوحة وأنبوب القسطرة البارز من أسفلها، وهو يطلق جحافل من الكلمات الانتحارية التي تصطدم بالجدران، تاركة خلفها بقعا من الدماء.

فكرت في جوران أيضا، وكان يتحدث عن حصته من الإهانات مثله مثل والده. ومما لا شك فيه أنه أخذها معه إلى اليابان، مهربا إياها عبر الحدود، مثل صندوق للمجوهرات. كان مثل والده مصابا بعدوى - «عدوى» كلمة استخدمها والده في مكان ما - الإقصاء، بما فيه المحو، والتصفية، والنفي، والطرد، والمنع، والاستثناء، والترحيل... وأنت اخرج، لا مكان لك هنا!

لم يعد جوران يحبني، وذلك كان سبب رفضي الذهاب معه إلى اليابان. حدث الأمر بهدوء، وتدرجيا، ومن دون سبب محدد. عمل جوران كل ما في وسعه: فقد فعل كل شيء لينبه قلبه ويجعل نبضه يتسارع؛ فلم يكن يعتقد أن الحب يمكن أن يتوارى هكذا. ولكن، وبالتدرج، كان شعوره نحوي يتحول إلى شعور من تعرض للإهانة. ربما كان لدي الشعور نفسه، ولكنه كان نائما في داخلي. فمن الصعب استكشاف مواقع الضعف والإحساس بالعدوى وهي تلج عروقنا.



كان جوران مثل بابا تماما . فحالما يحقق نصرا، كان ينسبه ذهنيا إلى بلدة «ن» التي يعشقها . وكلما عظمت إنجازاته، كلما ازداد تجاهل تلك البلدة له . فالشيء الوحيد الذي كان محط اهتمام تلك البلدة هو إخفاقاته، . ذلك ما كانت البلدة ترغب في سماعه، لأنها تثبت أنهم كانوا على حق في نظرتهم إليه . لذلك، فبالنسبة إلى جوران، وبابا، كانت الدولة مقسمة إلى معسكرين متصارعين ومتساويين في الحماسة: الضحايا، والجلادين . ثم إنني ولأول مرة أدركت أنهما على حق في شيء: لعل تلك الدولة بائدة الآن لأن من سكنها في الواقع لم يكن سوى الضحايا، والجلادين . الضحايا والجلادين هم من يتبادل الأدوار من وقت إلى آخر .

كيف للمرء أن يتحرر من الماضي، كنت أتساءل من دون توقف ... طلبت من طلبتي أن يتصالحوا مع الماضي كخطوة أولى ضرورية . قدمت لهم الماضي الذي خلا من الألم في محاولة لحمايتهم كما يفعل الوالدان لحماية أطفالهما، وكما يفعل أطفالهما في حماية أصدقائهم، وكما فعلت أُمي لحمايتي، ووالد جوران لحماية ابنه . ولكن، كلا، لا يمكن التحرر من الماضي، هناك النسيان فقط . وهذا ما تقوم به تلك المحايات الصغيرة الرائعة في أدمغتنا جميعا . كل واحد منا يجر خزانة من ورائه، وكل خزانة لها هيكلها الخاص الذي سيتهوى عاجلا أم آجلا، متكررة، بطريقة تريحنا تماما، مثل الوثائق التي تهاوت عن رفوف بابا . إن الماضي هو «تركيبتنا» ونحن بلا خبرة، سوى أنه تركيب بذريعة فنية . بلمسة فنية هنا وأخرى هناك، هنا لمسة،

وهناك لمسة، لمسات في كل مكان. إعادة التهذيب والتنقيح هي أدواتنا الفنية المفضلة. كل منا قيم على متحفه الخاص. ونحن لا نستطيع التصالح مع الماضي إلا إذا وصلنا إليه، إلا إذا غرسنا إصبعاً في سده الصخري مثلما فعل «هانز برينكر»، وهو الصبي الذي أنقذ هولندا من الغرق. اغرس إصبعاً في سدك الصخري. املاً شاشتك بالصور. انفض الغبار عن حياتك. قم بالتغييرات من وقت إلى آخر. تخلص من بعض الأشياء. اكشف «أ» واخف «ب». امح كل البقع. التزم الصمت، واعتبر لسانك سلاحاً. فكر في أمر وصرح بغيره. استعمل العبارات الرنانة للتعظيم على نواياك. اخف ما تؤمن به، وآمن بما تخفيه.

لقد سئمت من التفكير في كل تلك التكرارات، والاستنتاجات، والشكاوى والتبريرات المتجددة، وفيروس البؤس الذي ينتقل بالعدوى، والحبل السري الذي يحيط بنا ويحصرنا، رابطاً إيانا معاً في حلقة مروعة، ومؤلمة، ودموية تدرسنا درساً من دون توقف - الوالدان، والأطفال، والأحفاد، والشانق والمشنوق، والضحية والجلاد، والحارس والسجين، والقاضي والمتهم.

احتجت استنشاق الهواء الطلق، فرميت بدفتر بابا أرضاً وسحبت معطفي وخرجت. مشيت عبر شارع «زيدياك» بعض الوقت، ثم دخلت مقهى «دي فيردوينين مينار»، حيث اعتدت أن أتناول القهوة من وقت إلى آخر. اتخذت مكاناً لنفسني على البار وقمت بالطلب. ساعدت همهمة الأصوات البشرية والحرارة التي تنفثها تلك الأجسام على تهدئة أعصابي. كنت بحاجة إلى لحم

بشري دافئ يطفئ الألم المتفجر بين أضلاعي كما يطفئ المرء سيجارة. كان يجلس بجانب رجل تبادلته معه أطراف الحديث، وتناولنا بعض الشراب، وتبادلنا النظرات، ومست أجسادنا بعضها ببعض: فقد كان كلانا يسعى إلى صفقة هامشية تتطوي على مصلحة متبادلة ومزيجا من سوائل الأبدان. نجحت الصفقة. حصلت على ما أحتاج إليه - سلوى امتهان الذات - وها قد اختفى الألم.

في ضوء الصباح الباهت القادم عبر النافذة لمحت عيناى الناعستان ورقة نقدية على المنضدة التي بجانب السرير: لقد ترك الرجل الذي لم يتوافر لي الوقت لرسم صورة له في مخيلتي ورقة نقدية من فئة مائة جيلدر كتذكرة. ارتسمت ابتسامة على شفتي. «يا للهول! مائة جيلدر مقابل البغاء»، كما يقول الهولنديون. لقد غاب عن ذهني تماما أنني أسكن في المنطقة الحمراء من أمستردام!

ذكرني مجمع محكمة الجزاء الدولية لمجرمي حرب يوغسلافيا السابقة، بالهندسة المعمارية الاشتراكية في الستينيات والسبعينيات، التي أفسحت وظائفها المجال لمثل المستقبل المشرق، والأمنية، والعدالة للجميع. كان هذا هو الأسلوب المعماري الذي تبنته الأمم المتحدة في المناطق المتواضعة من هولندا. كان القصد من أسلوب بناء محكمة الجزاء الدولية أن يشعر الجميع بأنهم في «بيوتهم»، بمن فيهم مجرمو الحرب اليوغسلاف، على الرغم من أنني لن أفاجأ إذا ما عبر أولئك المجرمون عن خيبة أملهم تجاه التضاميم الداخلية المتواضعة.

بعد إبراز التذاكر، والخضوع لتفتيش دقيق وترك حقائب الظهر في الخزائن الشخصية، عبرنا أنا وإيجور آخر نقطة تفتيش، وأخيرا نزلنا من على درج معدني - يشبه ذلك الموجود في السفن - إلى قاعة المحكمة. كانت قاعة الجمهور مقسّمة إلى جزأين، واحد على اليسار للصحافيين، والآخر على اليمين للجمهور. حصلنا على سماعات للأذن ونحن في طريقنا إلى القاعة. دلت إشارة صغيرة في السماعة على اللغات المتوافرة على القنوات المختلفة. كانت القناة رقم ست مخصصة للغة تسمى «سي بي أس»، أو الكرواتية/البوسنية/الصربية. جلسنا مقابل جدار زجاجي مغطى بسلسلة من الستائر الدوارة. كانت هناك شاشات تلفزيونية معلقة في الزاوية اليمنى، وأخرى في الزاوية اليسرى. في الساعة التاسعة تماما ارتفعت الستائر ووقفنا عندما دخل القضاة قاعة المحكمة. القضاة الثلاثة، الذين كانوا يرتدون أروابا باللونين الأحمر والأسود، اتخذوا أماكنهم على المنصة في منتصف القاعة. أما مساعدوهم الثلاثة، في أروابهم السوداء ذات الياقات البيضاء، فقد جلسوا من تحتهم مباشرة. اتخذ مستشارو الادعاء، والدفاع مكانا أدنى منهم، يقع على جانب. كنا نحن بذلك قادرين على رؤيتهم جميعا من دون أي عائق. احتفظ كل منهم بجهاز حاسوبه الخاص. جلس المتهم بجانب محاميه. كان رجلا في متوسط العمر، مرتديا بذلة رمادية لتناسب ذلك الموقف، ذا عينين باهتتين وبشرة حنطية، ووقفه باهتة تشبه انتصاب كيس بطاطس. لقد خاب أمني، وكذلك أمل «إيجور»، كما تخيلت. لقد توقعنا مجرما، ولكن ما شاهدناه كان

رجلا، رجلا يمكن نسيان ملامح وجهه بسهولة. باستثناء شيء واحد: أن شفتيه نزلتا إلى أسفل، وفكّه كان مضغوطا تماما. كان وجهه نسخة طبق الأصل عن وجه «ميلوسيفتش»، وكذلك نسخة عن وجه «تودمان»، بالأسنان المطبقة نفسها، والشق الرقيق المنحني في الفم على شكل حدوة مقلوبة، أشبه ما يكون بالوجه المسطح الذي نراه في رسومات الأطفال. وجه شرير.

نادى المدعي العام على شاهد للقدوم إلى المنصة. نزلت الستائر لبعض الوقت، ثم ارتفعت كلها فيما عدا تلك التي تحجب الشاهد. بدت صورة الشاهد غير واضحة على الشاشة التلفزيونية، ولكن كان في إمكاننا سماع صوته. من وقت إلى آخر، كانت الكاميرات توجه نحو الجمهور، وكنا نرى وجوهنا على الشاشات. كان في مقدورنا أيضا أن نرى انعكاسات وجوهنا على الجدار الزجاجي، وقد ركبت على وجوه الناس الموجودين من خلفها.

في البداية تابعنا المحاكمة من خلال الجدار الزجاجي، مع إلقاء نظرة بين الفينة والأخرى على الشاشات، ولكن تدريجيا وجدت عينيّ تتريثان على الشاشة، وكأني وجدت صورتها أكثر جدارة بالثقة من المشاهد الحية. الكلمات التي سمعناها، ونحن نغير من قناة إلى أخرى لنسمع كيف تبدو تلك الكلمات في اللغات الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الهولندية، لم تكن كاذبة بأي حال. حقيقة أن الجدار الزجاجي الذي يفصلنا عن الحدث لم يعد بعد موثوقا في أنه أكثر حقيقة من «الواقع». فكلاهما - الأول الذي نتجت عنه الأكاذيب تلو الأكاذيب، والآخر الذي وعد

بأن يكشف الحقيقة كلها، ولا شيء غير الحقيقة - تساويا في الغرابة، إن كانت تلك الكلمة المناسبة.

ركز الاستجواب على مزرعة لتربية أسماك الشبوط. كان والد يوروش مديرا لمزرعة أسماك في بلدة صغيرة في البوسنة. كانوا يستجوبونه حول الإصلاحات التي تم القيام بها في سطح المبنى الرئيسي الراشح، وحول الصفيحة المعدنية التي استخدمت لتغطية السطح وتكلفتها، وحول من كان المعنيّ بدفع التكلفة، وحول الشاحنة والسائق، وما إلى ذلك من أشياء كثيرة. كان القصد من جمع تلك التفاصيل المسهبة، والمملة، التي لم نفهم منطقة البتة، هو معرفة إن كان لدى والد يوروش، وشريكان آخران وقت فراغ كاف لترك العمل والذهاب إلى كوخ قريب حيث كان يُعتقل فيه مسلمو البلدة، وإجبارهم على القيام بممارسات جنسية مذلة - فقد كانت الممارسة المفضلة عندهم، كما زعموا، تلك التي تضم «الوالد وابنه» - ومن ثم كانوا يضربونهم بأيديهم التي تقوح منها رائحة سمك الشبوط النتنة حتى الموت، ثم يرمون بجثثهم في المستنقعات.

بدا المدعى عليهم في تلك المسرحية كممثلين هواة: فكلامهم أشبه بكلام الإنسان الآلي منه بكلام البشر، وقد حولوا الشر إلى مؤامرة آلية، بدرجة من الآلية كغيرها من القصص. لم يشعر أي من المتهمين بأدنى درجة من الذنب. من بين كل أولئك الذين دمروا الوطن - القادة، والسياسيون، والجنرالات، والجنود، والمحتالون، والمجرمون والمافيات، والكذبة، واللصوص، والأنذال، والمتطوعون - ولا واحد منهم كان مستعدا أن يخرج

علينا ويقول: «أنا مذنب» لم أسمع كلمة «مذنب» منهم من قبل قط، ولم أسمعها حين كنت جالسة في قاعة المحكمة مع إيجور، ولا أتوقع أن أسمعها منهم أبداً. هل تشعر بالذنب عندما تدق مسماراً في الجدار؟ كلا. هل تشعر بالذنب عندما تعلق صورة على ذلك المسمار؟ كلا. هل تشعر بالذنب عندما تضرب مائة شخص حتى الموت؟ كلا، بالطبع لا.

تساءلت كيف كانت الأمور مع مئات الآلاف من الناس غير المعروفين الذين قد يكون حماسهم المتقد شكل وقوداً داعماً لتلك الحرب. هل شعروا بالذنب؟ وماذا عن جمهور السياسيين، والدبلوماسيين، والمبعوثين، والعسكريين الأجانب، الذين التصقوا كالغراء في كل مكان عبر البلاد؟ هم لم يتلقوا الأموال السخية فقط؛ بل إنهم حصلوا على لقب المنقذ، ناهيك عن إطراء الأمم المتحدة، أو أي تدرج مؤسساتي يصادفهم ليمثلوه. (ولم تكن مناصبهم في كرواتيا، والبوسنة بتلك المشقة: فكانت الفنادق تعمل بشكل مقبول، وتوفر الطعام المناسب، وكان الشاطئ الأديرياتيكي يقبع بقربهم.) هل شعروا بالذنب؟ هم أيضاً كانوا يقومون بواجبهم، مثلهم مثل القناص الذي تركز فوق التل واقتص المرأة في شوارع سراييفو. مثلهم مثل المصور الأجنبي الذي أخذ صورة للمرأة (بالرغم من أنه لم يخطر في باله الاتصال بسيارة إسعاف) وفاز بجائزة أفضل صورة حربية في تلك السنة. حتى إن تلك المرأة المسكينة التي كانت تتلوى على الرصيف والدم ينزف منها، كانت هي أيضاً، بغض النظر عن عدم إدراكها لذلك، تقوم بواجبها من خلال رسم صورة حقيقية

للحرب. من المسؤول عن موت والد سليم؟ من المسؤول عن موت يوروش؟ من المسؤول عن مسمرتي وإيجور في مقاعد المحكمة، وكلانا ينشد الغفران.

ها أنا وإيجور كنا نشاهد الشاشة التلفزيونية! كانت صورة لواقع منحرف كنا فيه جميعا، غير مباين بالانحراف، شركاء في الجريمة. من حيث المبدأ لم يكن ثمة فرق بيني وأنا مسمرة في مقعدي أنظر إلى الشاشة التلفزيونية، وبين والد يوروش الذي تشبث في كرسيه خلف الجدار الزجاجي. ففي عالم التوسط - التوسط للتوفيق بين المتنازعين مرات ومرات - كان كل منا مذنباً. لم تكن الجريمة واقعية، ولم يكن كل شيء واقعياً. شعرت وكأن الأمر أشبه ما يكون بالضغط على فأرة في جهاز الحاسوب للتخلص من القضية والمتهمين، ونحن، الجمهور، ضغطة واحدة سعيدة تعيد التوافق من جديد. كان ثمة شيء واحد يتصل بالواقع: هو الألم. كان الألم الشاهد الصامت، عديم الفائدة، والحقيقة المطلقة. ذلك الألم الذي يتدفق عبر شرايين سليم، ويظهر في أوداجه. ذلك الألم الذي يتفجر مكبوتا في داخلي، وداخل إيجور. ذلك الألم الأصم، والأخرس، والأعمى الذي يمكن أن يطيح بنا فجأة، كان يشير إلى خلل جذري .

لذلك جلست هناك مواجهة الجدار الزجاجي متأملة... متسائلة: ماذا سيحدث، لو أن كل ذلك الألم تجمع في العقل الواهن «لأوسكار ماتزيرات» ووقف وفتح فمه وأطلق صرخة مدوية؟ تخيلت الجدار الزجاجي وقد تتأثر في آلاف القطع الفضية الصغيرة، وكذلك شاشات الحواسيب، واللمبات،



والنظارات، وأغطية أسنان الموجودين البورسلين - تهشمت جميعها وتناثرت إلى قطع صغيرة؛ تخيلت ذلك الصوت النافذ، المدوي وهو يطلق النار على رأس كيس البطاطس الرمادي، رأس والد يوروش ويرسله عاليا في الهواء، ويضرب رؤوس كل أولئك المجرمين الدمويين ويرسلها عاليا في الهواء، مفجرا طبقات آذانهم وقلوبهم القاسية...

ألقيت نظرة باتجاه إيجور. شعر بتلك النظرة على وجهه، فاستدار ملقيا نظرة متسائلة نحوي. نزعَت السماعات عن أذنيه، وخاطبته قائلة: «لنخرج من هنا».

كانت مغادرتنا لقاعة المحكمة تشبه مغادرة شخص لجنازة من دون أن يكون متأكدا من هوية الشخص المتوفى.  
«إلى أين؟»

أجبت: «إلى المنزل. إلى أمستردام». استقللنا الترام. منيت زيارتنا لمحاكمة الجزاء بالفشل: فقد ذهبنا لمشاهدة عقاب فوري لوالد يوروش، لكننا عدنا صُفْرَ اليدين.

قال إيجور، متوقعا ما كان يجول في خاطري: «محكمة لاهاي ليست محكمة نوريمبيرغ».  
«هذا مؤكد».

«ولم تكن كمحاكمة إخمات في القدس».  
قلت بما يشبه الزمجرة: «لقد أوضحت وجهة نظرك».  
«ما الأمر؟ لماذا تتصرفين بهذه الغرابة؟»  
«لأنه ينبغي ألا تستخف بمؤسسات العدالة».

«يا إلهي! هيا اسمعوا ما تقول! مؤسسات العدالة. لم أعرف أنك رومانسية، يا رفيقة».

«وأنا لم أعرف أنك شخص ساخر، وهذا لا يليق بك».

«حسنا، حسنا. لا تعقدي الأمور».

«انظر إليّ! أولئك الناس يحاولون تنظيف القمامة التي تركناها وراءنا، لأننا لم نكثر بتظيفها بأنفسنا، ولأنها لا تصدر رائحة كريهة بالنسبة إلينا. ولكنهم لا يمثلون في أفلام أمريكية، لذا لم نر والد يوروش يشنق كما كنا نرغب أن يحدث».

رد قائلاً: «ربما أنهم سيطلقون سراحه بعد كل ما فعله».

«الأمر يستحق العناء إذا ما عاقبوا شخصا ما».

«كل هذه الضجة الكبيرة من أجل معاقبة مجرم واحد».

«ما الذي يضيرك؟ أنت لا تدفع من جيبك، أليس كذلك؟».

تذمر قائلاً: «حسنا. خذي الأمور ببساطة، خذي الأمور ببساطة. أنا لست كارادزيتش، أليس كذلك؟ ولا ملاديش».

«أولئك الناس يحاولون مساعدتنا، ونحن نتفرج من وراء الكواليس، ساخرين أشبه ما نكون بالمغفلين! أنا، وأنت لم يكن حتى لدينا الصبر الكافي للجلوس بضع ساعات في أثناء المحاكمة».

«لكنها محكمة، وليست كنيسة».

«لن يضيرنا شيء لو اعتبرناها كنيسة، وجلسنا حتى ينتهي الأمر، تواضعا ليس إلا».

«حسنا، لم أكن أنا من أراد الخروج».

احمرّ وجهي. لقد كان محقا. شعرت برغبة في جلده. رمانى  
بنظرة نافذة. شعرت بأنه يقرأ أفكارى. كان المسافرين في الترام  
ينظرون نحونا.

توقف الترام عند تلك اللحظة وسحبني إيجور من مقعدي.  
«هيا. لننزل».

قلت متذمرة ونحن في الشارع: «لماذا أردت أن تنزل؟»  
«أولا لأنك أحرجتني بتحدثك بصوت عال، وأيضا لأنني أريد  
أن أعرفك على صديقتي».

«عندك صديقة في لاهاي؟» سألت مثل طالب في فصل  
لتدريس اللغة الكرواتية للأجانب.

أجاب قائلاً: «ما الأمر الغريب في ذلك. هذا لا يختلف عن  
القول «عندي صديقة في بيلوفار».

داهمتني نوبة مفاجئة من الغضب علقت ككرة في حلقي، وقد  
قمت بمحاولات عدة للتنفس بعمق.

قال مازحا: «لا تنفثي أنفاسك في وجهي الآن».  
بصقت الكرة غير المرئية من فمي وتمكنت من التنفس أخيرا.  
توقف إيجور أمام متحف موريتسهويس.  
«تأخذني إلى متحف آخر؟»

رد قائلاً: «هذا هو المكان الذي تعمل فيه صديقتي».  
«صعدنا درجا خشبيا مغطى بسجادة حمراء سميقة. عند  
نهاية الدرج انعطف «إيجور» إلى اليسار. علّقت على جدار  
الغرفة الأولى بجانب الباب لوحة «فيرمير» الشهيرة «فتاة بقرط  
من اللؤلؤ».

«إذن، تلك صديقتك!».

«أجل، هذه صديقتي».

كنت أعرف تلك الصورة - فقد جئت هذا المتحف من قبل - ولكنني لم أبج بذلك. لقد حبست الصورة أنفاسي. تبدو اللوحة الأصلية تقليدا باهتا للوحات المستسخة الكثيرة. في أول مرة رأيت اللوحة، اندهشت من إغراق اللون الأزرق الفاتح في عمامة الفتاة واللون الذهبي في ملابسها، كانا فاتحين أكثر بكثير من اللوحات المقلدة اللاحقة.

قال بحذر: «أنت تشبهينها بعض الشيء».

«لم أعد غاضبة منك. فقد حصلت على درجة الامتياز في الفصل، ولا تحتاج إلى أن تتملقني».

«ربما تكونين أختها الكبيرة. لا، ليس هذا. هناك شيء يعبر عنه وجهك. إنه يذكرني بالسمك الإنساني».

«كيف لك أن تقول مثل هذا الشيء! هل سبق أن رأيت السمك الإنساني؟»

أجاب معترفا: رأيت صورته فقط».

«أما أنا فرأيتَه. عندما كنت طفلة، ذهب تلاميذ المدارس اليوغسلافية الابتدائية في رحلة للكهوف في بوستيانا».

«إذن؟ كيف هو شكلها؟»

«مثل شيء يعيش في كهف. إنها فريدة من نوعها».

«آه، هذا ما أسميه بالوصف العام».

«حسنا، إذن. يبلغ طول السمك الإنساني ما بين عشرة، وخمسة وعشرين سنتيمترا، وهي مخلوقات برمائية منبوذة. هي

حالة فريدة من التحول الفاشل. تتنفس من خياشيمها بشكل رئيسي، ولكنها تستطيع استخدام جلدها للتنفس أيضا. عمياء، ولها أذرع، وأرجل نوعا ما، يبدو أنها تم التخلص منها مع مرور الزمن: فالأرجل مجرد جدعتين، والأذرع تنتهي بأيديها ثلاثة أصابع. يبدو أنها تستطيع البقاء من دون طعام لسنوات عدة، وعمرها طويل بشكل لافت - فيمكنها العيش لمائة عام أو أكثر. ليس لها لون معين، وجلدها الأبيض الباهت شفاف. يمكنك رؤية الخياشيم المحمرة قليلا والشرابين الدقيقة جدا من خلال جسمها، بالإضافة إلى قلب صغير. باختصار، إنها هجين فاشل ما بين السحلية، والسمكة، والجنين البشري. لقد كانت السمك الإنساني معجزة يوغسلافيا. كان ينبغي علينا أن نضعها على علمنا بدل النجمة الحمراء. إنها «إي. تي». خاص بنا».

قال بالإنجليزية: «رائع جدا، يا رفيقة».

«أوه، هناك شيء آخر. أعتقد أنها توالدت في المرحلة اليرقية، لكنني لست متأكدة».

«من أين لك كل هذه المعلومات؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. وهناك شيء آخر...».

«ما هو؟».

«السمك الإنساني آكل لحوم البشر. فهناك أوقات تأكل فيه صفارها لسبب ما».

قال إيجور، وقد بدا أن عقله في مكان آخر: «حسنا، حسنا. إذن أنا محق بعد كل هذا».

«ماذا تقصد؟».

«خرجت فتاتي من الكهف فريدة من نوعها، نموذج متوطن».  
«أخبرني بالمزيد عنها».  
«أكثر ما أحب فيها لون بشرتها. إنه بلون أعمدة الرواسب  
البلورية الهابطة في المغارات».  
«تقصد أعمدة الرواسب الكلسية الصاعدة، أليس كذلك؟».  
«توقفي عن ذلك!».

«لكنني أحب الطريقة التي تصفها بها. أخبرني بالمزيد».  
«أشعر بأن بشرتها جافة، ولكنها رطبة الملمس. أحب تعبيرها  
اللطيف، المرن البأس. والثغر نصف المفتوح، والطبقة الجافة  
اللامعة على شفتيها، وقطرة الرضاب على جانبيه. وتلك النظرة  
الندية، والدمعة التي على وشك أن تذرف. وتلك الازدواجية  
الساحرة للغياب، والحضور الدائم في العيون. إذا نظرت إليهما:  
فستبدوان أنهما تتبععانك. وتلك الياقة البيضاء التي تحتضن  
عنقها الرقيق. وذلك الوجه الصغير الجميل الذي يتلهف  
للارتواء بين أيد دافئة، واقية - أو تحت المقلصة... هناك شيء  
لم يكتمل عنها بعد. هي تشبه أيضا السمك الإنساني بتلك  
الطريقة. أتعرفين؟ أنه ليس لديها حواجب. فتاتي يرقة جميلة  
تتنظر التحول».

أخذني «إيجور» الذي كان يقف خلفي من كتفي وحركني ببطء  
نحو اللوحة.

«انظري الآن بتمعن إلى القرط في أذنها».

«حسنًا...».

«ماذا ترين؟».

«لا شيء. اللؤلؤة فقط».

كان باستطاعتي أن أرى انعكاسنا في الزجاج الذي يقي اللوحة. بقيت يد «إيجور» على كتفي.

«انظري بتمعن أكثر».

«لا أرى شيئاً».

«هذا ما ظننته. انتظري لحظة. لدي مكبر للأشياء».

«لديك مكبر؟».

«نعم، عندي واحد في جيبى».

«ماذا لديك أيضاً في جيبك؟».

رد قائلاً: «هذا ليس من شأنك. فقط انظري إلى اللوحة من خلال المكبر».

«أرى اللؤلؤة...».

«وفي داخلها؟».

«انعكاس».

«محبوبتي، أنت حقاً عمياء! انظري مرة أخرى».

«لا أعرف. في مثل هذا النوع من الأشياء، قد تتوقع أن ترى صورة تمثل الموت».

«ليس لديك فكرة. اللؤلؤة تحتوي على صورة لوجه «فيرمير»!

كان وجهه متهللاً من السعادة.

سألته: «ما الذي يجعلك تظن ذلك؟».

«أتقصد أنك لم تريها بعد؟».

«كلا. كفى، قل الحقيقة. أنت تخترع كل هذا».

«أليس ذلك رائعاً؟».

«حتى لو افترضنا وجود ذلك الوجه، ألا يمكن أن يكون تقليدا في ذلك العصر؟».

واصل كلامه: «الرسام، هو من أتى بها إلى الحياة، موجود في اللؤلؤة التي في أذنها!».

قلت: «هناك من يقول إن الفتاة في الصورة هي «ماريا» ابنة «فيرمير»، وفي هذه الحالة يمكن النظر إلى ذلك على أنه التمثيل الرمزي الأول للحامض النووي».

قال إيجور: «وهذا سيجعل الصورة أكثر روعة! الأب والابنة يتحدان في واحد معا».

«لكن هناك أيضا من يقول إن الصورة لشخص مختلف تماما، أو لشخصية خيالية. لقد رسم «ريمبراندت» صورة لمرتدي العمامة أيضا. يمكنك رؤية واحدة منها هنا في هذا المتحف».

«أولئك الذين يقولون إنها ابنته محقون».

قلت مازحة: «إن كان الأمر كذلك، «ففتاتك» ترتدي «أباها» في أذنها».

قال مقاطعا: «أخبريني، من ترتدين في أذنك؟».

«لا أعرف. تماما مثلما هي لا تعرف أنها ترتدي صورة موجودها، وأباها المفترض في أذنها. ولكن هذا ما ينطبق علينا أيضا. ليس كل من يعيش هذه الحياة يحتفظ في جيبه بعدسة مكبرة».

«شارلوك هولمز فعل ذلك».

كنت أشعر بثقل يده على كتفي وبنفسه الدافئ الرقيق يداعب



مؤخرة عنقي. اعتدلت في وقفتي. أزحت يده بحذر واستدرت  
مواجهة إياه.

سألته: «وأنت؟ أين وشمك؟».

رد: «ليس لدي وشم».

«كان ليوروش واحد».

«يوروش؟».

«إنها علامة فارقة، العار الذي ورثه عن أبيه».

«ذلك الرجل مجرم، وليس أبا».

«أتذكر الاستبيان الذي وزعته في أول يوم في الفصل».

«نعم، أتذكر ذلك الاستبيان الآخر»، رد مركزا على كلمة  
«آخرق».

«حسنًا، كانت إجابة «يوروش» عن سؤالي حول ما يتوقعه من

الفصل الدراسي هي «أن أصحو».

«تبدو مبتذلة بعض الشيء وجهة نظري. مع ذلك لم يكن

«يوروش» - كيف أصيغها - لم يكن الأكثر ذكاء في السقيفة».

«ماذا تقصد بذلك؟».

«لم يكن ذكيا بوضوح».

«قولك هذا ينقصه اللباقة».

«آسف».

«لقد أرسل يوروش كثيرا من إشارات الاستغاثة. لكننا

لم نلاحظ ذلك، أو أننا لم نكثر بذلك. إنني أتحمل كامل  
المسؤولية».

«والآن يؤنبك ضميرك، أليس كذلك؟».

«حقائب اللعب تلك... كانت رسالة، رسالة لم نحل رموزها. كانت أمامنا مباشرة، وكان هناك أنواع كثيرة من الإشارات في الهواء. لقد أصابنا العمى. إنها مثل صورة «فيرمير» المفترضة عندك. ربما أن العالم سيبدو مختلفا لو تجولنا وفي جيوبنا عدسات مكبرة. أو لو امتلكنا الموهبة التي أعطيت للشخص الخيالية، موهبة فهم لغة النبات والحيوان، أو حتى فهم اللغة البشرية فقط، فهم كيف يتكلم الناس».

قال إيجور: «انسي ذلك يا رفيقة. الناس لا يتكلمون؛ الناس يتكلمون كلاما فارغا. لنوقف النقاش الآن. إنهم يغلقون المتحف. حان وقت الذهاب. هل لي أن أدعوك إلى تناول الشوكولاتة الساخنة؟».

كنا آخر المغادرين، ولكنني تمكنت من شراء تذكار من متجر بيع الكتب في المتحف: مثقلة زجاجية بيضاوية. كان تحت المثقلة صورة مقلدة لفتاة «إيجور».

كان الثلج الخفيف الناعم يتساقط عندما خرجنا من المتحف. عبرنا الساحة الصغيرة ودخلنا إلى الكافيتيريا. وجدنا مقعدا بجانب النافذة، وطلبنا الشوكولاتة الساخنة. والآن ما إن بدأت الحديث عن موت «يوروش»، لم يعد يمكنني التوقف. قلت: «ربما أكون أنا من سحب الزناد».

رد إيجور بسرعة: «أي زناد؟».

«أقصد أنني قد أكون الملامة بالنسبة إلى موت «يوروش». أرسل إليّ إشارة، ولكنني فشلت في حل رموزها».

قال إيجور: «هذا حمل ثقيل! يجب أن تتوقفي عن إضفاء

الرومانسية على موت «يوروش». ما الحكمة في ذلك؟ هل يجعلك ذلك تشعرين بأي راحة؟ الله وحده يعلم لماذا قتل نفسه. ربما أصابه مس من الجنون. ربما سئم من الرحلة وقفز من القطار. ربما كانت تلك طريقته في وداع من حوله. أخبريني، لماذا اخترتني أنا لتزعجيني بسماع كل هذا؟».

«لأنه لا يوجد أحد آخر يمكنني مضايقته».

«أمسكي أعصابك، هل يمكنك هذا؟ تلك الدموع ستفسد الشوكولاتة الساخنة».

«سأتوقف عن ذلك. أعدك. سأتوقف».

«أتمنى لو أعرف أي فيلم أوقعت نفسي فيه - البكاء عصرا؟ أو ربما تكون رواية «لدانتيل ستيل».

قمت بمسح دموعي.

«أنت فتاة طيبة! كنت أخشى أن تتحولي إلى حبار».

ضحكت، وساعدني الضحك على الارتياح المؤقت.

قلت بحذر: «أخبرني بعض الشيء عن نفسك».

«ماذا تريد أن تسمعي؟».

«شيئا عن حياتك. هل والداك ما زالا على قيد الحياة؟ أين

تسكن؟ مع من؟ هل لديك صديقة؟ من هم أصدقاؤك؟».

«أنت وأسئلتك الخرقاء من جديد! حسنا، أعرف ما تتشدينه،

ولا داع لقلقك. بداية، أنا لست من يقتل نفسه من أجل مجرم

مثل الذي رأيناه في المحكمة. والأهم من ذلك أنني لست ممن

يفكرون في الانتحار. فأنا موسيقي، وحاد الذكاء».

لم نتحدث كثيرا ونحن في القطار في أثناء عودتنا إلى

أمستردام. كنا مستغرقين تماما داخل أنفسنا في أشياء مختلفة: فكان «إيجور» يقرأ صحيفة هولندية؛ بينما كنت أنا أجري بيدي فوق المثقلة البيضاوية غير الملفوفة، مفكرة في الصور التي كانت أُمي قد وضعتها في خزانة الأواني الصينية. لم تحتو تلك الصور على صورة لوالدي. لم أستطع أن أتذكر والدي. إذ لم يكن في مقدوري ذلك. كنت في الثالثة عندما أقدم أبي على الانتحار. رفضت أُمي الحديث عن ذلك. لقد أحرقَت جسورها ولم ترد أن تعيد بناءها من أجلي. فأنا لا أعرف أي شيء عنه، ولا حتى اسمه. وإيغالا في طمس أي أثر له، سمّتي باسمها. ولا عجب أنها لم تحتفظ بأي أثر له في معرض خزانتها للأواني الصينية. كانت متيقنة تماما من أنها «أنقذتني» بإخراج والدي من سيرتي الذاتية. أنقذتني من ماذا - علمه عندها فقط. فقد فعلت كل ما في استطاعتها لملء جميع الشقوق التي يمكن أن أمر من خلالها، وأزالت كل الخيوط التي يمكن أن أجمعها. لقد رتبت جزءا كبيرا من ماضي، واحتلت مكان أبي أيضا وملأته بوجودها.

كانت اللؤلؤة غير المرئية في أذني فارغة. أمعنت النظر في سطحها الكدر باحثة عن صورة سحرية. لم أستطع التأكد من أن المشهد الذي برز في الصورة من ظلمة عميقة دامسة، كان قد حدث فعلا، أم أن الرجل الذي ظهر في الصورة كان والدي. لكن ربما كان هو. أنا في الثالثة من عمري، وهناك رجل يحملني على ظهره، وأنا متشبثة بشعره. الرجل يمسك بحذائي وكأنه نهايات وشاح يلفه حول عنقه. نحن نشق طريقنا عبر الثلج المتراكم العميق. إنه وقت الشفق، وهناك لمعة سحرية في كل شيء. فجأة

يحوّل الرجل يده إلى كتفيّ ويسقط في الثلج بحركة بطيئة.  
أشعر بسعادة لا يمكن وصفها.

قال إيجور رافعا رأسه عن الصحيفة: «أنت تخربشين أذنك».  
«أنا أقوم بذلك؟».

«بماذا تفكرين؟».

«أوه، لا أعرف ... أنا لا أفكر في شيء، حقا».

في المحطة، ذهبنا كل في طريقه. استدرت لأرى قوامه الفارع  
وقد انحنى قليلا تحت وطأة حقيبة الظهر، ويداه في جيبه.  
بدا في الظلمة من الخلف وحبّات الثلج تنتشر على ظهره أكثر  
عنقوانا ورجولة.

صحت: «سأراك في الفصل يوم الإثنين».

لم يستدر ولم يرد؛ إذ اكتفى برفع ذراعه ببطء ليؤكد سماعه  
لي.

أخيرا دعيتي إنيس، وسيز إلى المنزل. بصراحة لم تكن إنيس صديقة مقربة إلي بشكل خاص. لقد كان مجيئي إلى أمستردام محض مصادفة. صادف أن كانت صديقة مشتركة لنا في أمستردام، وكانت تلتقي إنيس من وقت لآخر، وبينما كانتا تتحدثان عن معارفهما وعملهما في الماضي، أعطت تلك الصديقة عنواني لإنيس. كنت قد درست وإنيس معا بعض الوقت، وذهبنا في مواعيد غرامية معا لبعض الوقت. كان اسم صديقها فالديك، وكان جوران صديقي. كانت تعرف فالديك من أيام المدرسة، وقد تزوجا وهما في مرحلة البكالوريوس في الجامعة. لقد اختفيا من «زغرب» بعد تخرجهما، وسرت إشاعة بأنهما ذهبا إلى أمستردام. تدبر فالديك أموره في الجامعة بالمتاجرة بأعمال الفنانين الكرواتيين الهواة، خاصة في إيطاليا. والآن افتتح معرضا له في أمستردام.

كنت آمل أن تدعوني إنيس إلى منزلها حالما وصلت إلى أمستردام. فقد اتصلت بها مرات عدة مقترحة عليها اللقاء، لكنها كانت دائما تعتذر بلباقة بحجة أن لديها الكثير من المشاغل، وأن عليها الاهتمام بالأطفال قائلا: «حسنًا، سنلتقي، نحن الاثنان فقط، لنعيد ذكرى الأيام الخوالي؟». حاولت أن أتذكر إن كنا فعلا أمضينا أي وقت معا من دون وجود جوران وفالديك.

كانت إنيس فتاة زغربية بامتياز، جذابة، تعتني بنفسها بشكل مفرط، وكان لديها أخصائية تجميل (ينبغي عليك الذهاب

إليها. لن تتعرفي على نفسك!) ومصففة للشعر، وطبيب أسنان، ومصممة أزياء. اعتادت أن تبتاع ملابسها في لندن («فمارقة تريستي للفلاحين!»). كان كل من كانت تعرف في خدمتها، من المرأة في مكتب التأشيرات («فيكيكا أنجرت تأشيراتنا في خمس دقائق!»)، من مجموعة الأطباء إلى مصففة الشعر إلى القصابين وعاملات التنظيف («ميليكا ممتازة، فهي تنظف النوافذ جيدا، ولا أحد يتفوق عليها في كي الملابس. وعندما تحتاجين إليها، تجدني بالانتظار»). كان يزعجني ويدهشني في الوقت نفسه تأقلمها الحميم مع العالم من حولها، وقدرتها على تطويعه بالكامل لإرادتها، وشعورها بالارتياح المطلق مع من حولها - وكأنها سكين يقطع في الزبد - وعدم اكتراثها التام بمن يختلف معها، ومواكبتها لحياة الراشدين وهي لم تزل طالبة في الجامعة - وكأنها تتبوأ وظيفة بمرتب عال. كانت تتمتع بصفات «الفتاة الزغربية»: أنوثة ترثها الفتاة عن أمها، أو تكتسبها من ولوج الطبقة الاجتماعية الراقية، والنبرة العالية في بعض الأصوات، وميل للتركيز على المقطع الأخير في الكلمة، والأداء المنغم بين علو وانخفاض الصوت صُم ليوضح أنها كانت مهتمة بمحدثها مهما كان. ولكن، بالرغم من أن ذلك الصوت كان مفعما بالعاطفة والتوافق، إلا أنه لا يترتب عليه أي التزامات.

لم أكن مشتاقة كثيرا لرؤيتها، ولكني تضايقت قليلا من أنها لم تتصل ولو مرة واحدة في الأشهر الماضية منذ عودتي إلى أمستردام. وضعت المساحيق لأول مرة منذ زمن طويل، وارتديت الأقراط، وحذاء بكعب عالٍ. بينما كنت أبحث عن منزلها في

شارع «بلوم»، شعرت بشيء من الخجل من رغبتى بالذهاب إليها متبرجة. كنت أريدها أن ترانى فى أحسن حال، مستخدمة الملابس لإخفاء واقع الحال.

لم تتغير إنيس قيد أنملة. عانقتى عند الباب، وأخذتني من ذراعي إلى داخل المنزل وهي تثرثر («تانيكا! استديري لكي أراك بشكل أفضل! يا إلهي، تبدين رائعة حقاً! كفتاة فى الخامسة عشرة! وذلك الفستان! هل اشتريته من هنا؟ ما زلت أذهب إلى لندن عندما أحتاج شيئاً. ينبغي أن تشاهدي «سيز» وهو يستشيط غضباً عندما أذكر لندن! يقول لي: «ما الذى يجعلك تعتقدين أنك لن تجدي واحداً هنا». لن تجدي مثله هنا. إنهم يبذلون كل ما فى وسعهم فى محلات الملابس فى أمستردام، ولكن دون جدوى. فأى فتاة من بلدة «فيروفييتيكا» تلبس بشكل أفضل من المرأة الهولندية العادية. أنتِ لاحظت ذلك أيضاً. أنا متأكد من ذلك»).

لو شاهدنا أى شخص لاعتقد أننا صديقتان قديمتان، التقينا بعد فراق طويل، وقد جعلني حديثها المتواصل أعتقد ذلك أيضاً. لقد شعرت بأنني لم أقم بالواجب المطلوب بإهمالي تلك الصداقة.

أخذتني إنيس فى جولة بالمنزل قبل أن نجلس لتناول الطعام. أرقتي أولاً غرف الأطفال. («الأطفال الآن مع والدة سيز. أتمّ «بايت» السابعة لفورهم، وماريكي ثلاث سنوات. هذه صورة لهما، بايت وماريكا، كما أدعوها»). كان المنزل واسعاً بأثاث بسيط، بالرغم من أن الجدران مغطاة بلوحات لفنانين كروايتين سُدج،



قالت وقد لاحظت نظرتي: («أردت شيئاً يذكرني بالوطن». «وشيئاً لأري الهولنديين أننا لسنا متسولين، أنت تعرفين ما أقصد؟»). لمحت عيناى أعلام الحداثة الكرواتية على رفوف الكتب - الأعمال الكاملة «لكرليزا»، و«يويفتش» و«ماروش» («أحب أن أقرأ قصيدة لليويفتش قبل أن أخلد إلى النوم. ألا تقومين بذلك؟ أنت تقرئين أكثر منى بكثير، أنا متأكد من ذلك. أنت لا تستطيعين تخيل حجم الإرهاق الذي يسببه الأطفال لي!«). كانت ستائر النوافذ في المطبخ مصنوعة من شريط الزينة السلوفيني، وعلى عتبة النافذة كان يوجد رف خشبي يستقر عليه كعكة زنجبيل. وهناك وضعت الهدية التي أحضرتها لها، علبة شيكولاتة «الكراش»، العلبة التي على شكل جواز السفر الكرواتي.

سألتني في المطبخ على استحياء: «وهل اختفى فجأة هكذا؟». «من؟».

«جوران، طبعاً».

«لم يختف. إنه في اليابان».

«هل تتواصلين معه؟».

«كلا».

«من كان يتوقع ذلك! الزوجان المثاليان! لا يمكنني تخيل حدوث ذلك لك!».

«على كل حال، هذا ما حدث».

قالت مازحة: «من مصلحتك أنك لم تتورطي مع «ميلوسوفيتش» هذا».

لم أرد. كنت مندهشة من أنها تذكرت أن جوران كان مصنفا رسميا على أنه صربي.

«لا تغضبي مني! فأنا كنت أمزح فقط. أستطيع رؤية ما في داخلك، يا صديقتي العزيزة. لقد أغلقتِ عليه قلبك. قال إنكم لن تفترقوا. لكنه حر طليق الآن. والمفتاح لم يعد في حوزتك». لم يكن باستطاعتي سوى الابتسام من تلك العبارات الهزلية، واختفى التوتر فجأة.

قالت: «لو كنتِ تزوجتِ كرواتيا كما فعلت أنا، لكان أمر التخلص منه أسهل لك. وكنت متزوجة ثانية الآن». «لقد فقدت فرصتي».

«سقط فالديك في الوحل ساعة وصولنا إلى أمستردام. فقد انخرط في الحشيش وما شابه ذلك. أعني أنه تورط حقا». لقد لفظت كلمة «الحشيش» كتلطيف للتعبير، وقالته بهمس وكأن أهلنا ربما كانوا يتنصتون علينا. «أين فالديك الآن؟».

«حتى الشرطة لا تعرف أين هو. لكني لا أكرث بهذا الأمر. لم يعد فالديك يعني إطلاقا... حسنا، لنذهب لتناول الطعام الآن».

كان «سيز» يتكلم بلغة كرواتية لائقة. («أترين ما صنعت منه؟ لقد قمت بوظيفتي على أحسن وجه، أليس كذلك؟ بالرغم من أن ذلك من فعل والدتي، أليس كذلك يا سيز؟ أوه، على فكرة، ما أخبار عائلتك؟ لا أعرف حتى الذين مازالوا موجودين من طرفك في أرض الوطن...»). لم تتوقف إنيس عن الكلام طوال وجودي

هناك. كانت مضيضة مثالية، إذ وضعت على المائدة أحسن ما لديها من الأواني الفضية («لقد أخرجتها من أجلك، لأذكرك بالطريقة التي اعتدنا أن نعيشها، وقد أتتني من جدتي»). إنه نبيذنا وزيت زيتوننا. («نذهب إلى الوطن كل صيف. لدينا مكان صغير مناسب في جزيرة كورشولا. لا بد أن تأتي لرؤيته يوما ما. ثم نعود من هناك محملين مثل الفجر بالنبيذ، وزيت الزيتون، ولحم الخنزير المجفف، وكل ما يمكن أن تتخيليه. يجب سيز الذهاب إلى هناك كثيرا، وكذلك الأطفال. ويهمني جدا أن يتحدث الأطفال اللغة الكرواتية. وكذلك يهتم أمي، طبعاً. هي تقضي شهرين كاملين كل عام مع الأطفال»). استمرت بالحديث من دون توقف عن الشاطئ، والأطفال، ووالدتها، وأم سيز، الهولندية. كان من غير المحتمل أن أتحدث وسط هذا الصخب. كان من الممكن أن يصيبني الملل في مناسبات أخرى، ولكنني وجدت الحديث مريحا للأعصاب في ذلك المساء. كانت الثثرة الخجولة بغنتها المميزة أشبه ما تكون بالبلسم. لأول مرة منذ وقت طويل بدت الحياة «عادية» بالنسبة إلي. عاد الزمن كله مرة واحدة، وداوى الجراح. كنت أقف على أرضية صلبة أخيراً، مستمتعة بالدفع الحاني في كلمات إنيس. للحظة تخيلت أننا في «زغرب». صحيح أننا تقدمنا في العمر بعض الشيء، وأنا بصحة سيز وليس فالديك، ولكن جوران سيعود مباشرة، فقد ذهب للتو لإحضار زجاجة أخرى من النبيذ...

«يجب أن تجري كعكة بذور الخشخاش. لقد صنعتها لك خصيصاً. شكراً لله على الحكم الملكي للسلالة النمساوية/

المجرية، إذ من دونهم ما كنا عرفنا ماهية الحلوى الحقيقية، إن كنت تعرفين ما أعني. كان علي أن أحضر بذور الخشخاش من «زغرب» أيضا. لم يعد ممكنا الحصول عليها هنا، ولا حتى من - ماذا ندعوهم؟ - آه، الأتراك». من الواضح أنها أرادتني أن أفهم إشارتها العنصرية الخفيفة، وأن أومئ بقبولها.

غردت: «فطائر، وبقلاوة، وكعكة الخشخاش».

قالت متذمرة: «أنتِ والحنين إلى يوغسلافيا». فاجأتني تلك الملاحظة. قالتها بنبرة وكأني لم أتوقف عن الحديث عن الوطن. بدأت إنيس باستخدام ضمير الجمع عند تناولنا القهوة.

«نحن سعداء أننا استطعنا أن نساعدك. من النادر جدا أن يساعد الناس بعضهم بعضا هذه الأيام. لقد كنت دائما الأفضل في صفنا في المدرسة، لذلك قلت لسيّز أنك الشخص الذي يستحق الدعوة. وقد سمعنا كثيرا عن طلبتك هنا. وعن ذلك الفتى. إنه لأمر مرعب!».

لقد فوجئت مرة أخرى. أحسست أن الحديث سيقود إلى مكان ما.

رددت قائلة: «كان اسم ذلك الفتى يوروش».

قالت: «لكل جيل انتحاره».

«ماذا تقصدين؟»

«أقدم واحد على الانتحار ونحن في الجامعة، هل تذكرين ذلك؟ ماذا كان اسمه؟»

«نيناد».

«هذا صحيح. ذهب إلى الهند وعاد ليقتل نفسه. يا إلهي!»

هل تذكرين كل الناس الذين ذهبوا للحج في الهند؟ أما نحن، أنا وأنت، فلم ترق لنا تلك الأفكار الهندوسية قط، أليس كذلك؟».

سألني سيز مقاطعا إنيس، وقد أسعدني ذلك: «هل اكتشفت أي شيء بخصوص ذلك الطالب؟».

أخبرته بكل ما أعرف.

ثم وجه الكلام إلي: «يؤسفني أن أخبرك هذا. لدي بعض شكاوى الطلبة منك».

نزلت عليّ تلك الكلمات كالصاعقة.

«أي نوع من الشكاوى؟».

«للطلبة الحق في تقديم الشكاوى إن شعروا بأن الأستاذ لا يقوم بواجبه، وينبغي علينا أخذ شكاواهم بجدية. المسألة أن الطلبة غير راضين عن الطريقة التي تدرسين بها الفصل الدراسي».

خرجت كلماتي بصعوبة: «هذا ليس صحيحا».

«أظن ذلك صحيحا».

«مم يشكون؟»

«يقولون إنهم لا يقومون بأي شيء له علاقة بالتخصص. يقولون إن الأمر مضيعة للوقت».

«هم يقولون ذلك؟»

«يقولون إنه ليس لديك برنامج واضح، وأن محاضراتك تتسم بالفوضى. فهم لا يذهبون معك إلى المقاهي فحسب، بل إنك تلزمينهم بفعل ذلك».

«من يقول ذلك؟».

قال سيز بوضوح: «ليس لي الحرية لإخبارك بذلك». «لا يمكنك القول إن الجميع اشتكوا مني!». لم يجب سيز عن سؤاله.

حاولت إنيس أن تواسيني. قالت إنني كنت عمياء، لأنني رفضت أن أرى أن الأمور قد تغيرت. الناس هنا في هولندا لم ينحازوا إلى طرف معين، إذ رأوا أن المسألة بالنسبة إليهم هي «واحد زائد واحد يساوي اثنين»، أليس كذلك؟ قالت إنني كنت طيبة أكثر من اللزوم، وأفردت في الاقتراب من الطلبة. «وأنت تعرفين المثل القائل: من يلعب بالنار، يكوى بها». «ارتعدت من سماع عبارة «يكوى بها». أخبرتني بأن هناك مقترحا قد تم تقديمه إلى وزارة التربية الهولندية، وقد حضره سيز بنفسه، يقضي بفصل اللغة الكرواتية عن اللغة الصربية في جميع الجامعات الهولندية، وهو أمر قد «تأخر كثيرا في ضوء الواقع السياسي الجديد». وإذا ما قبل مقترح سيز، فإنه، اعتبارا من الخريف المقبل، ستبدأ جامعة أمستردام بتدريس اللغة الكرواتية وآدابها، بينما ستبدأ جامعة «جرونيجن» بتدريس اللغة الصربية، وهو أمر طبيعي لأن تلك الجامعة تدرس اللغة البلغارية. وهذا يعني أن لدي فرصة كبيرة بالحصول على وظيفة دائمة في شهر سبتمبر. كلا، لم يكن لديهم أي مرشح آخر، لا أحد إطلاقا. لم يكن بإمكانها الحصول على تلك الوظيفة بسبب الأطفال، ولأن القوانين لم تسمح بأن يعمل الرجل، وزوجته في القسم نفسه، خاصة إذا كان أحدهم رئيسا للقسم. هذا بالإضافة إلى أنها لم تضع اللمسات الأخيرة على أطروحتها قط. قالت إنه ينبغي

عليّ أن أفكر بنفسي، فقد بدأت أتقدم في العمر، ولا يعقل أن تراودني العودة إلى زغرب. لن يكون بإمكانني الحصول على وظيفة هناك، وأنا أعرف طبيعة «أهلنا». «عندما ترحلين، فأنت تعتبرين رحلت للأبد. وهم محقون بطريقتهم. وتسقطين بين مقعدين، ولن يشفع لك أن لديك ردفا كبيرا». أجل، ردف. كانت تلك الكلمة التي استعملتها، ومجددا شعرت بتغير مفاجئ. كان سيز معي تماما، ولكن سيز ليس وحده. وحساسة الطلبة أكبر بكثير مما كنت أدرك فيما يتعلق «بالقضايا القومية». هكذا كانت إنيس مندهشة من سذاجتي في هذا الأمر وعدم قدرتي على رؤية الأشياء على حقيقتها في ضوء «الواقع السياسي» الجديد. ثم كانت مسألة ذلك الصربي المسكين يوروش الذي أقدم على الانتحار. انظري إلى تلك الأمور المرعبة التي واجهها أولئك الشباب حتى بعد أن ظنوا أنهم قد فروا بجلدهم. قال سيز: «نحن لم ندعك إلى هنا لإعطاء جلسات في العلاج النفسي».

«أنا لا أعطي جلسات في العلاج النفسي! أنت تعرف المستويات الثقافية المختلفة لديهم. كان عليّ أن أجد قاسما مشتركا بينهم في الفصل. لقد سلبوهم كل شيء، ألا ترى ذلك؟ كيف لي أن أفرض الكوميديا على من نجا للثمن من الجحيم؟». تمتت إنيس قائلة: «ألم يسلبوك كل شيء. لقد فعلوا ذلك، طبعاً. اشكري الله أن يوغسلافيا ذهبت إلى غير رجعة!». «أنت لست مدربة لعمل ذلك، ولا تتقاضين الراتب من أجل هذا العمل. نحن لدينا الخبراء لمثل ذلك العمل في هذا البلد.

إنهم المعالجون النفسيون. وظيفتك هي أن تقومي بما طلبناه منك هنا، وندفع لك راتباً من أجله».

«أصغي إلى «سيز» يا عزيزتي. إنه يراعي مصلحتك الحقيقية بصدق».

«لقد أعطيت الجميع درجات عالية من دون وجه حق. وقد لاحظ كل من في القسم ذلك. لا يمكنك القول إن الجميع كانوا متفوقين إلى هذا الحد».

تمتت: «لقد كانوا فعلاً».

«هذا أنت! «تانيا» صاحبة القلب الكبير! لقد كانت صاحبة القلب الكبير دائماً يا سيز. أتذكر أنها مرة خلعت «بروشها» وأعطته لي عندما عبرت عن إعجابي به».

لم أتذكر شيئاً من هذا القبيل، وتساءلت إن كانت قد اخترعت تلك القصة، أم أنني قد نسيتها.

«حسناً، الآن تعرفين أن رشوتهم بالدرجات المرتفعة لا تجدي نفعا. هم يصرون على وجود منهاج دراسي. أعتقد أنك استهنت بقدراتهم. إنهم يأخذون الأمور بجدية في دراستهم، وهذا يسعدني».

بدا عليها الخجل من جديد، وكأنها كانت تخاطب طفلاً: «أصغي إلى سيز يا عزيزتي. إنه يعني ما يقول».

«أنا لم أرشهم! كيف يفوتك أن ترى أنهم في مرحلة تعاف! نحن جميعاً في مرحلة تعاف! وأنا لا أشك إطلاقاً بأن ما فعلته معهم أهم بكثير من أي منهاج أكاديمي». ولكن على الرغم من أنني تكلمت معبرة عن رأيي، كنت أعرف أن كلماتي لن تجد آذاناً صاغية.



هزّ سيز كتفيه.

«إن كانوا يعتقدون أن ما تقولينه أكثر أهمية، فلماذا اشتكوا من غياب المنهاج الدراسي؟».

بالنسبة إلى سيز، فإن موقفه ليس إلا مجرد عذر واهن لفشلي في القيام بواجبي الأكاديمي. دفع شيء في حنجرتي وجعلت أنتحب بتشنج. شعرت بأنني خدعت من جميع الأطراف: فقد خدعني طلبتي، وخدعت نفسي بالصياح في حضرة سيز وإنيس. لم أصدق، لم أصدق حقاً أن أحد طلبتي ذهب ووشى لسيز بما كنا نفعله في حجرة الدراسة. أم هل كان هناك أكثر من واحد فعل ذلك؟ لقد استخدم سيز صيغة الجمع. هل يمكن أن يكون الطلبة جميعهم ذهبوا إليه؟ شعرت بالخجل، والنبد، والحرقة، والغضب. لم أعد أعرف لماذا أستمّر بالبكاء، ولكنني لم أستطع إيقاف دموعي. وكنت في درجة من الفزع لحد أنني، برغم ما يبدو عليه الأمر من غرابة، وبدل أن أغادر ذلك المنزل مباشرة، فإنني لم أرد شيئاً سوى الانكماش على الأريكة، والبقاء هناك حتى الصباح. إن فكرة العودة إلى شقتي في الدور الأرضي ملأتني باليأس.

وفي خطوة تتم عن رغبة صادقة للمساعدة، جرت إنيس إلى الهاتف لطلب سيارة أجرة، معتبرة إياها بمنزلة سيارة إسعاف. «لن أجعلك تنتقلين من ترام إلى آخر وأنت في هذه الحالة!»، عندما وصلت سيارة الأجرة، مدّ سيز يده ليوصلني إليها. قال متلعثماً: «آمل أنني كنت واضحاً تماماً. سأراك الأسبوع المقبل في القسم».

قامت إنيس بمعانقتي.

همست قائلة: «سيكون كل شيء على ما يرام. صدّقيني يا تانيا. فقط نفذي ما يقول سيز. أنت تعرفين أننا نحبك ولا نريد شيئاً سوى الخير لك».

وبينما كنت أخرج من الباب، دسّت علبة صغيرة في يدي. «قسمت لك قطعة من كعكة الخشخاش إلى شرائح. يمكنك تناولها غدا صباحاً على الإفطار».

عندما بدأت السيارة بالابتعاد، رمتني بقبلة في الهواء، وتوارت إلى داخل المنزل.

في الصباح التالي لاحظت خدشاً طويلاً على ظاهر يدي اليسرى. كان الجلد أحمر، وكان الخدش يزداد عمقاً. شعرت بالخوف في البداية، غير مدركة كيف حصل ذلك. ولكن سرعان ما تذكرت بغموض أنني جلست لفترة طويلة في الكرسي ذي المسندين، وكنت أحرك يدي من الخلف جيئةً وذهاباً على روافد المدفأة. تساءلت كم من الوقت استغرق إحداث مثل هذا الجرح في يدي.

توقفت أمام الباب. قبل أسبوعين فقط كنت أسارع للدخول بكل حماس؛ والآن أبدو أفقر إلى القوة لعبور العتبة. أخذت نفسا عميقا وأمسكت بالحقيبة كترس ودخلت القاعة.

«أهلا وسهلا يا رفيقة. كيف كانت زغرب؟»

«هل أحضرت لنا الشوكولاتة التي وعدتنا بها؟»

«يسرنا عودتك. لقد كنا ننتظرك بفارغ الصبر؟»

أريكني ذلك الترحيب الحار والصادق. لم أعرف ماذا أقول. انتظرت حتى هدأ الترحيب، ومن ثم وزعت المنهاج الذي حضرته في عطلة نهاية الأسبوع. ضم المنهاج قائمة بالمحاضرات التي سألقيها حتى نهاية الفصل الدراسي. وحملت كل محاضرة تاريخا، وملخصا مقتضبا عن الموضوع الذي ستتم تغطيته. بعد ذلك وزّعت قائمة بالقراءات المطلوبة، والتي ضمت نحو مائتي صفحة كل أسبوع. أخبرتهم أنني سألتزم بالبرنامج بصرامة، وأنه يتعين عليهم أن يكونوا قد قرأوا النصوص قبل أن أتحدث عنها. وأعلنت أنه مطلوب منهم بحثان، وامتحان نهائي شفوي. وقلت إنني لن أتسامح مع الغياب مستقبلا، وأن الغياب المتكرر سينعكس على الدرجة النهائية.

صاحت ميليلها ضاحكة: «ما الذي يحدث هنا؟ أثمة نظام جديد في الحكم؟»

تجاهلت تلك الملاحظة.

تذمر ماريو قائلا، وعيناه تستعرضان القائمة: «كيف لنا أن

نقرأ كل هذه الكتب إن كانت المكتبة لا تملك إلا نسخة واحدة فقط؟».

أجبتهم: «يتعين عليكم تقاسمها فيما بينكم، أو تصويرها. لقد أمضيت أنا نفسي جزءا كبيرا من عطلة نهاية الأسبوع في مكتبة القسم لتصوير الكتب التي تظهر في أول القائمة. سأل سليم: «هل من المؤكد أن جميع الكتب في قائمة القراءات متوافرة في المكتبة؟».

«إن جميع الكتب في قائمة القراءات موجودة في المكتبة. وإلا لما أدرجتها في القائمة».

أعطيت نسخة خطة المنهاج إلى «سيز» أيضا. «مائتا صفحة في الأسبوع؟ أليس هذا مبالغا فيه بعض الشيء؟».

«لا، إطلاقا. الطلبة الأمريكيون يقرأون حوالي أربعمائة صفحة في الأسبوع. عدا ذلك، أنت من طلبت هذا، أليس كذلك؟» بدا ما ذكرته عن الطلبة الأمريكيين، وهو ما قرأته في مكان ما، قد فعل فعله. كان رد «سيز» هز كتفيه فقط.

كانت المحاضرات مخصصة لمسح مقارن موجز لتاريخ الآداب السلوفينية والكرواتية، والبوسنية، والصربية، والمقدونية، التي شكلت رحلة شاقة عبر حقل زاخر بالحقائق، والأسماء، والتواريخ، على الرغم من أنني خصصت بعض الوقت في آخر الفصل الدراسي لتحليل مواضيع العديد من الروايات الكرواتية. عدم التصديق علق على وجوههم لبعض الوقت. حاولوا إرجاع تصرفي على أنه نزوة، وسامحوني، على أمل أن تكون

النزوة مؤقتة فقط، وفي المرة القادمة ستعود الأمور كما كانت من قبل. من طرفي استمررت في تفحص وجوههم باحثة عن الشخص الذي اتهمني. في بعض الأحيان ظننت أنها ميليا، ثم نيفينا، أو إيجور، أو بوبان... قمت بعمل شاق في محاولة لمعرفة إن كان واحد منهم فقط، أو اثنان اتفقا معا. تخيلت ميليا، وإيجور وهما يقدمان تقارير منتظمة عما يجري في حجرة الدراسة إلى سيز. أو سليم وهو يجري إلى سيز ليخبره عن الأشياء المجنونة التي كانت تحدث، متمثلة ببعث بلد دمرها مواطنوها باسم الضرورة التاريخية. لكن أليس من الممكن أنها كانت جوهانكي؟ أو أنا؟

كنت أغادر مباشرة بعد انتهاء المحاضرة. لم أذهب إلى مكتبي قط. فعلت كل ما أستطيع لتقليل التواصل معهم. وتدرجيا تحولت الصدمة على وجوههم إلى حيرة، وأخيرا إلى خيبة أمل. ومع ذلك، كانوا يأتون إليّ بعد المحاضرات منتظرين مني أن أدعوهم لتناول القهوة. لقد حاولت ميليا مرة، ومن بعدها نيفينا.

«مرحبا يا رفيقة. ما رأيك بفنجان من القهوة؟ على حسابي». جاء ردي في المرتين: «شكرا، فأنا مشغولة في هذا الوقت». كنت أراهم منغمسين في الحديث في المقهى المقابل للقسم. أشبه ما يكون باجتماع مشترك لقادة القوات المسلحة. كنت أدرك أنهم يتحدثون عني. «العاهرة. لقد تحولت إلى «لوسيفتش» إلى عاهرة حقيقية». تخيلت أحدهم، المخبر، وهو يجلس ضامًا شفثيه وعابس الوجه. حاولت أن أحس من سيتوقف عن المجيء

إلى الفصل أولا . إيجور؟ أنتي؟ نيفينا؟

فقط مرة واحدة فقدت السيطرة على نفسي . لقد طلبت منهم أن يحفظوا عن ظهر قلب قصيدة «الرثاء اليومي» للشاعر يوجفتش . طلبت منهم أن يكونوا مستعدين لإلقائها من البداية حتى النهاية، ومن النهاية حتى البداية . كانت تلك خدعة سخيفة تعلمتها من أستاذ جامعي للشعر الكرواتي كان مكروها جدا ، وكان يتلذذ بتعذيبنا بمثل هذه الواجبات . أتذكر أنني أقسمت في ذلك الوقت أنني لن أطلب أبدا شيئا مرهقا من هذا القبيل من طلبتي في المستقبل .

رفضت «نيفينا» أن تحفظ القصيدة في كلا الاتجاهين . طلبت منها أن تقرأها بصوت عال . كانت قراءتها مشوشة جدا . ثم طلبت منها أن تقرأها في الاتجاه المعاكس . وقفت هناك هكذا ، وقد غاب عنها كل شيء . لقد كان مشهدا مؤلما ومهينا . وأخيرا أنقذ إيجور الموقف عندما وقف وألقى القصيدة بشكل رائع . قلت : «شكرا ، يا إيجور . وأنت يا نيفينا ، يمكنك العودة بعد أن تكوني قد حفظت القصيدة» .

لمت نيفينا أشياءها ، وأسنانها تفشي لفظ «العاهرة!» ، وخرجت من غرفة الصف . أظن أنني سمعتها تتفجر بالبكاء وهي تدفع الباب من خلفها . شعرت بالتعاطف معها ، ولكن كان قد فات الأوان . لم يكن لدي أدنى فكرة عن كيفية الخروج من الدور الذي رسمته لنفسي .

كنت أحس بأن تدمرهم يتزايد . كنت أحسه كلما دخلت حجرة الدراسة ، أحسه ماديا تقريبا ، وكأنه تغير في درجة الحرارة .

أحيانا كان ذلك الإحساس يملأ الغرفة لدرجة عالية جعلتني أخاف من أن يحطم النوافذ. ومع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة. كنت أتساءل متى سيفقدون القدرة على التحمل ويثوروا، أو على الأقل، إن كان أي منهم سيأتي أخيرا ليواجهني، ويسألني لماذا كنت أتصرف بتلك الطريقة. لكنهم لم ينبسوا ببنت شفة. كان إيجور الوحيد الذي لم يتأثر بكل ما جرى. كان يحمل فيّ وكأنه يستكشف روعي، وكان أحيانا يضع سماعات الأذن التي لم تغادر عنقه قط.

«أغلق جهاز الموسيقى يا إيجور. هذا فصل دراسي وليس حفلا لموسيقى الروك».

«أنا لا أستخدم هذا الجهاز عندما أحضر حفلات الروك».

«كيف لك أن تسمع ما أقول عندما تكون...»..

«لا تقلقي. أسمعك بشكل أفضل عندما يكون الجهاز مفتوحا».

قلت: «سنرى ما سيحدث عند الامتحان».

كان الأمر مرهقا حقا. كنت أتفوه بأشياء ليست من طبعي، وكرهت نفسي بسبب ذلك. وما استمراري بذلك إلا لأنني لم أستطع التخلص من فكرة أن أحدهم كان قد ذهب إلى سيز وأخبره بكل ما كان يجري في الفصل الدراسي الأول.

على الرغم من ذلك، فإن التعود على روتين النظام الجديد قد قلل من حجم تلك العداوة لحد أنني في مرحلة معينة بدأت أشعر ببعض المتعة في إعطاء محاضرات «حقيقية». وكانت ردة فعل الطلبة متناغمة مع ذلك. فقد لعبت ميلها دور الطالبة المجدة، ولم يغب إيجور عن محاضرة قط، وكانت أنا تدون كل

ما أقوله، وأبدت جوهانكي حماسة عالية جعلتني أشك لبعض الوقت بأنها هي من وشت بي لسييز. ولكن في ذلك الوقت كان الفصل قد تقلص إلى هؤلاء فقط. فنييفينا لم تعد قط، وتوقف ماريو، وسليم، وبوبان، وداركو عن الحضور واحدا تلو الآخر.

أكملنا المقدمة التاريخية دون مشاكل تذكر. لقد كان للجولة عبر العصور والمدارس الأدبية، والمؤلفين، والعناوين، أثرا مخدرا إلى حد ما. تركت موضوع العودة لنهاية الفصل. لم يكن أحد منهم يعرف إن كان يريد البقاء، أم العودة، ولكن الجميع كان يشعر بأن بقاءهم هنا «مؤقتا فقط»، وصبوا جهدهم على إنهاء الأبحاث المطلوبة منهم. وعندما ينتهون منها، رأوا أنه سيكون بمقدورهم اتخاذ القرار المناسب. لم يزل «الوطن» يلمع في مكان ما في داخلهم، مشيرا إلى طريق عودة محتمل.

إذن، ها أنا هنا أحشو حقائب طلبتي اللاجئين مرة أخرى. وهذا ما فعلته خلال الفصل الأول مع فارق واحد: لم تحتو الحقيقة هذه المرة بضاعة مهربة. لقد كنت أعرفهم بعائلاتهم الأدبية، بأسلافهم. كانت النماذج التي اخترتها تمثل سيرة ذاتية للبطل الروائي. عادة ما كانت القصة تبدأ بضمير الغائب، وتنتهي بضمير المتكلم، على شكل مذكرات لبطل الرواية، أو رسائل إلى صديق. على رغم أن أبطال الروايات كانت من «تربة الوطن»، فإنها جميعا - خاصة التتويجات الكرواتية - كانت تحمل تشابها عائليا متميزا لشخص «كالفتى ويرثر» و«تسايلد هارولد»، فضلا عن الشخص الروسي التي نعتها النقاد «بالرجال الزائدين عن الحاجة»: كشخوص مثل «تشاتسكي» للروائي «جريبودوف»،



و«يوجين أونيجين» للروائي «بوشكين»، و«بيتشورين» للروائي «ليرمنتوف»، و«رودين» و«لافريتسكي» و«كيرسانوف» للروائي «تورجينيف»، و«أوبلوموف» للروائي «جونتشاروف»، و«إفانوف» للروائي «تشيكوف»، و«كافاليروف» للروائي «أوليشا»؛ كانوا جميعهم يدورون في فلك الآداب السلافية الأخرى مثلهم مثل الكثير من الأشخاص النزقين. هذا بالنسبة للروائيين من الرجال. أما الخط النسائي، فقد احتوى على ثلاثة أنماط بشكل أساسي: الفتاة الوطنية الجميلة، التي عادة ما يتخلى عنها البطل؛ والمرأة المشؤومة، التي تسخر من البطل لكنها أيضا تلهمه، والضحية الصامتة، التي تبقى وفية للبطل حتى النهاية.

لقد أدهشني تكرار ظهور الملامح الشائعة لأبطال الرواية. شعرت وكأنني أقرأ في علم الوراثة وليس الأدب. بدا الأمر وكأنه اكتشاف الواحد منا لشيء طالما أدركناه من دون أن نعيه أي أهمية، مثل اكتشاف شامة في جسمك في نفس المكان الذي توجد فيه في جسم والديك، أو جسم أطفالك، أو جسم أحفادك. كثيرا ما شعرت بأنني أشاهد تركيبة مسلسل تم إنتاجه لأكثر من عصور (بالرغم من أنني لم يكن من الممكن أن أعترف بذلك علنا).

قرأنا روايتين للكاتب ك. ش. جالسكي هما «جانكو بوريسلافنتش» و«رادميلوفتش»؛ وفيهما جن بطلا الروائيتين وأقهما على الانتحار؛ وقرأنا روايتين لفينسيلا لاف نوافك: رواية «عالمان»، ورواية «تيتو دورشيك»، كما قرأنا رواية «الهروب» للكاتب م. س. نيهاييف، وكان مصير الأبطال الثلاثة الانتحار. كذلك

قرأنا رواية «عودة فليب لاتينوفيس» الذائعة الصيت لكركيسا، والتي مثلها مثل الأخريات، كانت تتناول موضوع المنفى. وبينما شعر أبطال جميع هذه الأعمال بالوحدة خارج الوطن، كان سبب موتهم المأساوي عدم قدرتهم على التكيف مع العودة إلى الوطن. قالت ميلبها: «ولكن ما يمكن أن يشد انتباهنا حقيقة، هو الرواية عن العمال، التي تحكي عن آبائنا، وأجدادنا، الذين ذهبوا إلى ألمانيا، والسويد، وفرنسا وهولندا، وخدموا كالعبيد لسنوات، فقط لكي يعودوا إلى الوطن ويضعوا ما جنوه بشق الأنفس في بناء منازل ضخمة - شيء ملموس يتركونه وراءهم، ويجعلهم يستقبلون الموت بصدر رحب - والتي من ثم وقفت خالية أشبه ما تكون بنصب تذكاري ليوثوبيا مرحلة التقاعد النهائي، تشبه الأهرام، تشبه الأضرحة. فقد جاءت الحرب وذهب كل شيء أدراج الرياح».

قالت آنا بتوتر: «ربما. ولكن هل هذه حكايتنا حقا؟». «يا أختي، أراهنك أنها حكايتنا، إن كان والداك قضيا نصف حياتهما في ألمانيا وأنت الآن تعيشين في الخارج، ولا يوجد قرش واحد باسمك. اسألي صديقتي «آلدا» وستخبرك. لقد تقاعد والداها بعد ثلاثين عاما من العمل. أودعوا كل قرش وفروه في مصرف في سراييفو، معتقدين أنهم سيبنون منزلا ويستقرون فيه. فأين هم الآن؟ لقد عادوا إلى مدينة كولونيا الألمانية! هكذا تجري الأمور معنا: فكل جيل يبدأ من لاشيء وينتهي بلا شيء. لقد بدأت جدتي وجدي - ووالداي من بعدهما - حياتهما من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، ثم جاءت هذه

الحرب الجديدة لتعيدهم من حيث بدأوا مرة أخرى. وها أنا هنا أبدأ من نقطة الصفر، ولا أملك شيئاً».

لم ينبس أحد ببنت شفة. فقد حام صفر ميلها فوق رؤوسنا كحبل المشنقة.

استعار علماء الأنثروبولوجيا مصطلح «النائم» من روايات الجاسوسية الشهيرة. «النائمون» هم مهاجرون يعيشون حياة «طبيعية» في بيئتهم الجديدة: يتعلمون لغتها ويتكيفون مع أساليب الحياة فيها، ويبدون مندمجين فيها - وفجأة يشعرون بصحوة. ويستحوذ عليهم حلم «العودة إلى الوطن» بقوة محولا إياهم إلى أناس آليين. فيبيعون كل ما يملكونه ويعودون إلى الوطن. عندما يدركون الخطأ الذي ارتكبوه (كما يفعل معظمهم) يعودون إلى البلاد التي كانوا قد «ناموا» فيها لمدة عشرين سنة أو مهما كان من سنوات كثيرة، ويجبرون على العيش مرة ثانية (كما يفعل المرء وهو مستلق على أريكة الطبيب النفسي) مرحلة التكيف لسنوات مرة أخرى - بعد الانكسار مرتين، ومع التأهيل مرتين - إلى أن يتصالخوا مع مصيرهم الجديد. الكثير منهم يعيشون حياة موازية: فهم يسقطون صورة الوطن على جدران البلاد التي يقيمون فيها «مؤقتا فقط»، ويعيشون الصورة المسقطه علي أنها حياتهم «الحقيقية».

كان طلبتي يبعدون كل البعد عن كونهم من «النائمين»، ولا يمكنهم حتى أن يحلموا بأن يصبحوا منهم. فهم لا ينتمون إلى هنا ولا إلى هناك. كانوا منهمكين في بناء قصور في الهواء، ويحدقون إلى أسفل لكي يقرروا أي مكان سيناسبهم ويحسن

أوضاعهم. كنت بالطبع واحدة منهم، فأنا أيضا كنت لا أنتمي  
إلى هنا ولا إلى هناك. الفارق الوحيد هو أنني لم أكن أتحمل  
التحديق إلى أسفل، إذ كنت مصابة بالدوار.

لم أعرف بالضبط ما السبب الكامن وراء ذلك، ولكنني كنت أجد نفسي أحيانا متوقفة في منتصف الشارع، وقد نسيت إلى أين كنت ذاهبة. كنت أقف هكذا مثل طفل خائف من أن يطرد من اللعب إذا حرك ساكنا. تأتي الصرخة 'أنتِ أخرجي!' قد يكون سبب الارتباك هو أنني لم يعنني حقا إلى أين كنت ذاهبة، أو أنه كان من الممكن أن أكون واقفة في أحد شوارع مدينة أخرى، وأن وجودي في هذه المدينة كان مجرد مصادفة، كذلك، كان كل ما قيل وحدث، كل شيء كان محض مصادفة. لقد انتهى الكثيرون منا في أماكن لم يحلموا بأن يروها قط، فضلا عن أن يعيشوا فيها. ويستمر ذلك بالحدوث من يوم لآخر. كان الأمر مثل الذهاب للنوم في حياة والاستيقاظ في حياة أخرى.

في بعض الأحيان كان يقطع نومي ألم قهري عصي على الوصف، ألم يخلو من الألم. كنت أنهض من الفراش وأتوجه إلى الحمام، أشعل الضوء، وأفتح صنوبر الماء لفترة، ثم أرتشف جرعات صغيرة، محاولة إطفاء ظمأ بدا كأنني عانيت منه منذ زمن بعيد. بعد ذلك أتكئ بجبهتي على مرآة خزانة الدواء، وأراقب رذاذ أنفاسي ينتشر بنعومة على سطح المرأة.

«آه يا جرحي، آه يا روحي. لقد أتى الخريف. أنا الويل. آه يا جرحي، جرحي المتقيح...». الجراح حميمة في وطني؛ إنها أبناؤنا، وبناتنا، وأحبائنا. الجراح هي الحب؛ والحب يعني الألم. مرة سمعت أنا وجوران لحنا صربيا لعبارة «آه يا جرحي» يدوي

في أحد شوارع برلين. أرانا البائع المتجول شريطاً رخيصاً للموسيقى مكتوب على غطاءه «آه يا جرحي». عندما ناوله جوران النقود، قال لي مبتسماً، «جراحنا هي أشهر صادراتنا». «آه يا ألمانيا، آه أيتها البلد الغريبة. لقد منحتك حبيبي. ومنحك شقيقي»؛ إنهم ينوحون، ويندبون، ويصرخون لعقود على العمال المهاجرين، واللاجئين، والمهاجرين، والمنفيين، والمغامرين، والصوص، والمحتالين، والهاربين من الجندية... «آه يا أستراليا، آه أيتها البلد الغريب». «آه يا كندا، آه أيتها البلد الغريب».

لم أستطع أن أفهم مغزي مقاطع الفيديو الوطنية الرخيصة، التي انقسمت مناصفة بين الترويج السياحي، والدعاية السياسية - حيث يعود رجال بشوارب داكنة حديثاً من مهمات في الخارج وهم يتحدثون عن القوة المغناطيسية الجاذبة للعودة للوطن. يتسلقون الجبال ويعبرون الوديان في طريقهم إلى قراهم، حيث تنتظرهم العجائز بشوارب باللباس الأسود بجانب المدافئ - يعودون وهم يحملون الحقائب المحشوة بأيديهم، ويرتدون العقود الذهبية والصلبان على صدورهم المشعرة. «يا وطني! أيتها الأرض الحبيبة!» يترنم مواطنونا العائدون بصوت عال، وهم يحملون في الأفق الجميل، وهو الشيء الجميل الوحيد الذي سيحملون فيه. ربما يكون كل المهاجرين ممثلون أعطوا أدواراً في مسلسلات لا نهاية لها، ربما تكون طبيعة المنفى هي التي تمنعهم من مسخ ما يفعلونه وما يشعرون به.

كلما وجدت نفسي في حضرة أرق الهجرة، رحت أفكر ملياً كيف ستكون الأمور مستقبلاً لو لم تكن كما هي عليه الآن، آملة

في أن أجد مكانا دافئا لنفسي. أقوم بخلط كل من أعرفهم معا وكأنهم رزم من أوراق اللعب. أفكر بجوران وهو يحتضن زوجته هيتو. لديهما طريقة منتظمة في النوم بينما كل منهما يضم الآخر. يئن، فتصحو. تسأله: «هل أنت بخير؟». يتوقف الأنين ويعود التنفس إلى طبيعته. تنام هيتو من جديد. كنت أفكر بوالدة جوران وهي ذاهبة إلى المطبخ لتناول كأس من الحليب. تأخذ بسكويتة من علبة البسكويت الدنماركية، ثم تغير رأيها وتأخذ اثنتين أخريين. ثم واحدة أخرى. تغمس البسكويت في الحليب وتدفعه إلى قعر الكأس بإصبعها، ثم تتناولها بملقعة. يريح الخليط الحلو أعصابها. تندب حظها: «لا أفهم ذلك. لا أستطيع التوقف عن تناول الطعام. خاصة في الليل». كنت أفكر في نفسي وجسدي ملتف في السرير في «غرفة ضيوف» والدتي، وأنا أصغي إلى وقع الخف، وصرير الباب، وصوت تبول والدتي في الحمام المحاذي لغرفتي. تمتلئ الغرفة بالأصوات المجلجلة. ثم تتوقف الأصوات، وتتسحب عائدة إلى سريرها. وعندما تغفو، تزيّن ماضيها مثلما تزيّن بيض عيد الميلاد، بترو ورضا.

في مثل هذه الأوقات فقط، وأنا مستلقية على سرير في ملجئ بأمستردام، كنت أستطيع الحصول على صورة واضحة لنفسي. أتصور نفسي وأنا أرتمي بنطلون الجينز وألبس سترة فوق قميص البيجاما وأخرج من «البدرّوم». أحاول أخذ نفس عميق، لكن الهواء فاتر ولزج، مثل حلوى غزل البنات. الرياح شبه الاستوائية تكنس الفضلات المبعثرة بطول الشارع. يعلق كيسان بلاستيكيان بين أغصان إحدى الأشجار القريبة ويصدران

فرقة، ووهجا باهتا في الظلمة وكأنهما رسائل من عالم آخر.  
أرى امرأة قصيرة، وبدينة، من البلدة نفسها بمشية مرحة.  
كان معها امرأة طويلة، شيباء، في رعايتها. تستخدم المرأة  
العجوز عكازين لمساعدتها على المشي. تأمرها المرأة الفتية  
بصوت اخترق طبلة أذني كإبرة: «تحركي يا ماما». جميع «أهلنا»  
يعرفون هذه المرأة. يقولون: «إنها امرأة عبقرية». تتباهى أحيانا  
باصطحاب مجموعة حقيقية من أقارب متخيلين، وأحيانا بأنها  
حامل بجنين عمره ثمانية أشهر ونصف، وأحيانا بأنها امرأة  
معاقة متخيلة، كما هي اليوم، أم متخيلة، ولكنها دائما ما تكون  
بصحبة رجل شديد البأس يتبعها كالظل، ويداه مدسوستان في  
جيبَي سترته القصيرة. يدعون أنها تستطيع سرقة أي شيء  
يريد «أهلنا» شراءه من لباس، ومجوهرات، وأجهزة فيديو... تقبع  
قائلة: «لنذهب يا ماما. تحركي».

تلكزني امرأة إنجليزية ثملة في مستقبل العمر وتساءل «ألديك  
كبريت؟».

أقول: «لا، آسفة».

ترد قائلة: «تبا لك»، وتمضي في طريقها.

أقف أمام ستوديو للوشم. الاستوديو مغلق، لكن التلفاز في  
شباك العرض يبث فيلما وثائقيا. يقول رجل ياباني في مستقبل  
العمر، وقد استدار ليعرض ظهره المرصع بالأوشمة للكاميرا:  
«بدأت أشم نفسي لأتعلم معنى الألم. كل نموذج من هذه النماذج  
يشكل لحظة من الألم». ويومئ رجل ياباني آخر في مستقبل العمر،  
وهو مغطى بالأوشمة، بحيوية قائلا: «الألم مفتاح النجاح!».



يدور الماء السميك الأسود في القناة بشؤم. تظهر فجأة أوزة  
من داخل الظلمة وتتجمد مثل شبح. في تلك اللحظة يتوقف  
التلفاز في شباك العرض عن العمل، وتختفي الصورة عن  
الشاشة. أظل واقفة لبعض الوقت. مازال الكيسان البلاستيكيان  
يفرقعان بين الأغصان كطائرات الأطفال الورقية. تمس الريح  
شبه الاستوائية وجهي. يسيل العرق على ظهري. وتأتي الصرخة  
«أنتِ اخرجي».

ثم أعدو إلى داخل جُحري كفأر مذعور.

وصلنا إلى نهاية المرحلة التمهيدية. تعلمنا  
كل الحروف. يمكننا قراءة الخط المطبوع  
والمكتوب باليد. الآن يمكننا قراءة جميع أنواع  
كتب الأطفال الجميلة. الآن يمكننا قراءة كل شيء.  
ونعرف كيف نكتب أيضا. نعرف أن نكتب  
كل شيء نراه. الآن يمكننا أن نقرأ ونكتب  
بأنفسنا. كلما ازددنا معرفة، تحسنت حالنا.

### طالب أول تمهيدي

من ثم جاء الامتحان. كان أربعتهم موجودين: جوهانكي،  
وميليا، وأنا، وإيجور في الممر خارج مكتبي. دخلت «جوهانكي»  
أولا. طرحت عليها أسئلة كثيرة أجابت عليها جميعا بشكل  
صحيح، وأعطيتها درجة «ممتاز». لقد كانت مُجدة أكثر من  
الآخرين بكثير، وأثبتت أنها مراقب رصين لما يدور. في تلك  
اللحظة فقط أدركت أنني لم أتبادل معها حديثا جديا من قبل.  
لقد تبينناها وكانت «لنا». ويبدو أن ذلك كان كافيا.  
قالت: «آمل أنك سوف تبقيين هنا».

قلت محاولة أن أبدو مرحلة: «قد أبقى».  
وقفت ومشيت إلى الباب معها ومددت يدي مودعة. بدت  
مضطربة.

«تمنياتى لك بالتوفيق». قلتها كبلهاء، مدركة أنني من يحتاج

إلى تلك الدعوة أكثر منها .

عندما دخلت «ميليها» كنت أدرك أنني لا أستطيع الاستمرار في ذلك الدور .

قلت لها : «لا تكثرني بالامتحان يا ميليها» .  
«ماذا تقصدين؟» .

قلت بصدق : «لا يمكنني أن أمتحنك . بامتحان أو بدون امتحان، أنت تستحقين درجة ممتاز» . «تقولين لي هذا الآن! بعد أن راجعت حفظ المادة طوال الليل، مثلما كنت أفعل عندما كنت طالبة . بالمناسبة، لقد كان أمرا رائعا حقاً! إذن ستعودين في السنة القادمة؟» .  
«ربما» .

قالت بمرح : «حسنا، إن كنت ستعودين، سأعود أنا أيضا» .  
تحدثنا قليلا عن والديها وعن خططها وعن وضع دراستها .  
قالت فجأة : «لا أعرف ماذا سأفعل . لقد وقعت في الحب» .  
«من هو؟» .

«رجل هولندي!» .

ثم تحدثنا قليلا عن حبيبها الهولندي، فهو شخص رائع، ومغرم بالبوسنة . ويعمل في منظمة غير حكومية، تعنى بمنع العنف أو شيء من هذا القبيل . يقضي وقتا في سرايفو أكثر مما يقضيه هنا . ويعرف اللغة . ربما سينتهي بها الأمر بالذهاب معه إلى هناك . من كان يتخيل أن شخصا هولنديا هو من سيجعلها تعود إلى الوطن . «وهناك أيضا ... أبي . إنه يتدهور . كل ما يستطيع قوله هو «الحياة مجرد نكتة كبيرة» . إنه مثل البغاء . تسألينه إن

كان يريد البيض مقلبا أم مخلوطا، فيجيب: «الحياة مجرد نكتة كبيرة». برغم ذلك، ربما عليّ تعلم بعض الدروس منه».

وقفت ميليا، وأنا وقفت مباشرة، وتصافحنا. كانت على وشك أن تفتح الباب عندما توقفت وارتسم طيف على وجهها، جعلها تبدو أكبر سنا بعشر سنوات.

«ما الأمر يا ميليا؟»

«لا شيء. أحيانا أظن أنني أصبت بالجنون. أكون ماشية وفجأة أتوقف لأقوم بجمع أجزاءي: ذراعيّ ورجليّ. أف، هناك أيضا رأسي المجنون. أنت لا تعرفين مدى سعادتي عندما أجد تلك الأجزاء. لذا على أي حال، ألصقها معا، وتصمد لبعض الوقت. أظن أن ذلك اللصق سيستمر إلى الأبد، وبعد ذلك تتساقط أجزائي مرة أخرى. ومرة أخرى أجمّعها من جديد وأللم نفسي ثانية مثل قطع لعبة اللغز منتظرة المرة القادمة...».

فتحت الباب ثم أضافت: «لقد تبلل وجهي الآن، وصديقي الهولندي ينتظرني في الطابق الأرضي». رسمت ابتسامة مفتعلة على وجهها، وانسلت خارجة.

جاء دور أنا.

قالت أثناء دخولها الغرفة: «أريدك أن تعرفي أنني لم آت من أجل الامتحان».

«ماذا تقصدين؟»

«لا فائدة من ذلك، فأنا لن أستمر في الدراسة».

«ما سبب هذا القرار المفاجئ؟»

ردت قائلة: «سأعود إلى بلجراد».

«مهلاً. اشرح لي بعض الشيء.. ما الذي جعلك تقرر  
العودة؟».

«لطالما فضل جيرت بلجراد، وهذا المكان يثير أعصابي.  
«ألن تفتقدي أي شيء هنا؟»  
«كلا».

«لكنك أمضيت سنوات عدة هنا، أليس كذلك؟».

«كان يمكن أن تكون في أي مكان آخر».

«هل أنت متأكدة بأنك لا تريدينني أن أعطيك درجة؟».

تظاهرت بعدم سماع السؤال.

قالت: «جئت فقط لأودعك»، ثم أضافت من دون تفكير: «هل  
أنت وحيدة؟»

«لماذا تسألين؟».

«العيش في بلد أجنبي أصعب بكثير عندما تكونين وحيدة».

قلت: «الأمر يعتمد على عوامل أخرى». ولم أرد أن أتابع ذلك  
الحديث.

قالت: «أنت تعرفين... إن ما حدث كان من الممكن أن يحدث  
بغض النظر عن الظروف».

«ماذا تقصدين بذلك؟».

«لم تدركي ذلك، ولكنك كنت السبب الأول والأخير لبقائنا  
معاً. كانت الأمور ستتهار بدونك».

«لماذا؟».

«لأن الأمور تسير هكذا. في البداية كانت معنوياتنا عالية، إذ

كنا نريد الاستمتاع بالحياة. كانت الحياة انفجاراً، حفلة لا نهاية

لها . ثم صحنونا في صباح أحد الأيام لنجد فراغا يلفنا» .  
«فراغا؟ ماذا تقصدين بذلك؟» .  
«لا أعرف . أفترض أنه يعني ذلك الشعور المرعب بأنه لا  
يوجد أحد خلفك، ولا أمامك» .  
«لكن لديك جيرت» .  
«يكون الهولنديون أحسن في الخارج منهم في الداخل» .  
«ماذا يفترض أن يعني ذلك؟» .  
«إنهم يتأقلمون مع الحياة في الخارج، ولكنهم كالسمك خارج  
الماء عندما يكونون في هولندا» .  
«ماذا تتوقعين أن تجدي عندما تعودين إلى أرض «الوطن»؟» .  
«الرعب تلو الرعب» .  
«وماذا تجدين هنا؟»  
«غياب الرعب» .  
«هذا سبب كاف للكثيرين للبقاء هنا» .  
«قالت بسكينة: «لكن هولندا صعبة أيضا بطريقتها» .  
ثم أخرجت ظرفا من حقيبتها ووضعتة على مكثبي .  
«ما هذا؟» .  
«مفتاح الشقة» .  
«شقة من؟» .  
«لم نعد نحتاج إليها، وقد تبقيين هنا» .  
«لم أتخذ قرارا بعد» .  
«ولكن ربما تقررين البقاء» .  
«هل هي شقتك؟» .

«لا. إنها شقة «جيرت»، وهي من الشقق التي توفرها الدولة. كل ما عليك فعله دفع فاتورة الغاز والكهرباء، وهي لا تكلف شيئاً تقريباً. آه، عليّ أن أخبرك، فهي ليست في مركز المدينة. العنوان، ورقم الهاتف، وكل ما تحتاجين إلى معرفته موجود في الظرف. الأثاث قديم جداً، لكن يمكنك التخلص منه. يمكنك عمل كل ما تريدين من تغييرات. سنغادر أنا و«جيرت» خلال أسبوع. أخبريني بقرارك. اذهبي وألقي نظرة عليها. اتركي المفتاح في الصندوق إن لم ترق لك».

كنت مندهشة من أنا، وفي لحظة شعرت بالغيرة منها. بدا أنها تعرف شيئاً محدداً لا أعرفه. حملت في الظرف لفترة بعد ذهابها، ثم وضعت في حقيبتي. فتح مفتاح «أنا»، لفترة وجيزة، الباب الذي كان يكبح كل مخاوفي.

بقي إيجور فقط، ولكنني لم أقوَ على الحركة. استمررت بالتفكير بآنا، وميليا، والحياة التي عاشتها، تلك الحياة التي لم أعرف عنها شيئاً البتة.

كان بحث إيجور أمامي، وكنت أقلب صفحاته وأنا شاردة الذهن، بالرغم من أنني قرأته من قبل. في معالجته لموضوع «العودة» في الأدب الكرواتي، اختار إيجور عملاً غير متوقع إطلاقاً، حكايات الجنيات الخرافية: كيف التمس بوتيه الحقيقة لكاتبة أدب الأطفال المشهورة إيفانا برلتش - ماتزورانتش.

كان ثمة رجل عجوز يدعى «فيسست»، وثلاثة من أحفاده يعيشون في بقعة فارغة في غابة شاطئية قديمة. في أحد الأيام ظهر الإله «سفاروسيتش» - الذي يسميه إيجور «بالسوبرمان

وعندما تحدث، حرك «سفاروسيتش» طرف معطفه، ثم رفع «ليوتيشا» و«ماورون» و«بوتيه» على ذلك الطرف. ثم حرك طرف المعطف من جديد محدثا التفافه فيه. وقد التف الأشقاء الثلاثة مع التفاف المعطف، وفجأة بدأ العالم يمر من أمامهم. بداية شاهدوا كل الخزائن، والحقول والأماكن، والثروات الموجودة في العالم في ذلك الوقت. ثم، بينما هم يلتقون، ويدورون من دون توقف، شاهدوا الجيوش، والرماح، والسهام، وجنرالات الجيش، والغنائم الموجودة في العالم في ذلك الوقت. وبعد مزيد من الالتفاف والدوران، رأوا فجأة كل النجوم، والقمر، والأخوات السبع، والرياح والغيوم. وقد أدهشت هذه المشاهد الصبيان الثلاثة، ولم يزل طرف المعطف يرفرف ويحف ويهسهس كبساط من الذهب. وفي تلك اللحظة وجد الأشقاء الثلاثة أنفسهم في مأواههم في الغابة من جديد، والرجل الذهبي «سفاروسيتش» يقف أمامهم مرة أخرى. وهنا خاطبهم قائلا: «هذا ما ستفعلونه. ستبقون هنا في هذه البقعة، ولن تتركوا جدكم العجوز حتى يترككم هو، ولن تدخلوا العالم لخير أو لشر حتى تعيدوا له الحب الذي منحكم إياه.

وعندما يسأل الجد أحفاده عما شاهدوا في العالم والنصائح التي تلقوها من الإله «سفاروسيتش»، لا يتذكر «بوتيه» أي شيء، فيغادر مأواه إلى داخل الغابة بحثا عن ذاكرته، وعن نصائح «سفاروسيتش»، حيث تهاجمه عفاريت الغابة، التي يسميها «إيجور» بمعاوني الشيطان الأكبر.



أومأت لإيجور، فدخل وجلس. رأيت انعكاسي في وجهه. كان الأمر كمن ينظر في مرآة. بدا وكأنه دوّن كل كلمة قلتها خلال الفصل الثاني، وبدأ الآن يشغل الشريط. استهل بتلاوة تلك القائمة الجافة من الأسماء، والتواريخ التي لقنتها لهم، ثم راح يتظاهر تظاهرا متكلفا لإخفاء ازدرائه لي. قمت بمقاطعته. قلت: «اندهشت بعض الشيء من بحثك».

«إنه يتناول عملاً محيراً».

«ماذا تقصد؟».

«ما الحقيقة المهمة التي لا يتمكن بوتيه من تذكرها؟ أهي الرسالة التي تلقاها من سفاروسيتش؟ كل ما قال له سفاروسيتش هو البقاء في مأواه، وهو شيء بسيط يخلو من التعقيد».

«إذن؟».

«إذن يظهر سفاروسيتش مرة أخرى لبوتيه ويخبره بالشيء نفسه: عد إلى مأواك. ولكن ماذا يحدث الآن عندما يستعيد الذاكرة؟ إنه يموت. يقول وهو ينحني إلى البئر: «غطسة سريعة ثم أطيّر إلى جدي العزيز، ثم يسقط فيه ويغرق».

«حسناً، كيف تفسر ذلك؟».

«إذا ما أخذنا قواعد النمط الأدبي التي تقول «لا مكان يوازي مكانة المنزل» بعين الاعتبار، فالكل يفترض أن يعيشوا في سعادة إلى الأبد. يجد أبطال القصص الخرافية الحكمة، والثروة، والأميرات في أسفارهم، وهم لا يسقطون في الآبار. لا بد أن شيئاً ما دار في ذهن ماتزورانيتش جعلها لا تنهي القصة بالطريقة التقليدية».

«لكن ينتهي أمر بوتيه في بلاط سفاروسيتش».

«يضع سفاروسيتش بوتيه في الجنة، وهي الموت مضافا إليه النهاية السعيدة، ولكنها نهاية يعوزها الالتزام لأننا جميعا نضمن الجنة أو الجحيم بطريقة أو بأخرى. لذلك، فالعمل مجرد هراء من خلال منظار فني، ولكنه عمل عبقرى صرف من خلال منظار التحليل النفسي».

«لماذا؟»

«الرسالة جلية: «النفى» يعادل الهزيمة، حيث يتيه بوتيه في الأدغال في ضباب كثيف وهو فاقد الذاكرة، أما العودة لمأواه فتعادل عودة الذاكرة. ولكن تلك العودة تعادل الموت أيضا، فما أن عادت إليه الذاكرة حتى سقط في البئر. من هنا، فالنصر الوحيد لحرية الإنسان يكمن في رحيلنا الساخر في جزء من الثانية في هذه الوجهة، أو تلك، أو وجهة ثالثة ما. ومن أجل تلك الحقيقة الكامنة، انحرفت ماتزورانيتش عن ذلك النمط الأدبي وخرجت بقصة خرافية «سيئة».

رفع نظره إليّ، وعيناه السوداوان المائلتان تزنان روحي.

لقد هزمني: إذ أراني شيئا ما كان يمكن أن أراه بنفسى. العمل يمكن أن يتحمل تفسيرات عدة، لكن قراءته صدمتني فكلاهما صحيح ومفزع. ماذا لو كان كل ما قاله صحيحا؟ ماذا لو كانت العودة تمثل الموت - رمزا أو حقيقة - والنفى يمثل الهزيمة، ولحظة الرحيل هي لحظة الحرية الحقيقية الوحيدة التي منحت لنا؟ وإن كان هذا صحيحا، ماذا سنفعل بها؟ ومن هم «نحن» على أي حال؟ ألسنا جميعا ممزقين إربا ومجبرين على

التيه في الأرض، نلتقط أجزاءنا كما تفعل ميلها، ونجمّعها معا كقطع اللغز، التي نلصقها معا برضا بنا؟».

«ما الأمر يا رفيقة؟ أعني دكتورة لوسيتش». قالها ساخرا، وكأنه كان يقرأ ما يدور في ذهني.

هذا دفعني من جديد إلى دوري. فالحديث الذي دار بيننا لفورنا كان خطوة باتجاه الوفاق. مددت يدي أولا، ولكنني سحبتها الآن.

«شكرا يا إيجور. هذا يكفي. سأسلم الدرجات إلى السكرتيرة غدا أو بعد غد، وستخبرك السكرتيرة بدرجتك».

في اللحظة التي قلت له ذلك، كرهت نفسي أكثر مما كرهتها في أي وقت مضى في حياتي».

نهض مستهجنا، ثم حمل حقيبة الظهر واتجه نحو الباب. لكنه ما لبث أن استدار وقال: «ثمة ملاحظة بسيطة يا دكتورة. في الأدب، الرجال هم من يخرجون إلى العالم. يخرجون، ويعودون ليذرفوا «الدمع الغزير». أين النسوة من كل هذا؟».

لم أرد. حولت نظري عن اتجاهه، صماء وبكماء. بالكاد استطعت أن أميز ملامحه. لقد دفنت جذوري في الأرض واكتسبت لون محيطي. شعرت بالسمة الإنسانية التي علقت أثناء عملية التحول تتحرك في داخلي: الخياشيم تتنفس، والدم يجري عبر أذق الشرايين، والقلب الصغير ينبض بسكينة دون صوت البتة. ساعدني واجعل القلب ينبض. المسني وسأتحول إلى سيدة جميلة؛ اتركني وسأبقى سجيناً ظلمتي إلى الأبد.

بعد أن غادر إيجور، انبريت لتحديد الدرجات للطلبة. قررت

أن أنجح نيفينا، وسليم، وماريو، وبوبان، وآمرا، وأعطيت كلا من ميلياها، وجوهانكي، وأنا درجة «ممتاز». ولكن ماذا أنا فاعلة بإيجور؟

لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت. كنت مثل «برلتش - ماتزورانتش» التي لم تعرف لماذا تلاعبت بنمط أدبي كان قد أثبت جدارته مرات عدة. لا بد أن شيئاً قد وقع بطريق الخطأ، شيء في داخلها، هو الذي منعها أن تنهي تلك القصة بالطريقة المتبعة، تلك الطريقة التي أنهت بها بأريحية قصصاً أخرى كثيرة. كل ما أعرف هو أنني لم أكن قادرة على السيطرة على الاندفاع لأدير قصتي بالاتجاه الخطأ، وعندما أعطيته درجة «راسب» أخيراً، مشفوعة بتفسير خادع مقتضب بعد فترة من التردد - شعرت باشمئزاز عضوي ممزوجاً بالخزي، والخزي ممزوجاً بشعور من الراحة.

الآن كل ما عليّ فعله هو تسليم الدرجات إلى أنيكي وإعادة مفتاح مكتبي ورؤية سيز. جلست بنظري في الغرفة. لقد كنت في مساحة مكشوفة من حجرة. كنت في أرض قاحلة من خلفي، ولا شيء أمامي سوى المفتاح في الظرف القابع في قاع حقيبتي. بعد ذلك سحبت درج مكتبي للتأكد من أنني لم أنس شيئاً، وعندها رأيت ورقة طويت إلى نصفين. كانت رسالة مجهولة وضعت في صندوق بريدي في القسم قبل بضعة أشهر. وقد وضعتها في ذلك الدرج ونسيتها بالكامل. والآن أقرؤها وكأنني لم أرها من قبل.



أيتها العاهرة اليوغسلافية، تبا لك! عندما أفكر  
بالناس الذين قتلوا وهم يحاولون النجاة من ذلك  
النظام الشيوعي الفاسد، وأنت مازلت تروجين  
لمبدأ الأخوة، والوحدة الفارغ. كفي عن هذا الهراء،  
أسمعيني؟! الموت للجماهير، ولتحَيِّ الفاشية!  
**كابتن ليشي**

### **ملاحظة: انعمي بهذا الهراء.**

لم تكن هناك كلمة واحدة تشير على هوية المُرسَل: إن كان  
صربيا، أو كرواتيا، أو بوسنيا. من المؤكد أن ذلك كان سيحبط  
جهود أكثر المحققين اللغويين خبرة. وقد أدركت أن تلك الخبرة  
الواسعة التي اكتسبتها أخيرا ستجعلني، أردت أم لم أرد، خبيرة  
في نصوص الكراهية. وأنه من الصعوبة بمكان أن تشرح محتوى  
ذلك النص لأي شخص، شخص هولندي، على سبيل المثال.  
فكيف لي أن أوصل السجع في كلمات وعبارات النص؟ وكيف لي  
أن أشرح ما يكمن وراء شعار «الموت للجماهير، ولتحَيِّ الفاشية!»  
أو الإحالة إلى البطل اليوغسلافي الخيالي في الخمسينيات،  
«كابتن ليشي»؟

كانت تلك الرسالة المستترة ما تبقى من شظايا إحدى  
القنابل. وبالرغم من أنها وجدت طريقها إلى درج مكتبي، إلا  
أنني لم أبدِ أي اهتمام في اكتشاف مصدرها. أخذت قلم حبر  
أحمر وصححت الأخطاء الإملائية في النص بنوع من اللامبالاة  
الحنونة. ثم مزّقت الورقة إلى قطع صغيرة، ونثرتها في الهواء  
كما تنثر الحلوى. لقد انتهت الحرب.

سرتُ برويةً نازلةً درجات السلم الخمس لأقابل في الطابق الأرضي بالمصادفة، لآكي، عالم اللغة، الذي كان قد حضر بعض الحصص الدراسية في الفصل الأول قبل أن يتوارى عن الأنظار. توقف للحظة وكأنه في شك مما سيفعله. ثم رفع عينيه، ونظر جانبا، وقال متشدقا ببطء: «كيف حالك سيده لوسيتش؟» «أنا بخير، الحمد لله. وأنت؟».

«أموري عادية. فمازلت أتردد على القسم، كما ترين.»  
«هذا صحيح. ولولا ذلك لما تصادفنا هنا.»  
«وابتداء من سبتمبر سآتي إلى هنا يوميا.»  
«حقا؟».

«لقد أعطيت مكتبا. لذا سآتمكن من إكمال المعجم.»  
«هذا خبر جيد.»

«إلى حد ما، وستكون الأمور بشكل أفضل عندما ينشرون المعجم.»

«أنا متأكدة من أنهم سينشرونه.»  
«لم نكن لنحلم بمثل هذا إطلاقا عندما كان الرفاق في السلطة.»

قلت: «هذا مؤكد»، وقد بدا واضحا أن نبرة التهكم في صوتي تكررت في رأس لآكي.

«حصلت على دعم مالي من وزارة السياحة في كرواتيا. هذا يخدم مصالحهم على كل حال. ذلك سيساعد في تسويق

السياحة الهولندية. استطعت أيضا أن أحصل على بعض الدعم من وزارة الثقافة. قدم القسم هنا مساهمته البسيطة بإعطائي مكتبا. ليس بالأمر المهم بالطبع، ولكنهم ربما أيضا سيسمحون لي بالتدريس لبعض الشعب التدريبية». «هذا رائع».

«إلى حد ما... بالمناسبة، هل أنت ذاهبة إلى الوطن في الصيف؟». لقد استخدم كلمة «الوطن» كبديل محايد للبلد، الذي حين كان لا يزال قائما، كان العمال في الخارج يدعونه «يوغا»، مترنمين في لفظ حروف المد فيه. «قد أذهب».

«إنني في غاية الاشتياق. يملك والداي منزلا رائعا في جزيرة هفار، حيث أقضي شهرين كل عام هناك». «حسنا... إلى اللقاء».

رد قائلا: «بالتوفيق يا سيدة لوسيتش». العيون التي ترفض أن تطيل النظر لعينيك أكثر من ثانية، وذلك الموقف الراض للشيوخية الذي أصبح موضوعة بعد تغيير الحرس القديم (بالرغم من أن لاكي لم تكن له أي علاقة بالشيوخية من قريب أو من بعيد)، وذلك الكلام الحضري (لوقت الحاضر) المختلط المهروس، واللهجة، والنزوع الأدبي (كان الأمر أشبه ما يكون بالجد والحفيد وهما يتكلمان من الفم نفسه)، وذلك التصنع في مخاطبتي «بالسيدة لوسيتش» «كل ذلك كان مقززا بشكل مبهم، كتحذير مسبق بشيء غير سار».



بدلاً من أن أخرج من المبنى، عدت إلى الطابق العلوي وطرقت على باب سيزر، الذي كان بمفرده.

«تفضلي يا تانيا. تسرني رؤيتك. كنت سأبحث عنك».

لم يحاول هو أو إنيس إطلاقاً - البحث عني «منذ أن كنت في منزلهما في ذلك المساء. في الحقيقة، اتصلت بهما مرة أو مرتين، واستقبلت بكلمات إنيس الودية تشرح لي عن مدى انشغالهما وعدم وجود أي وقت فراغ عندهما، وكيف أنني لم أغب عن بالهما، وأنهما كانا يسمعان أخباري الطيبة من طلبتي، وأنه لا بد أن نلتقي ونتبادل أطراف الحديث الممتع. لقد كان تلفظها بعبارة «الحديث الممتع» على وجه الخصوص منفراً.

والآن بدأ سيزر يشرح لي أنه على الرغم من التقارير الممتازة التي وصلته عني في ذلك الفصل الدراسي (هل عني «التقارير» حرفياً، أم كان ذلك على سبيل المجاملة؟)، فلن يكون بإمكانه منحني الوظيفة في سبتمبر، لأنه لم يستطع إيجاد الدعم المالي الضروري. فقد قامت وزارة التعليم الهولندية بتخفيض الميزانية المخصصة للدراسات العليا عبر السنوات القليلة الماضية، وأنه حتى يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من إيجاد الدعم لشاغل وظيفة في تدريس اللغة الكرواتية وآدابها، وهو يفعل كل ما يستطيع بهذا الخصوص، فإنيس ستتطوع للقيام بتلك الوظيفة مجاناً. كانت تلك تضحية كبيرة من جانبها، ولكنها الطريقة الوحيدة لإبقاء البرنامج حياً. كان القسم يواجه مشاكل كبيرة، فحتى اللغة الروسية، وهي

المصدر المالي الرئيسي، كانت تفقد زبائنها. لم يكن بمقدوره أن يطلب مني التدريس مجانا. كلا، لم يكن ليحلم بذلك، وهو يعرف الظروف التي كنت فيها، وأنه لن يريد أن يستغلني. سأتمكن من إيجاد وظيفة ما، لم يساوره الشك في ذلك، فأنا، كما قال، أحمل شهادة الدكتوراه، ولدي خبرة في التدريس، وأملك «قلبا كبيرا». والأهم من ذلك كله هو أن «السلافيون معلمون بالفطرة، أليسوا كذلك؟» أبلغني تحيات إنيس وأنها تعتذر عن عدم تمكنها من رؤيتي. لقد غادرت لفورها إلى جزيرة «كورشولا» مع الأطفال، وأنه سيلحق بها قريبا أيضا، حالما ينتهي من تسليم الدرجات. وطلب مني أن أرى أنكي في الأيام القليلة القادمة بخصوص إجراءات إخلاء الشقة التي استأجرتها عن طريقها، وبخصوص المفاتيح والتأمين وما إلى ذلك.

كان سيز صادقا في حديثه. لم يكن هناك أي إشارة توحى بسوء النية. مع ذلك لم يتطرق إلى موضوع المكان الذي سأذهب إليه بعد أمستردام، فأولئك الذين يتوخون الحذر لا يسألون أسئلة قد تتم إجاباتها عن التزامات من طرفهم - لكن طوال الوقت كان تفكيري مشغولا خلال حديثه بشيء واحد. قاطعته وقد أصابني الفزع: «سيز، إن تأشيرة إقامتي هنا أوشكت على الانتهاء».

«لا أعرف كيف يمكنني المساعدة».

«يمكنك أن تكتب رسالة بصفتك رئيسا للقسم تؤكد فيها أنني سأدرّس هنا في العام القادم».

«ولكن ذلك ينقصه الصدق. لا أستطيع المجازفة بذلك».  
«لا تكثر السلطات بالحقيقة، فهم يهتمون بالوثائق فقط.  
لا يوجد مجازفة إطلاقاً».  
«لا أعرف ما...».

قلت بصوت كدت لا أميزه: «سأحضر غدا لأخذ الرسالة.  
يمكنك تركها عند آنكي».

تركت المكتب مطمئنة بأن الرسالة التي تحمل ختم القسم،  
وكل ما تحتاج إليه ستكون بانتظاري في اليوم التالي. ثم هرولت  
نازلة الدرج وذهبت إلى المقهى في الجهة المقابلة من الشارع.  
وصلت الحمام في اللحظة الحرجة، ورحت أتقيأ بشكل لم  
أعده في حياتي.

فيما بعد، سألت نفسي عما سأجنيه من الرسالة، ولماذا أذلت  
نفسي لأحصل عليها. ما قيمة التمديد إذا لم يكن هناك شاغر  
للوليفة؟ لقد شاهدت أعراض حمى المهجرين عند الآخرين،  
عند «جوران»، على سبيل المثال، ولكنني اعتقدت أن لدي حصانة  
منها. كان هناك كل ذلك الحديث عن «الأوراق»، والاستعداد  
للذهاب إلى آخر مدى من أجل الحصول على «الأوراق» المناسبة.  
ثم ماذا؟ «ثم سندرس الأمر». لقد شاهدت الوجوه تغير تعبيراتها  
بشكل متلاحق، أو تدمج المكر والتذلل والخوف معا، وشاهدت  
النظرة المتوترة، والحزينة، ونصف الإجرامية تلاحق التزامم من  
أجل الحصول على آخر جحر متوافر. سمعت أحاديث مفعمة  
تتوقف فجأة بسبب سيطرة جو من اليأس غير المرئي، ولكن  
الناس ينفذون ذلك اليأس ويستأنفون أحاديثهم بالحيوية نفسها.

أنا لست مهجرة، فأنا أملك جواز سفر في جيبي. لماذا أذلت نفسي أمام سيز، فضلا عن إنيس، التي من المؤكد أنها ستسمع عما حدث مباشرة. («أعني أننا عملنا كل ما نستطيع فعله لها. ينبغي على المرء أن يتولى أمره في النهاية. السفر إلى الخارج يلفه الغموض...»). آه يا إنيس! تلك الحلوة، والخفة، والأبهة، ودفاء الجنوب، والرضا الذي يلج منزلا جدرانها تتألق من الغنائم، غنائم الزواج الأول. («شيء لنري الهولنديين أننا لسنا متسولين، تعرفين ما أعني؟»). كانوا يرون أنفسهم في حصن برجوازي منيع، بينما كنت أراهم يتأرجحون على طوف جليدي، وهما يبتسمان ويثرثران طوال الوقت، وهما يخرجان أواني الجدة الفضية. الفضيّات، واللوحات الساذجة هي سلاحهم الوحيد أمام القدر، وأمام الشر، فهي الإشارات الأكيدة بأنهم ينتمون إلى طبقة محصّنة من الأذى. أما بالنسبة إليّ، فسأجد شيئا. أملك شهادة الدكتوراه، وقلبا سلافيا كبيرا. السلافيون معلمون بالفطرة، أليسوا كذلك؟ سأحصل على تصريح الإقامة وبعض الفتات عن الطاولة، ومن ثم ماذا؟ ثم سندرس الأمر.

بعد أن هدأت قليلا، أدركت أن سيز لم يعد بأي شيء، ولم يكن ليلام على أي شيء. كنت أفقد إلى الموارد الداخلية والخارجية معا. لقد كنت مكشوفة لمن يريد. يستطيع أي شخص أن يأخذني ويركلني ويفعل بي كل ما يريد، ثم يتركني مجروحة مهیضة الجناح. بسبب هذا كنت صيدا سهلا لثرثرة إنيس وكلماتها المعسولة. واللوم لم يكن ليقع عليها مثلها مثل

سيز. لقد فقدت كرامتي، وارتدّيت قناعاً محاولاً الدفاع عن نفسي، واندمج القناع مع وجهي، وحفر طرقاً داخلية عميقة في كينونتي. لم أعد أعرف نفسي.

مررت بإيجور وأنا خارجة من المقهى. كان يرتدي سماعات الأذن ويقرأ في كتاب كعادته. لم يرني. فجأة فكرت بالأمريكيين الذين كنت أعتني بأطفالهم في برلين، أولئك الذين طالما عرفوني على أصدقائهم. «هذه تانيا. راعية أطفالنا. أنها من يوغسلافيا السابقة. إن تانيا رائعة مع الأطفال. تعرف كيف تعاملهم حقاً».

«أنت واحدة منا؟»، يسأل بنظرة فطنة وابتسامة تكشف عن سن من الذهب. تتدلى من زاوية فم صاحبه سيجارة مبللة.  
أرد قائلة: «نعم، أنا واحدة منا. من أين أنتما؟»  
«أنا من سميديريفو، وهذا الرجل من كومانوفو. وأنت؟»  
أقول: «أنا؟ أنا من المريخ».  
الآن يبتسم كلاهما.

قال الفجري: «لا يوجد فيها ما يشبه أهلنا. الشفة هي ما تميزهم». ثم استدار نحو. «أتريدينا أن نعزف لك شيئاً؟»  
«لم لا».

«إذن، شيء من الوطن. من المريخ».  
«رائع».

التقط مزماره. ألقى صاحبه «بالأكورديون» على كتفيه ثم ألقى السيجارة أرضاً.

أخرجت ورقة نقدية من فئة مائة جيلدر وأسقطتها في القبة.  
نظر عازف الأكورديون إلى الورقة النقدية وأعول «الرحمة يا أختي. هل أصابك الجنون أو شيء ما لتلقي بالنقود هكذا؟ احتفظي بها للظروف القاهرة، ليوم من أيام الشدة. حسناً، أتركي لنا جيلدرا أو جيلدرين، لكن هذا المبلغ؟ «يا إلهي! لا تفقدي صوابك يا امرأة. النقود لا تنمو على الأشجار!».

طمأنت قلقه ولوحت إليه بيدي وتحركت بعيداً إلى داخل الحشد، شاعرة بقبلة الفتى الفجري المؤلمة - «اغربي، أم، أيتها

الشمس الذهبية، اهبطي. اجعلي السماء مظلمة للقمر...»،  
«تفجري في قلبي، واسكني فيه. وفجأة كان قلبي يسبح في  
الدماء، والجليد الذي يغطي جدرانه راح يذوب، ورحت أترنح  
عبر السوق والدم يقطر مني.

يعد سوق «ألبرت كايب» أكبر الأسواق وأشهرها في  
أمستردام. يقع في منطقة «بيب»، وهي منطقة كانت تقطنها  
الطبقة الكادحة. وتأتي منصّات السوق، التي يقال إنها تنوف  
على الثلاثمائة منصة، تتّصب كل صباح ولا يتم إنزالها إلا في  
وقت متأخر عصرا. كانت مسألة شراء السمك، أو الفاكهة، أو  
الخضار مجرد غطاء مقنع للقوة المغناطيسية الغامضة التي كانت  
تجذبني إلى ذلك السوق الذي يلفه غبار اللقاح والعبق القوي  
للتوابل الآتية من وراء البحار، مدفوعة بالرياح والملح - الينسون،  
والقرنفل وجوزة الطيب. كان الهواء يتلألأ مع الحرير البديع،  
والمنسوجات السميكة، والمجوهرات الغريبة، والذهب، والخرز،  
والأصداف المفتوحة، واللون الفضي اللامع للسمك الطازج. كان  
للتفاح في سوقي لمعته الخاصة به، إذ توهجت كل حبة عنبه  
كمصباح، وكان الحليب دسما وناصع البياض، أشبه ما يكون  
ببشرة امرأة الرسام «فيرمير».

لكن أحيانا كانت المغناطيسية تفقد قوتها عندما تقبع  
سمكة ميتة بثقلها على المنصة، ويفقد التفاح، بالرغم من  
احتفاظه بحمرته، والخس، بالرغم من احتفاظه بخضرته،  
لمعانه. وهناك أيضا بائعو الملابس الرخيصة ومحيطهم الذي  
يعبق بروائح القماش الاصطناعي، أولئك الذين يبيعون أقمشة

ما أنزل الله بها من سلطان - أقمشة من الألياف الصناعية، ومساحات بلاستيكية من مختلف الأشكال والأحجام، وعقدا مصنوعة من النايلون بجميع الألوان، وأدوات خشبية بأصابع بلاستيكية لهرش الظهر، وأطعمة خفيفة ملفوفة في أكياس؛ وثمة بائعو الصابون، والشامبو، وكريمات الوجه، والحقائب اليدوية، والأزهار الاصطناعية، ووسائد الكتف، وقطع القماش، والإبر والخيوط، والمخدّات والبطانيات، والمطبوعات والإطارات، والمطارق والمسامير، والنقانق والجبن، والدجاج وطيور الدراج، والأوشحة البالية.

بينما كنت أتجول بين المنصّات وقلبي ممتلئ بالشظايا الفجرية، صادفت شيئاً جذب نظري مباشرة - إنها حقيبة بلاستيكية بخطوط حمراء، وبيضاء، وزرقاء. لقد كانت «أنا» محقة، فقد اشتريتها بجيلدرين فقط. ثم إنني أشبه ما أكون بلعبة ميكانيكية معبأة، توجهت إلى الجزار الذي يدعى «زويد»، وجنوب، هي الشفرة لليوغسلاف المحليين الذين كانوا زبائنه الرئيسيين. كانت واجهة عرض اللحوم تزخر بمفاصل لحم الخنزير، وكانت الرفوف تضم مجموعة متواضعة من المقبلات التي تثير الحنين إلى يوغسلافيا: من بهارات مقدونية، ونقانق من مدينة سريم، وزيت زيتون، وبسكويت البلازما (الذي جعله اسمه المضحك سلعة رائجة حالما ظهر في الأسواق)، وقهوة ميناس (التي كان مصدرها تركيا طبعاً)، وحلوى المدخنة الزنجية (التي راجت أيضاً بسبب اسمها). اشتريت علبة من البهارات وبعض الحلوى. كان ذلك على سبيل المجاملة، رمزيا ليس إلا،



فقد كنت أكره تلك البهارات، وكان طعم الحلوى مُرّاً .

فيما كنت أفكر بالألوف المؤلفة من المهجّرين الذين يتركون دولهم للمجيء إلى دول كهذه الدولة، والذين يشترّون بهارات يكرهونها وحلوى يعرفون مرارتها، وحقائب لن يستخدموها قط، وأدوات مضحكة بأصابع بلاستيكية لهرش الظهر، وعقدا من النايلون؛ في تلك الأثناء تابعت رحلتي الآلية متجهة نحو الشارع الفرعي بجانب متنزه «أوستر» حيث يوجد مقهى بوسني يسمى «بيلا». وجدت في المكان مجموعة من الرجال بوجوه متجهمة وشفاه مشدودة يلعبون الورق. كانت نظراتهم إلي مطولة ولكنها خلت من العاطفة تماما، حتى إنه لم يفاجئهم أن تلج امرأة عالمهم الذكوري. اتخذت مجلسا في الزاوية، وطلبت «قهوتنا»، وجلست في المكان نادمة، إذا جاز التعبير. وسرعان ما بدأت أشعر بالصفعة غير المرئية على وجهي، ولاحظت أنني اُحدودبت كالرجال الموجودين في المكان.

بعد أن أنهيت شرب القهوة، أخذت الآثار التي جمعتها في رحلة الحج - علبة البهارات المقدونية، وحلوى المدخنة الزنجية التي تقبع في الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمراء، والبيضاء، والزرقاء - وبدأت رحلة العودة إلى المنزل. لقد تلاشت الشظايا العجرية في قلبي أثناء الفترة الفاصلة، ولم أعد أنزف دما، ولكنني لم أستطع تحديد ما إذا كنت قد ودّعت شيئا لفوري، أم أنني امتلأت باستمارة تقديم غير مرئية. «بحق الله يا أختاه. أنت مجنونة أو شيء؟».

# الجزء الرابع



أنا مثل شفرة تمشي على قدمين  
 ألا ترى حجمي  
 أنا خطير  
 عاملني بشكل جيد  
 إن أردت أن تعيش  
 من الأفضل لك أن تعاملني جيدا.

### بيتر توش

عرفت أنه إيجور لحظة قرع جرس الباب. عرفت أنه سيأتي من أجل معرفة السبب. دخل، وتجول في الغرفة وكأن حجمها لا يتسع له وأنه لم يكن قرر بعد ما إن كان سيبقى أم لا، ولكن بعد ذلك وضع حقيبة الظهر على الأرضية، وقال: «إذن هذه شقتك». «نعم، هذه شقتي».

قال بسخرية: «غرفة معيشة ونوم معا، ومطبخ بمستلزماته وحمام»، ثم قال مقتبسا إعلانا تجاريا من التلفزيون اليوغسلافي: «مساكن صغيرة، متران في ثلاثة أمتار».

«آمل أن يكون مسكنك أفضل من هذا».

«إذن، قمت ببناء عشك الصغير تحت الأرض».

«لنقل إنه الطابق الأرضي».

قال وهو يجول بنظره في الغرفة: «ليس لديك الكثير من الكتب، أليس كذلك. بالنظر إلي مهنتك، ليس إلا».

سألته متجاهلة تلك الملاحظة : «هل تود أن تشرب شيئاً؟»  
«بعض القهوة. لا أرى أنك اختزنت أي شيء آخر هنا».

بينما كنت أصنع القهوة، فكرت فيما سأقوله له. وبالرغم من أن الأكواب كانت نظيفة، إلا أنني غسلتها مرة أخرى. أمضيت وقتاً طويلاً في البحث عن علبة السكر. فعلت كل ما أستطيع في سبيل كسب الوقت.

هي من زغرب، تُعتبر، نتاجاً حقيقياً لهذه المدينة وامرأة شابة رائعة حقاً. وبالرغم من أنها في عهد الغرارة والطيش، ألا أن لديها إرادة حديدية وثابتة وجسورة. لا أحتاج إلى القول إنها متمكنة من شؤون البيت بالمقاييس التقليدية، لكنها أيضاً تعرف الفرنسية والإيطالية، وتستطيع أن تغني وترسم، وتملك يداً بارعة في التطريز. وهي تعشق أن يقال لها إنها تقوم بواجباتها بتفان كبير، وإن هناك مساحة مثالية في طبيعتها، وهذا جعلها تعتبر الإصلاح وتشريف الأرواح المودعة لديها مهمة مقدسة.

كان هذا اقتباساً من «برانكا» للكاتب شينوا، ذلك العمل الشهير في النثر الرومانسي، حيث تغادر معلمة في مقتبل العمر، مشحونة بمثاليات الحركة الإحيائية الوطنية الكرواتية، تغادر زغرب متوجهة إلى قرية «يالشيفو» النائبة لتعليم أطفال القرية. وبينما كنت أصب القهوة مديرة له ظهري، كنت أستمع له يقرأ من النسخة التي كنت قد استعرتها من المكتبة. كنت أشعر بذقني ترتجف، وخفت من أن انفجر في البكاء. كانت طريقة صبيانية لإثارتني، ولكنني أحسست بأن ذلك كان مجرد مقدمة لشيء غريب كان قد أعد له.

قال وهو ينزل الكتاب ويومئً باتجاه النافذة: «إذن، كنت تقضين كل هذا الوقت تتفرجين على أرجل المارة».

قلت بصوت هادئ قدر المستطاع: «يمكنك أن تتحمل شيئاً إن عرفت أنه لفترة مؤقتة. يضاف إلى هذا أنني سأرحل في غضون بضعة أيام».

سأل، غير مكترث بالمكان الذي سأذهب إليه، أو أنه تظاهر بعدم الاكتراث: «ما الذي يجعلك متأكدة أن ذلك مؤقت؟»  
قدمت له القهوة على صينية. كنت أعرف لماذا جاء وقررت الذهاب إلى الموضوع مباشرة بغض النظر عن النتائج.  
«انظريا إيجور. أنا آسفة جدا...»، وبدأت أضع الصينية على الطاولة.  
«عظيم. أنتِ آسفة».

«اجلس» قلت، وقد جلست أنا. بقي واقفاً. أدار ظهره لي من جديد، وجعل يحملق عبر النافذة.  
«أعلم أنك هنا بسبب الدرجة التي أعطيتها لك».  
استدار وحملق فيّ بعينه السوداوين المائلتين.  
«وإن كان الأمر كذلك؟»

«لا أعرف» أجبته. شعرت بصوتي يتكسر وبذقتي يرتجف من جديد.

استدار مرة أخرى وعبر الغرفة متجهاً إلى السلة التي كنت أضع فيها أشياء مختلفة، بما فيها الهدايا التي قدمت لي في عيد ميلادي. بدأ إيجور يتفحص الهدايا.

قال وهو يخرج زوجاً من القيود: «كانت الأمور جيدة جداً في

البداية، أليس كذلك؟»

قلت بحذر: «أجل...».

«بالمناسبة يا رفيقة، هل سبق أن جربت هذا القيد؟».

«لماذا أجربه؟».

«أوه، من قبيل حب الاستطلاع. ألم تتساءلي حتى كيف يُفتح؟»

«كلا».

قال: «وكنت أظن أنه يفترض بالعلماء أن يتميزوا بحب

الاستطلاع».

احمر وجهي خجلا بسبب التهكم في صوته، ومرة أخرى كنت

على حافة البكاء.

تقدم إيجور نحوي وأخذ كوب القهوة من يديّ، ووضعه على

الصينية.

«ما قولك في أن نجربه؟» سألني، وقد أخذ يدي ووضعه شفتيه

على معصمي. كانت شفثاه باردتين وجافتين.

ثم رفع معصمي وبمهارة قيّده بذراع الكرسي.

قال بلطف: «في هذا الوضع، أنت الآن عبدة لي».

نطقت بكلمات لم يكن لها وقع كلماتي: «أي نوع من الهزل

هذا؟».

سحب إيجور كرسيه إلى مكان قريب مني وأخذ يدي الأخرى.

«كان ذلك سريعا، أليس كذلك؟ أراهن أنك أعجبت بذلك. لقد

تمرّنت عليه لساعات طويلة».

سحبت يدي منه. «كفى الآن. انزع القيد من فضلك. لن يكون

هذا صعبا بعد كل ذلك التمرين الذي تمرّنته». وكنت أفعل كل ما

أستطيع لرسم ابتسامة على شفتيّ.

أخذ يدي الأخرى من جديد، ووضعها على خده ومسّد عليها  
مرات عدة.

قال: «آه، يا بروفيسورة. إنك تملكين يدا من القرن التاسع  
عشر».

«أملك ماذا؟»

«يدك تشبه أوصاف الأيدي في روايات القرن التاسع عشر،  
يد بيضاء رقيقة».

وضع يدي على يده وقلبها كما يقلب القفاز.

«ما عليك إلا أن تقضي أصابعك. مثل طفلة صغيرة». وبدون  
سابق إنذار دفن رأسه في حضني وقال: «ساعدي طالبا مسكينا،  
ألا يمكنك ذلك؟».

اعتدلت، وسحبت يدي منه، وجعلت أمسّد شعره. بقي في  
مكانه لبعض الوقت، ثم رفع رأسه وأخذ يدي ولحس راحتها قبل  
أن يضع معصمي بالقيد الثاني ويربطه بذراع الكرسي الآخر.  
قال لي: «حسنًا. الآن أنت ملكي، بكل ما تعني الكلمة من  
معنى».

قلت وقد احمررت خجلاً من جديد: «لننهي هذه اللعبة  
الخرقاء، من فضلك؟»

قال ساخراً: «إذن، ما زلت تأملين أنها مزحة».

«توقف عن تصرفاتك الغريبة تلك يا إيجور. إن كنت تعتقد  
أنك عدت من أجل تقديمي للعدالة...».

«العدالة! أنت واهمة، يا رقيقة. أنا لا أكرث بالعدالة إطلاقاً».



«كان سبب إعطائي إياك درجة «راسب» هو أنك وشيت بي لسيز دراسيما».

«أنا؟!»

«بعد الفصل الأول وشى أحد الطلبة لسيز بأننا لم نفعل شيئاً في حجرة الدراسة، وأن الأمر كان مضيعة للوقت، وأنني كنت أجبركم على الذهاب معي إلى المقاهي».

قال هازئاً، بالإنجليزية التي هي لغة سخريته: «لا تقولي ذلك!»

تولد لدي شعور بأنه لم يفاجأ البتة.

«لقد أخبرني سيز بكل شيء».

«واعتقدت أن ذلك الشخص هو أنا؟».

«إنه واحد منكم. أنت أو شخص آخر».

«ثم ماذا؟»

«ثم ماذا؟ لقد روجتم الأكاذيب عني، ووشيتم بي، ولم تكن لديكم الجرأة أن تتحدثوا معي مباشرة. كلا، لقد هرولتم إلى سيز وأخبرتموه بذلك من وراء ظهري!».

«لذلك قررت أن تنتقمي منا».

«لم أكن أنتقم منكم. كنت أقوم بعملتي»

«لكن ماذا لو لم يكن هناك أحد اشتكاك؟ ماذا لو كانت القصة برمتها من نسج خيال دراسيما؟»

«ما الذي يجعله يفعل شيئاً كهذا؟»

«من قبيل الهزل، ليس إلا. أو ليري قدرته على التلاعب بك وبنا جميعاً بسهولة».

«لم يراودني ذلك الشك، إذ بدا صادقا فيما قاله. بدا وكأنه يمتلك تقارير عن كل المحاضرات».

«أعرفين رأيي يا رفيقة؟ لا أعتقد أن سيز هو المشكلة، ولا أعتقد أن المشكلة هي نحن؛ إن المشكلة هي أنتِ بالذات. أنتِ من كان يبحث عن ذلك. حتى لو أننا كنا شكوناك إليه، كان بإمكانك تجاهل ذلك ونسيانه. أو كان بإمكانك معالجة ذلك. فنحن جميعا نواجه هذه المشكلة. كان بإمكانك أن تصفحي عنا. كان بإمكانك أن ترأفي بأغبياء مثلنا. كان بإمكانك أن تتحدثي معنا لحل المشكلة. كان لديك الكثير من الخيارات. أترين هذا؟ ولكن الحل الذي اخترته هو أن تشني حربا ضد الفصل بأكمله».

«ما الذي تتحدث عنه؟ أنا لا أفهم ما تقول».

«أخبريني، لماذا أعطيتني درجة راسب؟».

أجبتة: «لا أعرف»، وكانت تلك أصدق إجابة يمكن أن آتي بها.

قال بهدوء وهو يلمس ركبتني: «أنت تعرفين السبب حق المعرفة، أيتها السافلة. أنت فقط محرجة من الاعتراف بذلك».

«كيف لك أن تخاطبني بمثل هذه اللغة! قم بفك هذه القيود، وإلا اتصلت بالشرطة».

«أنت مثيرة للشفقة يا رفيقة».

«مثيرة للشفقة؟»

«كيف تقترحين أن تضربي الرقم؟»

لم يكن لدي إجابة.

«ماذا تريد مني على أي حال؟»

«يبدو أنك تعلمت هذا التعبير من أحد الأفلام التجارية. ماذا أريد منك؟ لا أعرف ماذا أريد منك بنفس الطريقة التي لا تعرفين لماذا أعطيتني درجة «راسب». لنقل إنني أريدك أن تتشجعي بعض الشيء. أريد أن أسمع الطريقة التي تتحدثين بها عندما تضغطين على جرس الإنذار. أريد أن أعرف ماذا يجري حقا».

«ماذا يجري حقا؟»

«أوه، إنني أقرأك جيدا. أعرف كم أنت مرعوبة. ولكن هناك شيئا يمنعك من خلع قناع المعلم الذي ترتدينه. أشعر وكأنني في دورة سخيصة تتعلق بالدفاع التافه عن حدود سيادة الذات».

«كفاني من هذا. سأبدأ بالصراخ». لم أصدق حماقة ما تلفظت به.

«اصرخي وسأصفعك صفعة...».

رددت عليه: «لن تجرؤ على ذلك».

«أتراهنين؟»

وقبل أن أفتح فمي، صفعني على وجهي صفعة قوية. فقدت قدرتي على التنفس.

تمكنت من قول: «أنت مجنون!»

«وأنت»

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: «كيف تجرؤ على هذا؟».

«إنني شخص يمتلك الجرأة. يمكنك التخلص من تباهيك الفارغ».

«انظري يا إيجور. كل ما عليّ فعله هو الاتصال بالقسم وتغيير الدرجة».

«أنت تثيرين الشفقة مرة أخرى يا رفيقة. أنا طالب الامتياز، ولن تغيّر درجتك من الأمر شيئاً».

لقد أفحمني. لم أجد طريقة للدفاع بها عن نفسي. ولم تكن لدي الإرادة كذلك. أخذت نفساً عميقاً وقلت بحذر: «سامحني يا إيجور. سامحني. أرجوك».

قال بهدوء: «لا يبدو أنني سأنتزع ما أريد من صدرك».

«تنتزع من صدري ماذا؟»

«ما ينبغي قوله».

«لن تستطيع الآن ولا مستقبلاً، لأنني لا أملك ما تريد! فأنا أحاول ذلك منذ شهور».

كنت أرتجف من الغضب. مرة أخرى سمعت نفسي أتحدث مثل طالب أجنبي في دورة لتعلم اللغة الكرواتية. حاولت أن أخرج يدي من القيد، ولكنني كنت أئن من الألم.

تعامل إيجور مع احتجاجي وكأنه يشاهد عملاً مسرحياً رديئاً. ثم مدّ يده في جيبه وأخرج لفة من الشريط اللاصق. «أين تحتفظين بمقصك؟»

قلت من خلال دموعي: «على الرف».

قطع «إيجور» قطعة من الشريط ووضعها على فمي بمهارة محترف.

«ها أنت هنا! لقد حصلت على ما تسعين إليه: فيلم الأسبوع. أنت فخورة بنفسك، أليس كذلك. لديك رأي عالٍ في نفسك؛ فأنت تعرفين أنك في مأزق حقيقي، ولكنك متأكدة من أن لديك سبل النجاة. أنت متأكدة من أن لديك مرتبة عالية وممتلكات

ورجل (بالرغم من أنه رحل إلى اليابان) وشقة (بالرغم من أنها مأهولة بالغرباء) ومكتبة (رغم أن الكتب لم تعد ملكا لك)، وشهادة دكتوراه (بكل ما تقدمه لك من ميزات). وفي زاوية دفينة في عقلك، أنت متيقنة من أن الحياة ستعود كما كانت من قبل، وأن الحياة التي تعيشينها الآن ما هي إلا نزهة قصيرة تقومين بها. كل ما عليك فعله هو أن تطلققي أصابعك وتصيحين بأعلى صوتك بأن الأمور عادت إلى طبيعتها. ألسنت على حق؟ وبالرغم من أنك أمضيت شهورا وأنت تعدين أرجل المارة عبر النافذة، وبالرغم من أنك شاهدت الأفلام التجارية بوفرة، إلا أنك لم تتخيلي نفسك في سيناريو آخر: كأن تقفي في واجهة عرض زجاجية في المنطقة الحمراء تحاولين إغراء المارة إلى مضجعتك الحقير، أو ملاطفة الرجال المسنين السذج مثل ميلها، أو القيام بتطهير الحمامات مثل سليم.

هل فكرت يوما أن طلبتك قد يكونون أفضل منك؟ أناس أفضل؟ هل حدث ذلك؟ أنت لست شخصا غير حساس يا رفيقة. ربما يكون راودك شيء من هذا القبيل. ولكن هل راودتك إمكانية أن يكون طلبتك يعرفون أكثر منك؟ إلا أنهم تعودوا على الذل، وألا يتباهوا بمعرفتهم. لقد علمتهم التجربة أن الأمور نسبية. والأمور نسبية حقا. حتى البارحة كانت المسافات تقاس بالسنتيمترات، إذ كان يمكن أن تصيبك قنبلة ما. من المؤكد أنك تتعاطفين مع أولئك الذين عانوا، من أصابتهم تلك القنابل. ولكنك لن تعترفي بذلك لنفسك أبدا - ففي الأماكن الدفينة من عقلك أنت تظنين أن القنبلة تختار هدفها. وإن كان الأمر كذلك،

فلا بد من وجود سبب لذلك. هناك ما يمنعك من الخروج باستنتاجات وجيهة، من فهم أن كونك معلمتنا هو محض صدفة لا غير. كان من الممكن ببساطة أن يكون الأمر عكسيا تماما، أن تكوني أنتِ جالسة معنا، وكان من الممكن على سبيل المثال، أن تكون ميليتها هي المعلمة. لقد دمّرتنا تلك القنبلة وحولتنا إلى أشباه بشر، ولكن يبدو أنك تظنين أنك أحسن حالا منا، ورفعت شعور الاستعلاء جاعلة منه قانونا من قوانين الطبيعة.

أخبريني، هل خطر ببالك أنه ربما كنت تعذبتنا طوال ذلك الوقت؟ هل خطر ببالك أن الطلبة الذين كنت تجبرينهم على الاستذكار كانوا يتوقون للنسيان؟ إنهم كانوا يخترعون الذكريات لتسليتك بنفس الطريقة التي كانت قبائل «بابوا» غينيا الجديدة تخرع أساطير آكلي لحوم البشر لتسلية علماء الأنثروبولوجيا؟ طلبتك ليسوا مثلك، فهم يحبون هذا البلد. وبالرغم من أراضيتها المنبسطة وأمطارها المستمرة وصعوبة وصفها، إلا أن لهولندا ميزة فريدة - إنها بلد النسيان، والبلد الذي يخلو من الألم. يتحول الناس إلى برمائيين هنا، طوعا دون إكراه. يحوّلون لون الرمال، ويمتزجون فيها قبل أن يتواروا، أشبه ما يكون بالأحياء البرمائية. هذا كل ما ينشدونه - التواري. السهل الهولندي عبارة عن نشافة ضخمة تمتص كل شيء - الذكريات والألم وكل ذلك الهراء....».

توقف إيجور عن الحديث. بدا مرهقا. أخذ كتاب «شينوا» مرة أخرى عن الرف وجعل يتصفحه وهو شارد الذهن. شعرت بالدموع تسيل على خديّ. لم أستطع أن أحدد سبب

تلك الدموع. الإذلال؟ رثاء الذات؟ الطبيعة المأساوية للموقف الذي وجدت نفسي فيه؟ أو طبيعته الهزلية؟ يا إلهي! جعلت أفكر. أشعر بأنني أقرب من هذا الرجل في هذه اللحظة أكثر من شعوري بالقرب من أي رجل آخر في حياتي في الماضي، ولا أجد سبيلاً لأبوح له بذلك. ولم أكن أشير إلى أن شفتي كانتا مغلفتين بالشريط، ولكنهما كانتا مغلفتين تماماً دون وجود الشريط.

لا بد أن إيجور قد قرأ ما دار بذهني. عندما استدار ليواجهني، قرأ بصوت عال النص التالي: «بدأ مقياس ضغط قلبك بالهبوط، وبدأت عيناك تغروران بالدموع».

كنت في الجهة الأخرى. كان يفصلنا جدار غير مرئي من الجليد. هل من الممكن أن يقول إنه كانت لدي رغبة واحدة في تلك اللحظة، وهي أن أضرب رأسي في عرض الجدار؟ احتجت إلى المساعدة. عانى قلبي من خطأ ما، ولكنني لم أستطع أن أحدد مدى خطورته. لقد كنت بحاجة ماسة إلى ملجأ، إلى حضن ألف نفسي فيه، إلى مكان انتظر فيه للتخلص من الألم، مكان آتي إليه، أعود فيه إلى نفسي.

«أرجوك أن تخبريني يا دكتورة»، قالها ملقيا الكتاب بشكل درامي على الأرضية، «ماذا أنا فاعل بك؟ إن أدبا هامشيا كأدبنا لا يستحق الجدل حوله. كلا، كلا، لا تقلقي. إنني آسف من أجلك، فأنت مدرسة لآداب هامشية، آداب صغيرة، والأسوأ أن هذه الآداب تقلصت في الآونة الأخيرة. ولكنك ما زلت تجرئها من خلفك حيثما ذهبت. الوقت يمر وقد أصبح متعذرا تغيير

حقل التخصص، إذ لا يمكنك التخلي عن تلك الآداب هكذا،  
أليس كذلك؟ إذن، ماذا أنت فاعلة؟ أن تتقذي ما يمكن إنقاذه.  
لقد ذهب كل شيء إلى الجحيم - الفتيان والفتيات، ولكن لنجمع  
القطع من بين الحطام كعلماء الآثار».

هل فكرت فيما ذهب إلى الجحيم؟ أكوام من الكتب باللغتين  
الكرواتية والصربية، وباللغتين السلوفينية والمقدونية، وبلغات لا  
يحتاجها أحد. وعن ماذا؟ تعليم «الناس»، «الأهل» القراءة. الأدب  
الحقيقي لا يُعلم الناس القراءة؛ إنه يفترض أنهم يستطيعون  
القراءة. في السنة التي نشرت فيها رواية «مدام بوفاري»، كانت  
زغرب قرية عدد سكانها ١٦٦٧٥، ستة عشر ألفا وستمئة  
 وخمسة وسبعين شخصا! عندما استل مثقفونا المحليون أقلامهم  
للكتاب، كان جميع العمالقة الأوربيين أمثال «جويث» و«ستدال»  
و«بلزاك» و«جوجول» و«ديكنز» و«دوستوفسكي» و«فلوبيرت»،  
و«موبسان» - يملأون الحياة الأدبية. في السنة التي ظهرت  
فيها رواية «الجريمة والعقاب»، كان ثمانون بالمائة من الكرواتيين  
أميين.

لذا، كوني واقعية يا رفيقة. انظري من حولك. لقد غدا فصلك  
خاويا، فقد تخلى عنك طلبتك. خرجوا ليروا العالم الفسيح، فهم  
يملكون منظومات قيمة خاصة بهم، ويقرأون لغات مختلفة (إن  
كانوا يقرأون فليكن ذلك، هذا إن كانت القراءة ما زالت تعني  
لهم شيئا)، بينما أنت ما زلت تعيشين في العصر الذي لم يعرف  
«مهمة أنبل من نشر النور والثقافة والمعرفة بين الناس». إن  
القلب الذي ينبض في صدرك هو ذلك القلب الذي كان ينبض



في صدر معلمة القرية «برانكا» في رواية «شينوا» قبل مائة عام. ماذا تعرفين غير ذلك؟ أنتِ لم تتعلمي حتى اللغة الهولندية! وهذا وضعك خلف طلبتك بخطوة عملاقة.

ولعبة الذاكرة تلك التي فرضتها علينا! خلال بضع سنوات سيتحول ذلك الهراء من الحنين إلى سيل من الأموال المتدفقة. كان السلوفينيون أول المستفيدين من ذلك، فقد طرحوا قرصا مضغوطا في الأسواق يضم خطابات «تيتو». وهنا تذكري ما أقول. ستختفي فكرة الحنين إلى يوغسلافيا من أسماعنا. وإن أردت أن تعرفي أكثر ما أتذكره عن الوطن البائد، ما أتذكره هو أن أولئك السفلة المحليين أرادوا تجنيدي وإرسالني إلى الجبهة! من أجل الحفاظ على إنجازات بلدهم. بلدهم؟ كل المكان ملك لي. أنت تعرفين الأغنية: «من فاردار في الجنوب إلى تريجلاف في الشمال....».

كان «إيجور» في حالة انهيار - مناقضا لنفسه، ويلهث ليلتقط أنفاسه، ولكن تلك كانت حالتي أيضا، ولم أر سبيلا لتجميع نفسي من جديد.

«لم أجد أحدا يقف بجانبني. لا أحد إطلاقا. لو لم أنج بجلدي لكنت جثمانا اليوم. لم تقفي معي أنتِ أيضا. لكننا لم نكن بحاجة إلى درجاتك، ولا إلى أدبك التافه أيضا. ما كنا نحتاج إليه هو إنسان عاقل لمعالجة الأمور. في البداية بدا وكأنك في الطريق الصحيح، إذ كنت متلعثمة وقلقة. ولكن سرعان ما استسلمت. لقد توقفت في منتصف الطريق. كان موضوعك يدور حول ثقافة فقدت جوهرها بالكامل، وقد غاب عنك ذكر تلك الحقيقة.

ثم إنك لم تتحدثي إلا عن الماضي، فعندما ناقشتِ الكاتب «أندريتش»، لم تذكرى أن مجموعة قصاصي الثقافة الحاليين قد جزأوه إلى ثلاثة في الوقت الحاضر: أندريتش الكرواتي، وأندريتش البوسني، وأندريتش الصربي. وعندما ناقشتِ تاريخ الأدب، نسيت أن تذكرى أن مكتبة جامعة سراييفو قد قصفت ومحيت من الوجود، وأن كتبها الآن تستخدم حتى في المواقف وتلقى في المزابل. في هذه الأمكنة تجدين التاريخ الأدبي الحقيقي للأمة اليوغسلافية. لقد حرقت الممتلكات عمدا. لم تتحدثي عن إحصاءات وأماكن الدمار. كلا، لقد التزمتِ بمنهاجك. لم تقفي بجانب ما كنت تعتقدين به، ولا حتى هنا حيث تتمتعين بقول كل ما تريدين. لقد أسأت إلى نفسك حقا.

في البداية، كما قلت سابقا، بدا وكأنك استوعبت الأمر. قلت إننا جميعا مرضى، وإنك أنت مريضة أيضا. ولكن سرعان ما أصابك الرعب، وقررت النجاة بجلدك. ويشبه هذا اعتقادك بأن الشيء الوحيد الذي له أهمية هو حقلك، لأن راتبك يأتي من التدريس في ذلك الحقل. لكن يا له من حقل بائس ومليء بالهراء. ومع ذلك اعتقدت إن كنت فتاة طيبة، فسيعطونك الوظيفة وتستقيم أمورك. لقد كنت مخطئة حقا. أنت لم تعولي على دراسيما، شخصية أخرى مثيرة للشفقة. ولكن عنده ميزة تقتقرين إليها، وهي أنه هولندي. إنه زائد عن الحاجة مثلك، وهو يعرف ذلك، ولكنه، على عكسك، يمتلك السلطة. لذا، أعطى الوظيفة لأناس تحت إمرته (زوجته)، أو لشخص يتفوق هو عليه (لاكي).

إني أشفق عليك يا رفيقة. تمسكي بأول هولندي تقابلينه. لأن هذا البلد طيب، ولن يخذلك. وشيء آخر أريد أن أقوله. أنت امرأة محظوظة، محظوظة لأنني أقول لك كل هذا. فهناك شيء من ثلاثة يحدث عندما تمرين بما مررنا به جميعا: إما أن تصبحي شخصا أفضل، وإما أن تصبحي شخصا أسوأ، وإما، كما فعل يوروش، تطلقين رصاصة على رأسك».

توقف إيجور عن الحديث فجأة، وساد الغرفة صمت يشبه البلمس الشافي. لم تزل عيناه تحملقان فيّ.

«حسنا، لقد نزلت عليّ اللعنة! وأنت تستمتعين بكل هذا! إنك امرأة متوحشة وجميلة، حقا إنك كذلك». مر بأصبعه على ملامحي، وكأنه يكتب رسالة: «أيا معلمتي الكرواتية الحلوة، أيا معلمتي الصربية الحلوة، أيا معلمتي البوسنية الحلوة...». حبست أنفاسي.

«ما أنا فاعل بك يا رفيقة؟ أخبريني. لقد انسحبت. أنت تختبئين. أنت سلحفاة تحت صدفتك. لا أحد يستطيع الوصول إليك. أنت تستطلعين من خلال برقع غير مرئي».

توقف من جديد. وضع يده في جيبه وأخرج شفرة حادة. تجمدت. انحنى فوقي، وأخذ يدي اليمنى، وضغط كفها على ذراع الكرسي وقام بجرح معصمي بهدوء وحذر. كان الجرح قصيرا وضحلا. جرحني مرة ثانية، وثالثة بالطريقة نفسها.

لم أشعر بأي ألم، لكن الدموع انهمرت من على خدي. من بين دموعي استطعت أن أرى تدفقا رقيقا للدم على طول يدي. بدت الجروح المغطاة بالدم في معصمي كسوار طبيعي.

«شيء تتذكريني به . ساعتك في المعصم الأيسر وفي المعصم الأيمن - إيجور، طالب المعلمة المدلل ... حسنا، سأرحل. وبالمناسبة، رقم الشرطة هو واحد واحد اثنان».

رفع حقيبة الظهر عن الأرضية واتجه نحو الباب. ولكنه عندئذ استدار نحوي، وبحركة سريعة بيده نزع الشريط من على فمي. صرخت.

«اهدئي!» قال بحنو، واضعا يده على شفتيّ. ثم سحب يده، وانحنى من فوقى، وقبلني قبلة رقيقة طفولية، وقد جمعت شفتاه الدموع في طريقها. «الآن لديك فرصة أخرى لتبوحى بسرّك يا دكتورة».

ربطت لساني عن الكلام معاندة.

قال بصوت هادئ يشبه الهمس، وهو يحملق في عينيّ «ماذا لو كنت ذلك الشخص الذي وشى بك لدراسما؟ قد أكون أنا من فعل ذلك. لقد كرهت ثقّتك الزائدة بنفسك، وشعورك بالنقمة، وشكوكك المصطنعة، وغياب الصدق في مشاركتك لنا في حياتنا. نعم، كان يمكن بكل بساطة أن أكون أنا. فقد تحولت أنا أيضا إلى بطل فيلم «الناهى»، إلى «شوارزنيجر». جمعينا شوازينجر الذي يثرثر - المجرمون، والمحتالون، والأبرياء والضحايا، والناجون، واللاجئون، والأهل في الوطن، والأهل هنا- لقد تغيرنا جميعا. والحرب هي المسؤولة عن ذلك، إنها الحرب. لا أحد يخرج من الحرب دون خسائر. لا أحد سليم العقل. لكنك تبدين في غاية الإشراق والتألق، مثل كوب من البورسلين. بالطبع، كنت أريد أن أكسرك،

وأهشّمك، وأنتزع شيئاً من داخلك، شيئاً من الحنو، ومضة عطف، أي شيء...».

حملق إيجور في بعينه السوداوين المائلتين وكأنه يقيس روحي. أمسكت لساني عن الكلام.

بعد أن رحل وأغلق الباب من خلفه، ساد الغرفة صمت جديد مطبق. بقيت جالسة هناك لفترة من الوقت دون حراك مصغية؛ ثم فجأة تشنّجت وبصقت رصاصة غير مرئية، تلك الرصاصة التي كنت أطبق عليها بين أسناني منذ البداية. خرجت من حنجرتي صرخة مدوية، الصرخة التي لا بد أن إيجور كان يحاول انتزاعها مني طوال الوقت. ولكن عندئذ كان إيجور قد ابتعد لدرجة لا يمكنه سماعها.

بعد مغادرة «إيجور» ومضت في ذهني صورة لأول سنة لي في المدرسة. لم تكن الطريقة التي كانت المعلمة تعاقب فيها التلاميذ بإيقافهم في الركن، وإنما بإيقافهم خلف السبورة، والسبورة في ذلك الوقت كانت توضع على حامل خشبي. وبالتالي كانت عبارة - خلف السبورة - رمزا للعار والإذلال.

في تلك الصورة وقفت تلميذة خلف السبورة كعقاب لها من المعلمة. كل ما استطعنا رؤيته من جسمها هو رجلها في جوربين أبيضين يمتدان حتى الركبتين وقدمان في حذاء من الجلد الأسود. وكنا سننساها بالكامل لولا أننا سمعنا فجأة صوتا ضعيفا بدأ يعلو تدريجيا عندما توقفنا عن الكلام وحبسنا أنفاسنا. عندها بدا جدول رقيق من البول يقطر على الأرضية. جلسنا وجعلنا نحملق بالسيل الذهبي الذي يتزايد من بين رجلها، وقد شق طريقة من على الأرضية نحو مقاعدنا.

بحجم مكبر وبحركة بطيئة عرض المشهد نفسه الآن أمام عيني. لم يزل جسم التلميذة متواريا خلف السبورة، فكل ما استطعت رؤيته هو جدول البول يتدفق في تشكيلة واسعة من القطرات اللامعة. ثم أدركت أنني أبول. كنت أحس بالسائل الدافئ يقطر من على رجلي. بقيت جالسة لفترة من الوقت، وأنا في حالة فقدان للوعي، أصغي إلى دقات قلبي. حبست أنفاسي، ورحت أتابع إيقاعه.

ثم جاءت صور أخرى، بطيئة متناقلة من أماكن بعيدة. بعيدة

جدا . كان أول ما طفا على السطح مشهد مألوف، وهو صورة بالأبيض والأسود من ألبوم أمي. لا بد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة عندما التقطت تلك الصورة. أقف في قطعة أرض جرداء، ناظرة مباشرة إلى الكاميرا . إنه وقت الشتاء، ولكن ليس ثمة ثلج . كنت أرتمي معطفا رسميا بصدريّة مزدوجة مصنوعة من الصوف الخشن، وبياقة وأطراف مزينة بالمخمل. إحدى اليدين في جيب (كان طرف المعطف مرتفعا بعض الشيء)، والأخرى على الجنب. يرتسم أثر لابتسامة على وجهي. لا يوجد شيء أمامي أو إلى جانبيّ. أنا الشيء الوحيد في الصورة. جسم بشري صغير قذف بي إلى بقعة خالية في مكان ما. وبالرغم من ألفة تلك الصورة، صعقت لأول مرة كم كان واضحا وبشكل مطلق أنني وحيدة.

أخرجتني قشعريرة مفاجئة من غيبوبتي، واندفعت في طريقي نحو الهاتف. لكن ما إن وصلت هناك حتى انهرت مرة أخرى، وتجمدت لبرهة. ثم تمكنت بطريقة ما من رفع سماعة الهاتف وضغطت الأرقام ١١٢، وأعطيت عنواني عبر السماعة. عندما ظهر شرطي عند الباب فيما بعد، ورآني مقيدة اليدين مع الكرسي، ورأى خطوط الدم المتخثرة على معصمي الأيمن، واشتم رائحة البول، قرأت شيئا استطعت أن أحدهه في نظرتي. شيء جاء متزامنا مع شيء آخر في تلك اللحظة، وأخيرا اكتشفت الصلة: لقد كان الشرطي يراقبني بنفس النظرة التي كنت أراقب بها الفتاة في البقعة الجرداء.

لقد كان إيجور محقا. لن أنساه. وهو لن ينساني؛ أنا متيقنة

من ذلك. لأنه كان بإمكانني أن أمتنع عن ذكر اسمه للشرطي، لكنني لم أفعل. والأكثر من ذلك، أنني اتهمته بالاغتصاب، والاقتحام، والتهجم، وعن الاغتصاب، سينال كما أعتقد، عدة سنوات في السجن، وسيحتفظ بسجل إجرامي سيلاحقه مدى الحياة. لو لم أفعل ذلك، لم يكن له أن يتذكرني. فعلتها من أجل ذلك. كنت قد نثرت بذوري. كنت معلمة، ألم أكن كذلك؟

ليس ثمة شيء اسمه الرحمة، ليس ثمة شيء اسمه الشفقة؛ هناك فقط فقدان السيطرة؛ هناك فقط الذكريات التي لا نهاية لها للإهانة والألم. ذلك هو الدرس الذي جلبناه معنا من البلد الذي جئنا منه، وهو درس لن ننساه. الصراخ والصياح بمثابة جرس بافلوف بالنسبة لنا؛ فنحن صُم عن كل شيء آخر. الإمساك برائحة الرعب هو لعب أطفال بالنسبة لنا؛ لا شيء يدغدغ أنوفنا أكثر منه.

السوار الطبيعي من الجروح الصغيرة الثلاثة في معصمي الأيمن، ورائحة البول، كانا القيود غير المرئية التي تربطنا، أنا وتلميذي. رأيت ذاتي المستقبلية تقوم علي بإيماءة مكتسبة حديثاً، نوع من التقصص اللاإرادي الذي لن أتخلص منه لوقت طويل. تكونت من طبع الفم على المعصم، وضغط الشفتين ببطء على الخطوط الرقيقة الثلاثة وتقبيلها، ذلك هو ختم إيجور، علامة إيجور - ثم المرور عليها برأس اللسان للتأكد من أنها ما زالت هناك، وأخيراً تحريك المعصم ببطء ورفعها عالياً نحو الضوء، حتى أن الخطوط الآن رطبة من الرضاب وتشبه عرق اللؤلؤ.





# الجزء الخامس



همتي دمتي قعد على الجدار  
 همتي دمتي سقطت سقطت مهولة  
 كل خيول الملك وفرسانه  
 لم تستطع جمع أشلاء همتي دمتي معا .

لقد داهمتني الكوابيس في بداية الحرب، ثم عادت مرة أخرى عندما غادرت أنا وجوران زغرب. اتسمت بالبنية نفسها، وكانت تدور حول أحد المنازل. كان لذلك المنزل جانبان: واجهة أمامية وجانب آخر. كنت أعرف الواجهة الأمامية، لكنني لم أعرف الجانب الآخر إلا في أحلامي. قفزت الواجهة الجانبية في وجهي مثل لعبة مشدودة بزنبرك في صندوق عند فتحه. في الحلم كنت أصادف بابا ودرجا وممرًا يؤدي إلى جزء مواز من المنزل الذي لم أشك في وجوده قط، أو بطريقة أخرى كنت سأكتشف أن المنزل كان عائماً إلى حد ما، مثل القلاع الموجودة في الهواء وفق الأمثال السائرة. كنت أزحزح بعيداً رفاً عن الجدار لأجد حفرة تهب من خلالها رياح قوية، أو لا أجد جداراً البتة، ثم كنت أنظر إلى الخارج فأرى المنزل متديلاً بسلك نحيل، بال .

كانت المساحات الموازية في أحلامي تدل على تحذيرات وحشية، وتشوهات ملامح الوجه، والمكر. كانت الأحلام تأتي مثل هبات مفاجئة من الريح، يعقبها فترات من الهدوء، ومن ثم

تهب من جديد بقوة متزايدة. ولكنها في النهاية تضعف وتتوقف تماما .

مع مرور الأيام، كانت تلك الأحلام تلف كشلة خيط واحدة، وكنت أضعها جانبا . كلها فيما عدا حلم واحد، الذي جعلت شغلي الشاغل أن أتذكره. ذلك المنزل في الحلم كان أشبه بالتيه. كان ذا مستويات عدة ومصنوعا من عدد من المواد المتنافرة. كان السقف عاليا جدا وبدا أكثر ملائمة لكنيسة. فجأة لاحظت أن السقف كان ينتفخ مكونا شكلا لشيء يشبه الأنبوب، وقبل أن أميزه، انفجر السقف ولم ينزل عبر الأنبوب سوى جدول من الكتب. بدأ القطر بحجم حبة قمح لكنه انتهى بحجم كتلة جليدية، والصفحات تتساقط عبر هواء يعج بغبار الكتب. لم يكن جوران موجودا، لكنني كنت أرى أمي واقفة في الجهة الأخرى من الغرفة، وهي تحملق في السقف مندهشة. جريت إليها وأخذتها من يدها، وجرينا إلى الشارع قبيل انهيار السقف، وكأن المنزل كان من الكرتون.

صرخت أمي: «المفتاح! هل لديك المفتاح؟».

«كلا»، رددت شاعرة بالذنب، علما بأنني كنت مدركة تماما سخافة ذلك القلق: فما الفائدة من وجود مفتاح من دون وجود المنزل؟

قالت يائسة: «إذن، لا يوجد معنا الآن حتى مفتاح».

تكونت شقة جيرت، وأنا من غرفة للمعيشة، وغرفة للنوم، ومطبخ صغير جدا بشرفة، وممر ضيق وحمام صغير. كان يوجد جهاز تلفاز، ومجموعة من أفلام الفيديو على منضدة منخفضة

في غرفة المعيشة، ونبته من شجر المطاط نصف مية بجانب جهاز التلفاز. وكان هناك رف يتكئ على أحد الجدران به بضعة كتب، وأريكة قديمة عليها غطاء متسخ باهت تقابل الجدار الآخر. زين الجدار فوق الأريكة بملصق متاكل للمصور دوسان بيترتشيك وخارطة لبلغراد حين كانت يوغسلافية ذروتها. وجدت قائمة إرشادات لآنا على المنضدة التي تعلوها أشرطة الفيديو: في القائمة أرقام تلفونات شركتي الهاتف والغاز، وموقع محبس الصنبور، وما إلى ذلك. كان السجاد في غرفة المعيشة ملطخا بالبقع الترابية ومنفوش الخيوط، وورق الجدران أسمال بالية، والنوافذ من دون ستائر وغائمة. كانت الستائر المعدنية مكسوة بطبقة سميكة من الغبار.

من دون إعطاء المسألة تفكيراً كثيراً، خرجت واشترت أنواعاً مختلفة من المنظفات، وفرشات الحك، والإسفنج. بدأت بغرفة النوم حيث كل الأشياء التي يمكن أن تعلق فيها قلبتها. نظفت النوافذ والباب. مسحت خزانة الملابس بالكحول للتخلص من الرائحة النتنة. ومسحت الستائر المعدنية بالكحول أيضاً. نظفت كل شيء بالمكنسة الكهربائية بما فيها الجدران. ثم علقت ملابسي في الخزانة، ورتبت الأسرة مستخدمة الشراشف الجديدة التي اشتريتها. أصبحت غرفة النوم قابلة للاستخدام. وهكذا انتهيت من إحدى الغرف.

بعد ذلك جمعت القمامة. وتخلصت من كومة من الصحف، والطعام الذي ترك في الشقة، وبعض الأطباق المكسورة. نزعنت الملصق عن حائط غرفة المعيشة وأفرغت الحمام من كل شيء

يمكن تحريكه. وضعت هذه الأشياء جميعا في أكياس بلاستيكية سوداء وتركتها بجانب الباب الأمامي. سأجرها إلى الأسفل في الصباح. ثم ألقيت نظرة شاملة على الحمام، وملأت خزانة الأدوية بمساحيقى الخاصة، وزينت المغسلة بإناء للصابون من البورسلين كنت قد اشتريته من قبل. بعد أن أصبح الحمام مقبولا إلى حد ما، أخذت دشا، واستلقيت على السرير في غاية التعب، ونمت طوال تلك الليلة.

في اليوم التالي انتقلت إلى تنظيف المطبخ. أمضيت الكثير من الوقت، وبذلت الكثير من الجهد في إزالة البقع عن الخزائن، والثلاجة، والفرن، والبلاط، والنوافذ، والباب. وعلى الرغم من الألم في معصمي، انتقلت إلى غرفة المعيشة حيث نظفت الجدران، والسجادة، والأريكة بالمكنسة الكهربائية، وعملت كل ما أستطيع للتخلص من الرائحة الكريهة المنبعثة من السجادة، والأريكة قبل أن أنقض عليهما بالفرشاة السلكية ووسائل التنظيف. وبما أن ورق الجدران متسخ جدا، خرجت واشترت بعض فرش الصبغ، وعلبة من الدهان وسلمًا. أمضيت اليومين التاليين وأنا أعطي ورق الجدران، الذي كان لحسن الحظ من النوع الذي يمكن الدهان فوقه، بطبقة رقيقة من الطلاء الأبيض. بدا المكان بشكل أفضل الآن، ولكن الجدران التي دهنت للتو لم تظهر سوى شكل الأعمال الخشبية الرمادية. لذا، قمت بصنفرتها ثم طلائها بالطلاء النفطي الأبيض. قد استغرق ذلك يومين أو ثلاثة أيام أخرى.

ثم بدأت عندي حمى التسوق. وجدت شرشفا أنيقا بلونه

الأبيض المائل للزرقة، وبعد أن نشرته على الأريكة، ووضعت مصباحا كنت قد اشتريته من قبل على المنضدة، وملأت المزهريّة بالورود اليانعة، وعلقت ملصقا بإطار قوي للمصور لويس هاین بالأبيض والأسود لمجموعة من العمال وهم يدخنون من فوق عارضة في مبنى «إمبايرستيت» في الولايات المتحدة الأمريكية، أصبحت غرفة المعيشة في وضع يمكن من استخدامها. صحيح أن المكان لم يزل «شقة طلابية» إلى حد كبير، بيد أن ذلك لم يزعجني البتة.

زودت خزائن المطبخ بما تحتاج إليه من الأشياء الضرورية، واشترت إبريقا للشاي وكوبا صينيا أنيقا. لم أغفل عن نبتة المطاط، فأخذتها إلى الشرفة، وأعدت زراعتها في إناء أوسع، وأضفت السماد للتربة، وقلمت الفروع الميتة، وأزلت الغبار عن الأوراق، ثم أعدتها إلى غرفة المعيشة. تفحصت مجموعة أشرطة الفيديو التي تركها جيرت وأنا، وأزلت الغبار عنها، ثم رتبته بشكل أنيق على الرف. ومسحت أغلفة الكتب الموجودة بالكحول، ووضعتها على الرفوف من جديد بجانب الكتب التي كنت قد اشتريتها.

بينما كنت ألقى نظرة شاملة على الشقة لأرى إن كان هناك أي شيء يحتاج إلى تصليح، لاحظت أن ورق الجدران الواقع مباشرة فوق الباب الذي يؤدي إلى غرفة المعيشة قد انتفخ بعض الشيء. أحضرت السلم من المستودع حيث عدا دي الغاز والكهرباء، وصعدت عليه لفحص المكان المنتفخ بإصبعي. انفجر الانتفاخ وكأنه بالون، ناشرا قطع الورق على الأرضية وكاشفا



جدارا أسمنتيا مغطى بالكرتون وصور المجلات، وقد أصبح مصفرا بالكامل. عندما نزع قطعة لألقي نظرة أفضل، ظهرت عدة طبقات من الدهان، وسقطت بقوة على الأرض. وقفت مواجهة مجموعة من صور إباحية مثلية قد يكون رسمها على الأرجح المستأجر الذي سكن الشقة قبل جيرت وأنا.

نزلت عن السلم وجلست على الأريكة، غير قادرة على الحركة، مصغية للصمت. فجأة سمعت صوت فرقعة ونظرت إلى أعلى، حابسة أنفاسي، فرأيت ورق الجدران يفتح على طول الجدران صانعا سلسلة التموجات، وفي آخر الأمر تنضم في طرق. راقبتها تتشقق، وتتقشر، وتتمايل، وتتولى، مثل الزنبركات حتى انفصلت وسقطت محدثة صوتا مكتوما هشا، وجافا. كنت محاطة بجدار من الغبار أقامته ريح غير مرئية. ألقيت نظرة على الباب الأمامي، لكن، كلا، كان المفتاح يقبع في القفل. في أثناء ذلك، ساد الصمت من جديد. نظرت إلى يدي. لقد احمرتا وانتفختا، فالمنظفات فعلت فعلها: فكانت يداي عبارة عن جرح كبير، وقد تقشر الجلد في رقائق دقيقة، كاشفا عن الخطوط الثلاثة بلون الدم.

ظهر لي أنني لم أنظر إلى الخارج عبر النافذة حتى ولو مرة واحدة في الأيام القليلة الماضية. لم أعرف كيف كان الجو، أو كم كانت الساعة. كنت قد فقدت كل الاتجاهات. كنت أجلس هناك هكذا، حاملة تأشيرة غير مرئية لحياة متواضعة، وأنا أنقشر في الداخل.

أدركت أنه كان علي أن أستجمع قواي وأفعل شيئا، أي شيء. كان علي أن أجابه اليأس الذي تمكن مني مؤقتا. وقفت، وأخذت

أول شريط فيديو صادفته، وأدخلته في جهاز الفيديو. ثم عدت إلى الأريكة، ونفضت الشرشف للتخلص من قطع الورق التي سقطت عليه، ثم تمددت على الأريكة.

في وقت ما أثناء الليل، أيقظني طنين جهاز التلفاز. بدا أن الثلج الظاهر على الشاشة قد تسلل إلى داخل الغرفة. فتحت النافذة، فدخل هواء شهر يوليو. كان الميدان مضاء بنور القمر وأضواء النيون لمتجر «بيسس». إلى اليمين بالكاد كنت أرى إحدى زوايا القبة الفيروزية المتواضعة للجامع المحلي. كان في الساحة بعض أشجار الكستناء الصغيرة المتوجة، وبعض المقاعد. كان هناك رجل يجلس على مقعد تحت إحدى الأشجار، وكان يرتدي عمامة. بدا أنه نائم.

كانت شقة جيرت، وأنا تقع في واحد من تلك المجمعات السكنية الرمادية المزدهمة، الرخيصة سابقة التجهيز التي كانت تحيط بمركز المدينة مثل مفاتيح في حلقة لأمر إحدى القلاع. كان البعض يطلق على هذه المجمعات اسم «الجيتو». أما هذا فأطلق عليه «الدار البيضاء الصغيرة»، لكنني لم أعرف هذه التسمية إلا فيما بعد.

نحن همجيون. يحمل أفراد قبيلتنا علامة كولومبوس غير المرئية على جباههم. نسافر غربا وينتهي بنا المطاف شرقا، حقا، إننا كلما مضينا إلى أقصى الغرب فإننا نبلغ أقصى الشرق. إن قبيلتنا ملعونة.

نحن نستقر في ضواحي المدن. نختارها لكي يكون في إمكاننا جمع خيمنا عندما يأتي الوقت لنرحل من جديد، نتحرك غربا لنبلغ الشرق. نعيش في مجتمعات سكنية سابقة التجهيز، رمادية، مزدحمة، رخيصة، تحيط بمركز المدينة مثل المفاتيح في حلقة لآمر إحدى القلاع، ويسمى البعض بالجيتو.

جميع تلك المجتمعات السكنية متشابهة. يمكن تمييزنا من خلال أطباق «الستلايت» التي تبرز من شرفاتها، تلك الأجهزة التي تمكننا من الإحساس بنبض الناس الذين تركناهم خلفنا. نحن، الفاشلون، ما زلنا نستنشق هواء الوطن الذي تركناه «نحن» وراءنا. «هم» لا يملكون أطباق «الستلايت»، «هم» لديهم كلاب. «نحن» نخاف من الكلاب. في الشفق تخرج كلابهم إلى الشرفات وتتبع برسائلها بعضها لبعض. يترد النباح جيئة وذهابا من المباني الأسمنتية مثل ارتداد كرات تنس الطاولة في أثناء اللعب. يثير الصدى الكلاب إلى حد الجنون، مما يجعلها تنبح بصوت أعلى. نحن لدينا أطفال. نحن نتكاثر بصورة خطيرة. يقال إن حيوانات الكنغر تتكاثر في مراحل متتالية، فمع الكنغر اليافع، ثمة آخر في الجيب، وثالث في الرحم أو شك على الخروج، ورابع

على شكل بيضة مخصبة حديثة تنتظر أخذ مكانها. ونساؤنا مثل حيوانات الكنغر تلد في مراحل متتابعة، أشبه ما تكون بالمفاتيح التي في حلقة زوجة أمر لإحدى القلاع. لأطفالنا أعناق مستقيمة، وبشرة سمراء، وشعر داكن، وعيون سوداء، أطفالنا مستسخون، فالذكور رجال مقرمون، وهم نسخة طبق الأصل عن آبائهم، والإناث نساء مقرمات، وهن نسخة طبق الأصل عن أمهاتهن.

هنا نحن نحضر إلى منازلنا الأغذية الملفوفة بأناقة من محلات «بيسس»، و«آلدي» و«ليدل»، و«ديرك فان دي بروك»، حيث نشترىها بأسعار الجملة. أسواق سمكنا تفوح بروائح السمك الكريهة. محال الجزارة تفوح بروائح الدم. متاجرنا قذرة: نحن نشترى اللحوم الموضوعة في براميل بلاستيكية ضخمة مملوءة بالماء المالح. نحن نتفحص بأصابعنا كل شيء، ننتقيه، ونجسه، ونقلبه، ونصغي إليه، ونجره من كشك إلى آخر. إن السوق الشرقي يشكل جوهر وجودنا.

مجمعاتنا أشبه ما تكون بالواحات: فهي تلبى كل ما نحتاج إليه. تتوافر فيها مدارس الروضة، والمدارس الابتدائية، ومدارس تعليم القيادة، ويوجد فيها مكاتب بريد ومحطات وقود، وشركات هواتف توفر مكالمات إلى الوطن بأسعار رخيصة، وكذلك فيها محال لكي الملابس، وأماكن عامة لغسيل الملابس وصالونات للحلاقة، حيث يقص مواطنونا شعر مواطنينا، وفيها أيضا مقاه، حيث يحصل الشباب على الحشيش، والمراكز الشبابية الأخرى. الفطائر تركية، وفيها كذلك مكان للعبادة، وحانئان أو ثلاث

للرجال. نحن لدينا حاناتنا، ولديهم هم حاناتهم. فأماكن الوجود محددة بدقة. لا يدخل أماكننا أي من السياح، إلا إذا ضلوا الطريق. أما أفراد الطبقة الراقية، «سكان القناة»، فيقولون إنهم يحتاجون إلى تأشيرة لولوج الأحياء الفقيرة. وماذا سيفعلون هنا على أي حال؟ لذا، هم يبقون في أماكن وجودهم في المدينة، ونحن نبقى في أماكننا. الكل يشعر بأمان أكثر بهذه الطريقة، وبمزيد من الارتياح.

نحن همجيون. نحن الوجه الآخر للمجتمع المثالي، نحن عفريت العلبة عند طرف إبهامه، ونصف عالمه، وجانبه السفلي القبيح - عالمه الموازي. نحن نخوض في قاذوراته، كلابا وآدميين، نحن نواجه جردانه في الصباح الباكر، وعندما نعود متأخرين ليلا. تأتي الرياح لنا لتتشر القمامة في الهواء - الأكياس البلاستيكية التي خلفناها من ورائنا، وأكياس الحلوى «مارس»، و«كيت - كات»، و«سنيكرز»، التي يرميها أطفالنا. في كل مساء تأتي طيور النورس لتتغذى على بقايا الطعام الرديء المتغفن، والغربان لتتقر بقايا الفطائر التركية.

شبابنا جامحون، عابسون يملؤهم الغضب. في الليل يتجمعون في الساحات الأسمنتية المهجورة مثل مجموعات من الكلاب الضالة، وينفسون عن مشكلاتهم حتى الساعات الأولى من الصباح. يطارد بعضهم البعض في الملاعب المهجورة، ويتأرجحون على الأراجيح، ويقفزون ويصرخون، وينتزعون السماعات من أكشاك الهواتف العامة، ويرمون شبابيك السيارات بالحجارة، ويسرقون كل ما تقع عليه أيديهم، ويلعبون

كرة القدم بعلب البيرة الفارغة التي تطلق أصواتا تشبه أصوات الرشاشات الأوتوماتيكية، ويقودون الدراجات النارية مثل المجانين عبر المجمعات السكنية. الليل هو وقتهم المفضل. نحن نختبئ ونرتجف كالفتران: فمواؤهم ينشف الدم في عروقنا. تفصل مساحات واسعة بين نقاط الشرطة في منطقتنا، مما يفسح المجال للصراخات أن تأكل في أجسادنا كالحمض. شبابنا سريعون في استخدام السكاكين: فسكاكينهم امتداد لأياديهم. شبابنا أبطال في البصق: فبصاقهم يحدد مناطقهم كما يحدد بول الكلاب مناطقها. ودائما ما يتجولون معا، في زمرة، مثل أوغاد القرية.

شاباتنا يتسمن بالهدوء. هن ترين أن مجرد وجودهن سبب للإحراج لهن، ويرى ذلك في وجوههن. يتسللن عبر المدينة كأستار، يغطين شعورهن بالأوشحة، وعيونهن تحمق في الأرض. إن صادف ورأيت إحداهن في الترام، فستكون منحنية فوق كتاب الصلوات، تقضم المقاطع المقدسة كأنها بذور نبات عباد الشمس. سرعان ما تترجل، من دون أن تنظر يميناً ولا يساراً، وتعدو، وهي لم تزل تلوك النص، وشفتيها في حركة مستمرة، كشفتي جمل. يتجمع رجالنا ذوو الحواجب السوداء الكثة حول القبة الفيروزيّة الأسمنتية للمسجد الذي يشبه دار حضانة أكثر منه بمكان للعبادة. في الصيف، يقرفصون متكئين على حائط جامعهم، يحكون ظهورهم بجدرانهم ويبحثون عن ملجأ من الحرارة (على الرغم من عدم وجود شمس). يطوفون هائمين، وهم يشمون بعضهم البعض، ويدورون حول المسجد، وأيديهم مشبكة

خلف ظهورهم، ثم يتوقفون، ويحولون ثقل أجسامهم من قدم إلى أخرى، ويربت بعضهم على ظهور البعض، ويعانق بعضهم بعضا البعض يتقابلون وعندما يفترقون، وفي بعض المناسبات عندما يكون المسجد ممتلئاً، يفيضون خارجين إلى الأسفلت، ويسجدون في مواجهة الشرق. يمكث رجالنا في المسجد من الفجر حتى حلول الظلام.

عندما تهبط الشمس إلى انخفاض كبير وكأنها تلامس رؤوسنا، وعندما يهوي مقياس الضغط ويصبح الهواء رطباً ونصبح نتنفس عبر خياشيمنا، عندئذ تثقل أجسامنا وتسقط إلى القاع حيث لا توجد مناطق محددة، وحيث نزحف على أربع بغير هدى، مرهقين مثل الأسماك بعد وضعها للبيض. وفي ذلك المكان فقط، في القاع الصخري، تمس حراشفنا بعضها البعض، وتتقابل زعانفنا عند مرورنا، وتضغط خياشيمنا بعضها على بعض.

نحن همجيون. ليس لدينا طريقة للكتابة، نحن نترك توقيعاتنا في الهواء: فنحن نصدر أصواتاً، ونبلع بإشارات نداءاتنا، وصيحاتنا، وصرخاتنا، وبصاقتنا. وبهذه الطريقة نحدد منطقتنا. تطبل أصابعنا على كل شيء تلمسه: سلال القمامة، وزجاج النوافذ، والأنابيب. نحن نطبل، إذن، نحن موجودون. نحن نحدث جلبة، والجلبة مؤلمة مثل وجع الأسنان. نحن نجعجع في الأعراس، ونندب في الجنائز، حيث تضرب أصوات نساءنا المتشنجة الواجهاة الأسمنتية كالزوابع. نكسر الكؤوس، ونذهب لممارسة الجنس: فالمفرقات النارية هي ألعابنا المفضلة. الصوت

هو أبجديتنا، الجلبة التي نصدرها هي الدليل الوحيد على وجودنا، والأثر الوحيد الذي نتركه وراءنا. نحن نشبه الكلاب: نحن ننبج. ننبج باتجاه السماء الرمادية التي تهبط ثقيلة على رؤوسنا.

نحن النائمون. نحن همجيون. يحمل أفراد قبيلتنا علامة كولومبوس غير المرئية على جباههم. نساfer غربا وينتهي بنا المطاف شرقا، حقا، إننا كلما مضينا إلى أقصى الغرب فإننا نبلغ أقصى الشرق. إن قبيلتنا ملعونة. العودة إلى الأرض التي أتينا منها تعني الموت، والبقاء في الأرض التي أتينا إليها تعني الهزيمة. وهكذا يستمر التكرار الأبدي في أحلامنا لمسلسل الرحيل، فلحظة الرحيل هي لحظة الانتصار الوحيدة في حياتنا. أحيانا، ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل من المسجد يسيطر علينا النعاس ونلوذ إلى مقعد تحت شجرة تجهد للنمو. الهواء رطب ودافئ، والقمر بدر، وسماء الليل زرقاء داكنة. هكذا ننام في الواحة الأسمنتية، تحت الشجرة الأسمنتية، ونعود إلى مسلسل الرحيل الذي يلازمنا. نأخذ خيمنا، ونربط حقائبنا على ظهورنا، وتأتي ريح عاتية وتشر رمال الصحراء، وتبدأ صورنا بالتلاشي، ثم نتوارى تماما في ستارة الرمال السمكية.



وقفت، ثم تناولت أول شريط فيديو وقعت عليه يدي، وأدخلته في جهاز الفيديو. ثم عدت إلى الأريكة، ونفضت الشرشف للتخلص من قطع الورق التي سقطت عليه، ثم تمددت على الأريكة.

كان الفيلم لفيليب كاوفمان عن رواية «خفة الوجود التي لا تحتمل» لكونديرا. سبق أن قرأت تلك الرواية مرتين. كان لدي شكوك حول الإنتاج السينمائي للأعمال الأدبية، فحتى أفضل تلك الأفلام بدت غير جديرة بنماذجها. لقد وضعتي الصور السينمائية الأولى على أهبة الاستعداد: فكل من دانييل دي - لويس وجولييت بينوش كانا يبدوان أكثر تشيكية من العديد من التشيكيين، لكن بينوش كانت تحاول التحدث بالإنجليزية بلكنة تشيكية، وكان الشيء الوحيد الذي لفظته بشكل صحيح هو اسم أنا كارنينا. كذلك نفرت من طريقة الفيلم في إضفاء الشاعرية عند عرض الحياة اليومية في ظل الحكم الشيوعي: كاللقطات الحقيقية لأجساد قبيحة عارية يلفها البخار، أو لرجال مسنين يلعبون الشطرنج في حمام للسباحة، والمشاهد التشيكية لمنتجعات المياه المعدنية المتهدمة (التي كان من الممكن أن تكون في كرواتيا)، وشوارع مدينة براغ (التي تذكر بمدينة زغرب). ربما كان سخطي ناتجا عن ردة الفعل اللاإرادية (ماذا يعرفون عنا؟) التي كنت قد سمعتها كثيرا، وذلك كان مجرد تكبر من المقيمين في المستعمرة، وبالتالي لا تعد أكثر من تعزية لغطرسة

من أنشأوا المستعمرة. وبناء على نظام الأشياء، فإن كاوفمان البريء أصبح مستعمر المنطقة التي لا يوجد، في تلك اللحظة، من يملك حق العيش فيها غيري.

لكن عندما ظهر المشهد الوثائقي بالأبيض والأسود للاحتلال الروسي لتشييكوسلوفاكيا على الشاشة، أصبت بالذهول عندما رأيت الدبابات الروسية في براغ، ومشاهد الاحتجاج والعنف في الشوارع، التي توجت بصورة مقرية لجندي روسي يصوب مسدسه على المشاهدين، بمن فيهم بينوش. ذلك المسدس كان مصوبا نحوي. ولم تعد بينوش، التي أدخلت في ذلك المشهد بمهارة، وكانت تلتقط الصور للدبابات بسعار، لم تعد تثير أعصابي. لم يصبح الفيلم «موثوقا فيه» فقط، لكنه أيضا أصبح قضية شخصية «قصتي الشخصية»، أو هكذا أحسست، على الأقل. وشعرت بالدموع تسيل على خدي.

تساءلت: ما الذي كان يجري؟ لقد كنت في السادسة عندما غزا الروس تشييكوسلوفاكيا، لذا كان من غير الممكن أن أتمكن من تمثيل القصة بجلاء وسهولة. بدأت القيام بجولة من الحسابات المحمومة. وإذا كانت، كما تقول مقدمة الفيلم، رواية كونديرا نشرت في العام ١٩٨٤، وصور فيلم كاوفمان في العام ١٩٨٧، فإن الفيلم ظهر قبل عامين من سقوط جدار برلين، وقبل أربعة أعوام من اندلاع الحرب في يوغسلافيا، وهذا يعني أنه كان من الممكن أن أشاهده في زغرب (لكن ذلك لم يحدث). بدأ رأسي يلف من تلك الحسابات الفارغة، وقبل أن أدرك ذلك، كنت قد فقدت إحساسي تماما بالزمن. كنت مثل أولئك الجنود اليابانيين

الذين تركوا في الأدغال الفلسطينية بعد الحرب، ثم عندما وجدوهم فيما بعد، كانوا يعتقدون أن الحرب لم تزل مستمرة. لقد خلطت كل الأشياء معا - الأطر الزمنية، والأطر السينمائية، ولم أعد قادرة على ترتيبها. فما حدث في الماضي البعيد بدا حديثا الآن، والأحداث القريبة جدا انتقلت إلى الماضي البعيد. بدا أن الإطار الزمني الوحيد عندي هو ذلك الشريط القديم. جعلت ألفت من حولي وكأني بحار تحطمت سفينته، وقذفته المياه إلى الشاطئ. كنت في شقة ليست شقتي، وفي مدينة ليست مدينتي، وفي بلد ليست بلدي، محاطة بجدران متصدعة ورائحة الطحالب. كنت أمسك بجهاز التحكم عن بعد الذي لم يزل يعمل، ولكن بطاريات جهاز تحكمي الداخلي كانت قد نفدت، ولا سبيل إلى تشغيلي من جديد. تساءلت متى وجدت الأشياء التي حدثت وقتنا لتحدث، وما الذي جعلني أنظر إلى فيلم كاوفمان وكأنه الخبر الرئيس في نشرات أخبار الـ «سي. إن. إن» في ذلك اليوم، وإلى اتفاق «ديتون» الهش الذي وقع قبل عامين فقط وكأنه تاريخ سحيق أستطيع تجاهله بكل فخر.

كانت الضربة التي تلقيتها للتو أكثر تعقيدا مما بدت في البداية. فعبارات مثل «متلازمة الطرف المستأصل»، أو «الحنين»، كانت عبارات مجردة تشير إلى الصفة العاطفية المعقدة التي تأتي من الضياع، واستحالة العودة. وهي توحى بأنه لا فرق عمليا بين أن نتصالح مع الضياع، أو أن نشعر بالراحة لتمكننا من نسيان الماضي، أو من رغبتنا بالعودة إليه. ذلك لأن الضربة لا تفقد قوتها بهذه الطريقة. فالحنين، إن كانت تلك الكلمة

المناسبة لذلك، هو مهاجم، متوحش غادر يتبع أسلوب الكمائن، ويهاجم في الوقت الذي لا تتوقعه، وينفذ مباشرة إلى الضفيرة الشمسية. يرتدي الحنين دائما قناعا، ومن دواعي السخرية، أننا نقع ضحية له بمحض المصادفة. يظهر الحنين لنا بأشكال مختلفة - عادة ما يكون شكلا سيئا - بعد رحلة معقدة، ليست مختلفة عن لعبة الأطفال المسماة «الهاتف» تسري العبارة المهموسة في الأذن المجاورة له، فتمر عبر سلسلة من الأذان إلى أن تبرز من فم آخر اللاعبين مثل أرنب يبرز من قبعة ساحر. تلك الصفحة التي تلقيتها أخيرا في الضفيرة الشمسية كانت قد مرت برحلة طويلة ومعقدة، مارة عبر عدد من الوسطاء والوسائط، حتى، بعد التوسط فيها بما لا يحصى من المرات، ظهرت على شكل جوليت بينوش. كانت بينوش آخر من في صف أجهزة التحول، الشخص الذي ترجم ألي الشخصي إلى لغتي. في اللحظة المناسبة. لأنه في وقت آخر مختلف قد تصبح ترجمتها كلاما غير مفهوم. في تلك اللحظة فقط وليس غيرها، كانت مشاهد كاوفمان، التي تشبه كثيرا إعلان كوكاكولا مثاليا، قادرة على أن تطلق هجوما مفاجئا على اللاوعي خاصتي، وتصدعت تماما.

على الرغم من أنني شعرت بأن القصة الوحيدة التي ملكت حق تأليفها تماما كانت «القصة اليوغسلافية»، فإنه في تلك اللحظة كانت كل القصص ملكي. بكيت من أعماق أعماقي وأنا أستعرض الشبكة الخيالية المتشابكة التي حملت اعتباريا اسم أوروبا الشرقية، والوسطى، وشرق - وسط أوروبا وجنوب -

شرق أوروبا - أوروبا الأخرى. لم أستطع التعامل معها صراحة: فهناك ملايين الروس الذين اختفوا في معتقلات ستالين، والملايين الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية، وأيضا أولئك الذين احتلوا التشيك، والتشيك الذين احتلهم الروس، والمجريون - الذين احتلهم الروس أيضا - والبلغار الذين زودوا الروس بالطعام، والبولنديون، والرومانيون، واليوغوسلاف السابقون، الذين احتلوا أنفسهم بشكل أساسي. كنت أضرب رأسي بحائط الخسائر البشرية. ومثل نادب بلقاني رحت أنوح بكربي على الفرد وعلى الجميع، وكربي وحده كان أبكم. حزنت على زغرب، وسراييفو، وبلغراد، وبودابست، وصوفيا، وبوخارست، وواجهات مدينة سكوبي التي تهدمت. كنت متأثرة بالذوق السيئ المحبب لغلاف الشوكولاتة في شبابي (فضلا عن طعم تلك الشوكولا الرديء للغاية)، وتحسرت على مقطع من لحن رن في أذني مصادفة، أو وجه برز عشوائيا من الظلمة، أو صوت، أو نبذة لصوت، أو بيت من الشعر، أو شعار، أو رائحة، أو مشهد ما. جلست هناك، محمقة في مشهد الخسائر البشرية، وقلبي يبيكي. بل إنني ذرفت دمعة مع خدع كاوفمان السينمائية، التي استطاعت أن تثير مشاعري، ودمعة أخرى على شريطي السينمائي «لبنوش».

ثم فكرت بطلبتي. فمن المؤكد أن مشهدا كهذا سيؤثر فيهم. كانت المشكلة، أن تحولهم/انسلاخهم أضال فرصة في النجاح فقط: فقد فاتهم الوقت المحدد بثانية، أو بجزء من الثانية. كلا، سينتهي تحولهم بالفشل. أحسست بذلك في خضوعهم

الذاتي، وفي مسحة الحزن في أعينهم، وفي الصفة غير المرئية على وجوههم، وفي كتلة الاستياء الغامضة في حناجرهم. في أي دقيقة الآن، في أي ثانية، ستنهض قبيلة جديدة مختلفة تماما من نبت جراح ما بعد الشيوعية تحمل رسائل دكتوراه بعناوين معبرة مثل: «فهم الماضي كوسيلة للنظر إلى المستقبل». سيكونون أطفال توماش، وتيريزا الذين عادوا إلى تشيكوسلوفاكيا فقط لكي يموتوا هناك، لأن العودة تعني الموت، والبقاء يعني الهزيمة. سيكونون أيتام توماش وتيريزا. سيشرعون في العودة مثل سمك السلمون، لكن العصور الأخرى تعني جداول أخرى، ورفاق مسافرين آخرين من الوطن، الأناس الذين «يتطلعون إلى المستقبل» حقا، والذين لن يتمكنوا من «فهم الماضي»، أو على الأقل، ليس بالطريقة نفسها. ولاعبوا هذه الفرق الجديدة من «المياه الرمادية الراكدة» في منغوليا، ورومانيا وسلوفاكيا، والمجر، وكرواتيا، وصربيا، وألبانيا، وبلغاريا، وبيلاروسيا، ومولدوفيا ولاتفيا، ولتوانيا، جيل الطفرة الانتقالية هذا سيجتاح الجامعات الأوروبية والأمريكية، وسيتعلم أخيرا ما يلزمه تعلمه. سوف يشكلون فريق شاب رنان من المتخصصين والمنظمين، ومضاربي الأسهم، وقبل كل شيء، المديرون، خبراء إدارة الأعمال، والإدارة السياسية، والإدارة البيئية، والإدارة الثقافية، وإدارة الكوارث - إدارة الحياة برمتها. سيكون هؤلاء نوعا يتكاثر بسرعة وحشية، وكأن التكاثر هو هدفهم الوحيد في الحياة. هم من النوع الذي يقف على قدميه دائما، ولا يشعرون بوخز الضمير من العيش على مصائب الناس الذين قدموا لهم المساعدة، فحتى الكوارث تحتاج

إلى إدارة: فعدم القدرة على إدارة الكوارث هو الفشل بعينه. هم الناس الذين سيقومون برعاية المعاقين في بلغاريا، والبوسنة، وبيلاروسيا، ومولدافيا، ورومانيا، ورعاية الأيتام في البوسنة وجورجيا، وطاجاكستان، وكازاخستان، والشيشان، وكوسوفو، وأذربيجان، وأرمينيا، ورعاية الأقليات في أوروبا وروما في أي مكان، وهم الخبراء لضحايا الجنس، وتجارة العبيد من البيض، والسود، والصفر، وهم رعاة اللاجئين من المهاجرين، والمهجرين، ورعاة المتشردين. إنهم الطفرة الذين ينتشرون بفاعلية تشبه فاعلية الفيروسات في المختبر، ينشرون أشراكهم، وشبكاتهم على الإنترنت، ومظلاتهم، ومظلة منظماتهم، ومراكزهم، وأدوات الربط. سوف يصبحون رؤساء أقسام السمع - مرئيات، والاتصالات، وهم أناس الشبكة العنكبوتية. سوف يكونون مصممين لمهنتهم، وحيوات الآخرين واثقين بأنفسهم. سيكونون مفكرين بعمق، وقراء نهمين، ومصممين بارعين. سيملكون هويات متعددة: فهم مواطنون عالميون، متعددو الثقافات، قوميون، وعرقيون، وشتاتيون، الكل مجتمعا. سيرتدون قبعات مختلفة، ويكونون مرنين إلى أقصى حد، دائما مستعدون لتعريف وإعادة تعريف أنفسهم، وأن يعكسوا صورة أنفسهم أو ينحرفوا عنها، وابتكار وإعادة ابتكار أنفسهم، وتركيب وتفكيك أنفسهم. سيكونون أبطال الديمقراطية في هذه الفترات الانتقالية، وبما أن كل شيء كان ولا يزال دائما في حالة من التغيير، فإنهم سيمضغون كلمتي «الحركة»، و«المرونة» مثل العلكة في أفواههم. سيكونون تقديميين، وصغار السن بشكل صارخ، فهم مفوضو التكامل

والتوسع الأوروبي أصحاب الرواتب العالية، ورواد النظام العالمي الجديد، ومخترعو «ما بعد الوحدات السياسية»، ما بعد القومية، وتجمعات ما بعد القومية الجديدة، ومناصرو «العولمة» كنقيض للمحلية، والعكس بالعكس، ومدافعون: مدافعون متحمسون للدفاع عن أي شيء يحتاج إلى الدفاع عنه. وبالرغم من ولادتهم في مناطق أوكرائية نائية، إلا أنهم يدرسون تاريخ العصور الوسطى في «كييف»، والمصطلحات الإنجليزية التجارية في «برمنغهام»، ويكتبون أطروحاتهم العلمية حول علاقة تاريخ العصور الوسطى بالمصطلح التجاري. سيتنادون من مدينة «فيلينوس» في «ليتوانيا» حتى مدينة «وارويك» في إنجلترا، ليدرسوا الاقتصاد الخاص والعام، وليتخصصوا في أساليب الحكم الرشيد والسلام القابل للديمومة في المجتمعات التي مزقتها الحروب. سيأتون من مدن «فورونتش» و«كاوناس» و«تيمشوارا» و«بيكس»، ليعملوا لدى المنظمات غير الحكومية، والاتحاد الأوروبي، ووكالة الأمم المتحدة للاجئين. سيأتون من «يولان باتور» عاصمة منغوليا ومعهم شهادات الماجستير في الاقتصاد لدراسة تطبيق أدوات السياسة الاقتصادية. سيأتون من يريفان، من ألما أتا، من فيليكو تورنوفو، من طشقند وفارنا، ومنسيك ليصبحوا القادة ونخبة المستقبل في أوروبا الموحدة. سيأتون من «إياش» في رومانيا، و«روس» في بلغاريا، و«تيتوفو» في مقدونيا، وفي جيوبهم شهادات الدكتوراه في اللاهوت التقليدي الرعوي، وسيمكثون بضع سنوات في «فرايبورغ» لدراسة العلاقات الدولية، وينخرطون في الدراسات الإستراتيجية في سالونيك، وبوستون، وبراغ،



ويعقدون سلسلة من الجلسات التعريفية بأجور سخية في معهد روماني، أو بلغاري، أو لتواني، حول موضوع التكامل الأوروبي - الأطلسي وسياسة الدفاع، متباهين بوفرة علمهم الفاسد. سيتمتعون بموهبة لغوية عالية، إذ إنهم يتحدثون لغات متعددة، ويصنعون لكنة أوروبية خاصة بهم، متبليها بمفردات شخصية. وسيعطون كلمة «التوسع» التوكيد اللازم بكتابتها بالحرف الكبير، لأنها بالنسبة إليهم تنبئ بعهد جديد، وإنسانية جديدة، ونهضة، وتطور، فكلمة توسع تلفها جميعا في واحد. وستضم عباراتهم الطنانة كلمات الإدارة، والتفاوض، والتقنية، والدخل، والربح، والاستثمار، والتكاليف، والمعنى المستتر، وما إلى ذلك. وإذ هم يسارعون في أخذ مناصبهم وعيونهم أبدا على الفرص المهمة، وإذ هم يمتازون بمرونة عالية كالقطة بسبع أرواح كما يقال، فإنهم سيكونون مجدين في العمل، ومتقنين لمهارة التواصل وأوفياء، وحصيفين، ومتسامحين، وودودين، وماهرين بالتعامل مع المواقف الصعبة. سيكون لديهم اهتمام خاص بالمزايا الدبلوماسية. سيأتون من مدينة «سمارا» الروسية بعد مهماتهم القصيرة في شركة كوكاكولا - سمارا، وشركة سمارا لايت وباور لينضموا إلى أكاديمية «فلتشير» في القانون، والدبلوماسية، وأكاديمية البحر المتوسط في الدراسات الدبلوماسية. وسيبهرهم طلبتهم بعبارات مثل «التحدي هو دافعي، والكمال هو هدفي النهائي»، والرتانة بمثل «الأنا المعاصرة»، و«الولادة غير الشرعية لعصرنا»، و«مرحلة ما بعد الاستعمار»، و«السوقنة»، و«تكتيكات الخلق، وحساسية التدريب والاتصالات المباشرة».

لكن سينسون في طريقهم أن المرونة، والحركة، والسيولة، التي قذفت بهم إلى السطح، ستترك وراءها حشداً من العبيد في القاع يعوزه الاسم. فعبّر كل تلك المياه الرمادية الراكدة، سيجهد الناس في الحصول على دخول حقيرة من خلال صناعة البضائع التي تطلبها كبار الشخصيات في أوروبا الغربية. وسيقومون بالبحث عن الطعام في سلال القمامة، ويتعاملون مع الشواذ، ويخلفون أطفالاً مشردين، يخلفون بدورهم مزيداً من الأطفال المشردين. وسيبيعون حيواناتهم المنوية، وكلاهم، وأي عضو يأتيهم بالمال من السوق السوداء العالمية. وسيؤجرون الأعضاء التناسلية الفاعلة من أوروبا الشرقية، للناس الذين يعانون من الضعف في أوروبا الموسعة. وربما يساعدون إخوانهم من الزبائن المثليين الكروات، على سبيل المثال، للسفر إلى بلغاريا حيث يتوافر اللحم البشري بشكل أرخص. وسيقطع بعضهم كل الطريق ليصلوا إلى شواطئ أوروبا الغربية حيث سيجمع سعيدو الحظ زنابق الهليون في ألمانيا، وزهور التيوليب في هولندا، بينما سينظف الأقل حظاً الحمامات. يبدو أن طلبتي قد فاتهم القارب، كما حدث معي أنا في هذا الشأن، ولكن بفارق ثانية واحدة فقط. لقد وقفنا هناك بأفواه مفتوحة متجاوزين الوقت بثانية، وفقدنا الفرصة في دخول العهد الجديد. كل ما نستطيع فعله الآن هو محاولة الحفاظ على الوضع الذي نحن فيه. لقد شقت الحشرة الخاسرة طريقها إلى قلوبنا، وأضعفت العضلات الموجودة فيه.

كنت أجلس في الغرفة محاطة بالجدران المتقشرة ورائحة الغبار القديم. كان ذلك يناسبني تماماً: إذ كان يعود لشخص

آخر ويتماشى مع تأشيرة دخول الحياة الوضيعة التي حصلت عليها حديثا، ومع بعض قطع المتاع التي كان من الممكن أن أتركها ضحية للعفن في خزانة عامة لحفظ الأمتعة. لو كنت فعلت ذلك، وقامت السلطات بإرجاع المتاع لي، لكان علي أن أخبرهم عن محتوياته، التي لم يكن بالإمكان تفسيرها. إذن، كنت أجلس في المكان محاطة بالجدران المتقشرة، وكنت أملك مهنة، لم يكن بالإمكان تفسيرها أيضا، وبلدا تحطم، ولغة قومية أصبحت ثلاث لغات، أشبه ما تكون بتنين له لسان متشعب. جلست في المكان وقد تولد لدي شعور بالذنب لا أستطع أن أضع يدي على مصدره، وشعور بالألم تعذر تحديد مصدره أيضا.

ضغطت على «زر التوقيف» و«زر الإخراج» في جهاز التحكم من بعد، ثم أخرجت الشريط من جهاز الفيديو وأعدته بسلسلة إلى مكانه على الرف. رأيت أن أحسن خيار أمامي هو المضي في تفحص المكان، وتوزيع ما ينبغي أن أقوم به يوما بيوم، والانتهاء من عمله. فكرت أن أبدأ غدا بالحصول على صحيفة لمعرفة التاريخ (فأنا لم أكن متأكدة من المدة التي كنت قد قضيتها في الزنزانة التي حبست نفسي فيها)، وتحديد أقرب مكان عام لغسل الملابس. ثم كان علي أن أتخلص مما تبقى من الفوضى في المكان، وأشتري ورق جدران جديدا للأماكن التي كانت قد انتفخت وسقطت. لكن كان علي أولا أن أزيل البقع القذرة من على الجدران. وفي هذه المرة سأنظف الجدران بالصنفرة، وأملأ الشقوق بالمعجون قبل إلصاق الورق. بل قد أقوم بدهانه - باللون الأبيض، طبعا.

ذهبت إلى النافذة وفتحتها. كانت الساحة الأسمنتية مضاءة بالنور الخافت لمصابيح الشارع والحروف المشعة في اسم متجر «بيسيس» في الجهة الأخرى. كان الهواء ينفث رطوبة حارة وثقيلة شبه استوائية. في أقصى اليمين كنت أرى جزءا من القبة الفيروزية في أعلى المسجد الأسمنتي الصغير. كان لأكاليل أشجار الكستناء لمعان مكبوت خاص بها، وتلألأت أطباق الستلايت المعدنية على الشرفات القريبة بلونها الأبيض عبر الظلمة. كان المكان هادئا بشكل غير عادي. أشعرتني المنظر بالراحة. خطر ببالي: ربما كنت قد وصلت إلى الوطن بعد كل هذا.

ثم خارجا من الظلمة، داخلا شبه الظلمة الأسمنتية ظهرت هيئة رجل. شق طريقه ببطء وصعوبة، كأنه كان يخوض خلال المحيط. فجأة نفذ شيئا بإصبعه على الأرض بدا كعقب سيجارة، وكان هناك ارتداد سريع حاد. لقد كانت لعبة نارية. وبما أنه لم يدرك أن شخصا ما كان يراقبه، فإن ذلك العابر الغريب ترك علامته على تلك الليلة، باعثا رسالة بلا محتوى، قبل أن يختفي في الظلمة. بينما كان يتوارى، بدا أنه يمشي بزاوية خفيفة، مثل كلب.

سوى الإعصار المنزل بالأرض، برقة عالية  
 - غير معهودة في الأعاصير - وسط ريف في  
 غاية الجمال. كانت المروج الخضراء الجميلة  
 في كل مكان، مع الأشجار المهيبة التي تحمل  
 الفاكهة الوافرة، زكية الرائحة. وصفوف من الورد  
 البهي عند كل جانب، والطيور بألوان ريشها النادر  
 البراق

كانت تغرد وترفرف داخل الأشجار  
 وفي الدغل. وفي مكان ليس ببعيد كان  
 جدول، يتدفق ويتألق بين المروج الخضراء،  
 ويهمس بصوت ممتن لفتاة صغيرة عاشت  
 لزمن طويل جدا في البراري الجافة، الكئيبة  
 من ساحرة أوز الرائعة للكاتب ل. باوم

غادرت الشقة متجهة نحو محطة المترو. كنت قد وصلت  
 تقريبا عندما أحسست بلكمة على ظهري كانت من القوة بحيث  
 أفقدتني القدرة على التنفس. بعد ثانية أو ثانيتين شعرت بأحد  
 يسحب بإصرار حقيبتني التي كانت تتدلى من فوق كتفي. منعت  
 شفرة كتفي حزام الحقيبة من الانزلاق، واستدرت ساحبة  
 الحقيبة نحوي، لأرى ثلاثة صبية صغار يحملون حقائب مدرسية  
 على ظهورهم. كانوا في طريق عودتهم للمنزل من المدرسة.

من المؤكد أنهم لم يتجاوزوا العاشرة من العمر. رأيت أحدهم يمسك بمدية جيب لعبة في يده. خفض ناظريه وأسقطها. كانت نظرات الصبية الثلاثة عابسة متجهمة كنظرات الرجال الكبار. لا أستطيع قياس المدة التي وقفنا فيها جميعا دون حراك في المكان. هي ثانيتان أو ثلاث على الأكثر. من الواضح أن أحدا منا لم يعرف كيف يتعامل مع الموقف. لكن سرعان ما تولى أغرب أولئك الصبية الأمر، وأطلق صيحة مدوية طويلة يملؤها الكره، فاتحا فمه ومصوبا بؤبؤيه السوداوين إلى وجهي. كان الكره غير متوقع وكان قويا كصعقة كهربائية. لقد خرج من أعماق غير معروفة، ومن ظلمة غير معروفة، خرج من سنين ضوئية بعيدة ليتحطم أمامي، عاريا وحادا كسكين، وقد انفصل بالكامل عن الموقف والصبي، الذي شكلت رثتيه وحنجرتة وفمه مجرد وسيط بمحض المصادفة.

استدار الصبية وهربوا. جروا بشكل أخرق وطفولي متعثرين، وحقائبهم المدرسية ترتد صعودا وهبوطا على ظهورهم. وعندما شعروا بأنهم كانوا على مسافة آمنة، توقفوا واستداروا. أثار منظري وأنا واقفة في المكان هكذا، محملقة باتجاههم العديد من إيماءات السخرية من طرفهم، وبعدها انفجروا في ضحكاتهم العالية. ربما منيت محاولتهم الأولى للسرقة بالفشل، لكن هذا الجزء كان ممتعا جدا. وقفت مراقبة إياهم حتى تحركوا من مكانهم.

فتحت يدي لأجد نفسي ممسكة بالسكين. لم أستطع تذكر أنني انحنيت كي ألتقطها. وبينما كنت أنظر إليها، أدركت أن

ما حدث للتو كان مؤثرا، ومرعبا في الوقت نفسه. كانت صرخة الصبي المملوء بالكره لم تزل تدوي في أذني.

كان الوقت أصيلا. كان الغسق رائعا، والشمس تصب أشعتها السمراء الضاربة للحمرة البراقة على كل شيء. لقد خف الألم، وغادرت المكان، وأنا لم أزل أمسك بالسكين، لكنني لم أعد أعرف إلى أين كنت متجهة. لجأت إلى التنفس العميق لكبت الحادث، الذي كان من الممكن أن يحدث لأي شخص، وفي أي جزء من المدينة، وفي أي مكان. شعرت وكأنني أعيش في أكبر بيت للدمي في العالم، حيث كل شيء يكون تقليدا، ولا شيء حقيقيا. وإذا كان كل شيء غير حقيقي، إذن فلا داعي للخوف من أي شيء، هكذا فكرت، وشعرت بثقة تتبعث في خطواتي. كنت تقريبا أمشي وكأنني أمشي في الهواء.

انحلت صور مدينة «مادرودام» المصغرة أمامي مثلما تتحل شلة خيط من الصوف. لم أستطع التخلص من حقيقة أن كل شيء بدا جديدا: تلك الأشجار المقزمة التي تحاكي أشجار البلوط الضخمة، وبقع الحشيش التي تحاكي المروج الخضراء المترفة. كان كل شيء فجأة واضحا جدا، واضحا وضوح الشمس. كانت ساحة «مادرودام» في رقعة ورق الأرز. الأفق المزرق يتورد عن بعد. كان النظر إليها بهذه الطريقة، وكان قلب المدينة له شكل بيت عنكبوت مشطور جزئيا. ظهر أولا جسر «ماجير برج»، الذي كانت زركشته بالغة الدقة ذكرتني باليعسوب، ثم المتجر الصيني للسّمك في «سوق نايوو» بسمكه الذي يتلوى، ثم السوق الشعبي في ساحة «واترلو». لمعت المشاهد مارة من أمامي، هشة، شبيهة

بالشريط الزيني، الشفاف الموجود على قلنسوات رؤوس البنات في لوحة الرسام نيكولس فان دير فاي. رأيت قنوات متدلية تظللها الأشجار، ورأيت واجهات المنازل على طول القنوات - «الهيرينغراتش»، و«الكايذيرسجراتش»، و«البرينسينجراتش» و«السنجال» - تقف في صفوف رائعة كاللؤلؤ، ورأيت منتورين، وهو سوق الورد والفنون، وأخذت بمنظر المتحف النباتي الدافئ المسكر. كانت المدينة كلها ممتدة أمامي، مدينة من سماء، وزجاج، وماء. وقد كانت وطني.

رأيت أمام متحف «آن فرانك» الصغير طابورا يشبه دودة الأرض. في الداخل، وجدت نفسي أمام شاشة عرض تطرح أسئلة عن صاحبة المتحف: (١) من أول من شاركت آن في غرفتها؟ (٢) من كان عليها أن تشاركه الغرفة فيما بعد؟ (٣) ماذا كانت آن تفعل لتحبي غرفتها؟ (٤) من صنع خزانة الكتب؟ (٥) من أي بلدة هربت عائلة فرانك؟ (٦) هل كانت جميع صديقاتها من اللاجئين؟

فجأة أدركت أن المنزل في «برينسينجراتش» رقم ٢٦٣ كان يشبه بوضوح المنازل التي لازمتني في كوابيسي، وأحسست بالراحة عندما صعدت السلالم المفترضة، وفتحت وأغلقت الأبواب المفترضة، وغادرت المنزل بضغطي على زر مفتاح النجاة. لم يعد عندي شيء أخاف منه: فالنجاة كانت دائما أحد الخيارات.

تصورت محكمة لاهاي بحجم علبة الثقاب، وبقضاة صغيري الحجم يرتدون أروابا صغيرة، في وجود متهمين، وشهود صغيري



الحجم، ومستشارين بأحجام صغيرة للدفاع، والادعاء العام، وبدلاء صغيري الحجم يحاكون حياة يوجد فيها حق وباطل. في الحقيقة، لا يوجد أناس على حق وآخرون على باطل، ولا أناس طيبون وآخرون أشرار. هناك فقط التقنيات المتصلة بالأمر كله، الدوران. الشيء الوحيد الذي له تأثير هو الفعل، فالفعل هو الأمر برمته. الفعل، هو ما يدير طواحين الهواء، صغيرة ونشطة، كعصافير المدينة، وهو ما يجعل الجسور ترتفع وتنزل، والقوارب تطن عبر القنوات كذباب يتم التحكم به من بعد، وما يجعل بائعات الهوى بأحجامهن الصغيرة يفتحن ويغلقن ستائر عروضهن في المنطقة الحمراء، بأناقة ودقة تشبه بيوت التنبؤات الجوية التقليدية، وهو ما يجعل رجال الشرطة بأحجامهم الصغيرة يقومون بجولاتهم على صهوة خيولهم التي لا تزيد على حجم الفئران الصغيرة البيضاء. مادامت الستائر تفتح وتغلق، ومادامت طواحين الهواء تدور، ومادامت أشجار الزينة تنمو، ومادام الدم يتدفق في عروقنا وإلى داخل قلوبنا، فإن كل شيء سيكون على ما يرام. ولا يوجد في لغة مدينة «مادرودام» كلمات الأمر المحتوم، والقضاء والقدر. الآن، استقررت هنا في «مادرودام»، سواء كان ذلك بإرادتي أم لا، فهذا شيء علي أن أفهمه.

- ١ - ما اسم البلد الذي يقع في جنوب أوروبا وانهارت سنة ١٩٩١؟ (أ) يوغوسلافيا، (ب) يوغوسلافيا، (ج) سلوفيناكيا.
- ٢ - ما كان اسم سكان تلك البلد؟ (أ) اليوغوسلاف، (ب) المنغوسلاف، (ج) السلافويوجو. ٣ - أين يعيش الآن هؤلاء الناس

الذين اختفت بلدهم؟ (أ) هلكوا جميعا، (ب) هم بالكاد على قيد الحياة، (ج) انتقلوا إلى بلد آخر. ٤ - ماذا ينبغي على الناس الذين انتقلوا إلى بلد آخر أن يفعلوا؟ (أ) ينبغي أن يخطرطوا في تلك البلد، (ب) ينبغي أن يحافظوا على هويتهم، (ج) ينبغي أن ينتقلوا إلى بلد آخر.

يجب علي أن أفهم أن المحاكاة هي كل شيء، وإذا كانت المحاكاة هي كل شيء، إذن فأنا لست مذنب، إذ أنني هنا تحت سماء «مادرودام» المتألقة «لست مذنب بأي شيء»، والأمر برمته وجهة نظر. فالأشياء كبيرة بقدر ما نشعر أنها كبيرة، وصغيرة بقدر ما نشعر أنها صغيرة، وأنه، بالنسبة إلينا، نحن سكان «مادرودام»، فإن الغربان التي تصطف على الأسطح، أشد خطرا بكثير من صيحة الصبي المفاجئة وغير المبررة التي فاضت كرها، والتي سببت لي ألما لا يتناسب مع دلالتها.

كان الوقت أصيلا. كان الغسق رائعا، والشمس تصب أشعتها السمرء الضاربة للحمرة البراقة على كل شيء. كنت متجهة نحو الغابات، وقدماي بالكاد تلامسا الأرض. ساد هدوء غير عادي: فكل ما كنت أسمع بين حين وآخر إزيز مرور راكب دراجة هوائية. رأيت النسوة المرتديات مناديل الرأس جالسات على العشب مثل أمهات الدجاج، والصغار من حولهن. انتفخت خياشيمي من رائحة العشب المجزوز حديثا. دخلت الغابة. لم تكن الأشجار كثيفة، فتمكنت من رؤية زرقاء البحيرة من بين الأشجار. وعلى الرغم من أنه شهر أغسطس، شعرت بالخريف في الهواء. امتصصت ذلك الهواء إلى داخل رئتي أثناء مسيري.

لا أستطيع أن أحدد بدقة المدة التي سرتها أو المدة التي احتجتها للوصول إلى الأرض مقطوعة الأشجار.

... في الغابة التي كانت مغطاة بمساحات من الأزهار البرية الياضعة، وجدول شفاف غير عادي يتدفق وسطها، وأشعة الشمس الذهبية تخترق الأغصان الكثيفة المتشابكة لأشجار البلوط المحيطة. كانت تجلس على جذل شجرة قرب البحيرة فتاة معافية، قوية البنية، بعينين سوداوين. تجمع شعرها الغزير عند عنقها، وقد انسدل على جسمها المتناسق قميص صيفي من القطن الوردي، وتدلى من عنقها صليب صغير معلق بشريط أسود، وأمامها على العشب استقرت قبعة وكتاب للأغاني. كان يجلس امامها مجموعة من أطفال القرية الحلوين، وجميعهم، الصبية، والبنات، بدوا بوجوه مضطربة، فرحة، وعيون متألقة، في ملابس نظيفة ناصعة البياض، فكان النظر إليهم بهجة للنفس. كان العديد من الفتيات يضعن أكاليل من الأزهار البرية على رؤوسهن. ترفع الفتاة يدها وتصدر لحن أغنية لأفراد المجموعة الذين انتبهوا فرحين بحركة سبابتها، وما إن فتحت ثغرها الصغير حتى خرجت منه أجمل الألحان. لقد كان مشهداً رائعاً: الوجوه اليافعة الفرحية، والصبية يهزون رؤوسهم بحيوية تزامنا مع اللحن، والفتيات، وهن الأكثر استغراقاً، يرفعن ظهورهن باستقامة كالشمع، وفي وسطهن ذلك الوجه الذكي الذي يتألق بابتسامة الرضا، والعينان السوداوان الحادتان اللتان تراقبان جميع البراعم التي في عهدها. وليس ببعيد عن المعلمة جلست فتاتان تصنعان إكليلاً كبيراً من الأوراق الخضراء. وحالما انتهتا

منه، نهضتا وسارتا بخفة إليها، ووضعتا الإكليل على رأسها. وعندما انتهت الأغنية، التف الأطفال حول معلمتهم كالنحل، وهم يتصايحون بفرح بأعلى أصواتهم. نهضت المعلمة، وارتدت قبعتها، وشقت طريقها خارج الغابة عبر الحشد المشجع من الأطفال، أشبه ما تكون بجنية في إحدى حكايات الجنيات الخرافية.



# خاتمة



آلام الحنين للوطن تلك!  
ذلك الجيشان المكتشف منذ زمن طويل!  
أنا لا أبالي به تماما  
مثلما لا أبالي أين سأكون

وحدي أو كيف أجز حقييتي  
من السوق إلى منزل أو وطن  
وطن لم يعد لي أكثر من  
مشفى أو حامية؛

لا أبالي بأي نوع من الناس  
سينظرون إليّ، فالأسد المحبوس، انتصب شعره  
ولا أبالي - كما يجب أن أكون - بأي نوع من العالم  
سأنفي إليه

نفسي ومشاعري الخاصة  
مثل دب كامتشاتكا دون جليد طاف،  
لا أهتم بإعداد مكان  
(ولا أحاول) ولا أين سأكل الغراب.

ولم أفتن بأمي  
وبلغة نداء أمي، المتملقة الدسمة:  
فأنا لا أعطي شأنا كبيرا للغة قد  
يستعملها الآخرون لإساءة فهمي



(القراء وحدهم المنكبون علي  
حلب كلام الصحافة الأحمق)،  
لأنهم نتاج القرن العشرين هذا،  
وأنا آتية قبل القرون.

أنا مشدوهة مثل زند خشبي ترك ليشتعل  
على درب من الأشجار. جميع الناس  
سيان عندي، الكل سواء عندي،  
وأكثر الأشياء سواء  
وأكثرها قربا، قد يكون، الماضي.  
كل ملامحي، كل الآثار، كل التواريخ  
قد اختفت داخل مستنقعها:  
فأنا مجرد روح قد وُلدت - في مكان ما.

لقد خذلني الوطن خذلانا تاما  
لا بد أن عيون الشرطي السري الحادة  
تفتش الروح رأسا على عقب  
وستفشل في اكتشاف جذور الوطن.

كل منزل غريب، كل معبد خال،  
الكل سواء، الكل واحد، الكل مجرد قمامة.  
وإن كان ثمة شجرة بجانب الطريق  
فإنها احتمال لتكون جبل رماد ...

مارينا تسفيتافا

تكون الحياة في بعض الأحيان مربكة لدرجة أنك لا تستطيع أن تتأكد ماذا حدث أولاً، وماذا حدث فيما بعد. للسبب نفسه، لا أعرف إن كنت أسرد هذه القصة للوصول إلى نهاية للموضوعات أو بدايتها. منذ أن عشت خارج الوطن، جرّبت لغتي القومية - مثلما ترد عند الشاعر الكرواتي في شعر الوجد، هي «لغة» ذات حفيف، ترن، ترجع الصدى، وتقعقع، وترعد، وتزأر، وتدوي، كتلغثم، أو.. أو لعنة، أو تشويه سمعة، أو ثرثرة، عبارة متاجرة رتيبة خالية من المعنى. ذلك هو السبب الذي يجعلني أشعر أحياناً - وأنا محاطة بالهولنديين وأتواصل معهم بالإنجليزية - بأنني أتعلم لغتي القومية من البداية. والأمر ليس سهلاً. فأنا أبتلع الكلمات، أقذف بأحرف العلة والحروف الساكنة. إنها معركة خاسرة: إذ أفشل في إيصال ما أريد أن أقول، وما أقوله يبدو فارغاً. قد أقول كلمة، ثم لا أحس بجوهرها، أو أنني أحس بجوهرها، ولكنني لا أجد له كلمة. لا أزال أتساءل إن كانت لغة قد شوّهت بهذا الشكل، لغة لم تستطع أن تكشف الواقع قط، واقع مركب مثل التجربة الداخلية الحقيقية، ستكون قادرة على فعل أي شيء بالمرة، شيء كسر القصص، مثلاً.

لقد عاملتني الحياة بشكل جيد. لقد تعلمت كيف أبقى ستائري مفتوحة. حتى أنني أحاول اعتبار ذلك فضيلة. لقد سجلت نفسي في دورة لتعلم اللغة الهولندية. ومثل بقية زملائي، أفرط في استخدام ضمير المتكلم «أنا». فالعالم يبدأ بـ «أنا» أنا تانيا لوسيتش، أنا من يوغسلافيا السابقة، أنا أمشي، أنا أحلق، أنا أعيش، أنا أتكلم، أنا أتنفس، أنا أسمع، أنا أبكي... في الوقت

الحالي لا يلزمني ضمير المتكلم بأي شيء، فهو مثل لعبة من لعب الأطفال، مثل لعبة «الاستغماية». يقول الناس إن أسهل طريقة هي الاختفاء في العراء. في الجبال الهولندية. وراء ذلك الضمير الصلب - أنا.

صحيح، أن كواييسي عادت من جديد. أنا الآن أحلم بالكلمات، وليس بال منازل. في الحلم أتحدث لغة غير مدققة، وغير مسيطر عليها، لغة بشقلية جانبية، كلماتها تقفز مثل لعبة «عفريت العلبة» الذي يخرج متحديا إياي. كواييسي عادة مشاهد مناجاة تعكس مزاجي المتقلب. أتفحصها وأمر عليها بمشط ذي سن رفيع. إنها قائمة طويلة مؤلمة لا تنتهي من الشكايا. غالبا ما أصحو بسبب أنين مؤلم يصدر مني، أشبه ما يكون بأنين الكلب. في الحلم أملاً المكان حولي بالكلمات. تتبرعم هذه الكلمات، وتلفني مثل النباتات المتسلقة، ثم تنبت كالسرخس، وتتسلق كالنبات المتسلق، وتفتح بسعة كالزنابق، وتجتاحني كأزهار السحلبية البرية. ثم تتركني جُمل الغابة الخصبة لاهثة. في الصباح، أكون مُخرّبة، ولا أستطيع أن أفسر وفرتها المعجمية ما إذا كانت تعني عقابا، أم مغفرة.

لكن الحياة عاملتني بشكل جيد. الزوجان الأمريكيان، بول وكيم، اللذان كنت أعتني بأطفالهما أربعة أيام في الأسبوع، دفعا لي بسخاء. وقد أصبحت خبيرة في أغاني الأطفال: «أغانينا»، والأغاني الإنجليزية، وحتى بعض الأغاني الهولندية. لم يبخل بول وكيم بتعريفني إلى أصدقائهما، وأقاربهما، قائلين: «هذه تانيا، مربية أطفالنا. إنها رائعة مع الأطفال. فهي تعرف كيف تعاملهم حقاً...».

وأُمي بخير أيضا، إن كانت «بخير» الكلمة المناسبة لذلك. فهي تنتعش كلما اتصلت بها. تتحدث عن الحياة مثلما يتحدث الأطفال بعضهم عن بعض: فتخرج قائمة شكاواها، وتستمر في الحديث عن مرض السكر الذي تسميه «لعنة السكر»، والتهاب المفاصل، وارتفاع تكاليف المعيشة... وهي لا تسأل عني إطلاقا: فأنا موجودة فقط لأسجل شكاواها. لقد تصالحت مع دوري هذا، ونما عندي التعود على أن حوارنا يجري من طرف واحد. لقد تعلمت ألا أدع ذلك يؤلمني كثيرا.

لم يعد والد جوران معنا. قالت أولجا وهي تتحب على الهاتف: «كان من الممكن أن يضعوه في كيس للقمامة» «كيس للقمامة!» كان قد دخل في غيبوبة، فاتصلوا لإرسال سيارة إسعاف، لكن لم يتمكن الممرضون من إدخال الحَمَّالة إلى المصعد، مما جعلهم يلفونه ببطانية وينزلون به خمسة طوابق. مات في المستشفى بعد بضعة أيام. أخبرتني بكل التفاصيل عندما اتصلت بها معزّية. ثم أضافت بنبرة غريبة، واضعة بذلك نهاية حزينة لهذا الحدث، غير أنها فاترة: «على كل حال، كان لا بد من النهاية المحتومة». نجت «أنا» بعد عودتها إلى بلجراد لمدة أقل من سنتين، فقد كانت تعمل مع فريق تلفزيون بلجراد الذي مات في الهجوم الذي شنّه حلف شمال الأطلسي على المدينة. مازلت أحتفظ بالرسالة التي بعثتها لي بعد بضعة شهور من مغادرتها إلى هناك. لقد أرسلت ملاحظة مقتضبة تقول إنها قد وجدت وظيفة، وإنها تبلي بلاء حسنا، وإنها غلفت موضوع إنشاء قصيرا بعنوان «المحطة»، وهو إسهامها الحديث في متحفنا الخيالي عن الحياة

اليومية في يوغسلافيا . كان وصفا كثيبا للمكان الذي تتجمع فيه خطوط ترام بلجراد للاستراحة - وصفا للأصوات، ولغروب الشمس الصيفي القائنظ، ولرائحة الهواء المثلث بالغبار. كتبت: «ضعيه في حقيبتنا البلاستيكية ذات الخطوط الحمر، والبيض والزرق». لقد تأثرت بالحماسة الحلوة لتلك اللفتة. أما جيرت، فقرر البقاء في بلجراد. ليس لدي فكرة عما يعمل، أو كيف يتدبر أمر معيشتة. يتصل بي من وقت لآخر، وأستطيع أن أحكم من صوته أنني، أنا الأجنبية، كنت حلقة وصله الوحيدة بـ «الوطن». فأنا مازلت أسكن في عنوانه.

أما البقية، فيبدو أنهم متماسكون. لا يزال آنتي يعزف الأكورديون في جميع أنحاء المدينة. يقوم بذلك في «نوردماركت» كل يوم سبت. يرمي إليه المارة قطع النقود في القبعة التي أعطاها إياه ذلك الرجل من مدينة «فيروفيتيكا» الذي لديه كشك للقبعات هناك. كل «أهلنا» يعرفونه. وقد تزوجت نيفينا من أحد «شبابنا» وعندها طفلة منه الآن. وهي تعمل في أحد فروع بنك «رابو». ميليا في سراييفو. وقد تمكنت من استعادة شقة العائلة وإخراج الناس الذين كانوا يقطنونها بشكل غير قانوني. أما والداها فلم يعد لهما أي علاقة بتلك المدينة: فهما لم يعودا إليها ولو مرة واحدة منذ أن انتقلا إلى هنا. تعيش ميليا الآن مع رجل هولندي أنشأ منظمة غير حكومية لمساعدة «المستضعفين». أكمل ماريو دراسته الجامعية، ووجد وظيفة في التصميم الإلكتروني. لديه طفل أيضا. انضم بوبان إلى طائفة بوذية، وحلق لحيته، وتحول إلى نباتي، وحصل على الرعاية

الاجتماعية. كانت جوهانكي الوحيدة التي تركت الجامعة، فقد هربت أختها الكبرى. والآن تعيش مع والدها في البوسنة. لقد تحطمت حياتها. أصبح سليم متعصبا يقضي أياما عدة مع المتسكعين في متنزه «فونديل». يدمدم قائلا: «علينا نحن البوسنيين أن نضرب أولئك الصرب الأوغاد بقوة، ثم من بعدهم الكروات، وجميع الأوروبيين، والأمريكيين أيضا». أما زول، الذي جاء إلى الصف مرة واحدة أو مرتين، فيفترض أنه ذهب إلى كندا مدعيا أنه «ضحية مزدوجة» لملوسيفيتش وقنابل حلف شمال الأطلسي معا. ولكن من المرجح أنه كان يعمل مع المافيا الصربية المحلية، ثم انشق عنها وهرب للنجاة بجلده.

حصلت على كل هذه المعلومات من داركو عندما التقيته في أحد الأيام بمحضر المصادفة على شاطئ مهجور بالقرب من «واسينار». كان المشهد سرياليا. فقد عرفته بصعوبة: صار ذا بشرة برونزية، وشعر أشقر فاتح، وارتدى نظارة شمسية أنيقة وحمل جهاز موسيقى. كان على صهوة حصان. بدا كأنه عارض أزياء لدى «كاليفين كلين»، أو، بالأحرى، محاكاة هشة له. أخبرني بأنه يأخذ دروسا في ركوب الخيل في نادي «واسينار» للفروسية. كان أحد أصدقائه رجلا أعمال أمريكيا ناجحا، وكانت له علاقات بمجتمع المثليين. ولكنه الآن ترك تلك الحياة الفاسقة، التي طالما تحدث عنها صراحة، واستقر في منزل في «ريجيويرسلاتش». والشكر هنا لصديقه الذي طيّر مليوننا كاملا على ذلك المنزل، نعم، مليون دولار ...

قال: «اكتشفت أنني أحب ركوب الخيل». ثم أضاف، وهو ينظر إليّ بحنان: «سجلي في أي دورة هنا، أي دورة - يوجا، أو رقص السالسا، أو أي شيء آخر. هذا ما أقوله للجميع. ومادام الأمر يتضمن تمرينا بدنيا، فإنه سيعود بفائدة جمّة عليك».

قلت: «أنا أتعلم اللغة الهولندية الآن».

قال، كأنه يخاطب شخصا في مكان آخر: «هذا جيدا».

عندئذٍ لمحت انعكاس صورتني على نظارته الشمسية، وسرت قشعريرة في عمودي الفقري: لقد كان في النظارة وجهان يلتمعان في العدستين، ولم يكن وجهي من بينهما.

ولكن أغرب تلك القصص كانت قصة إيجور. يقول الناس إنه ذهب إلى آخر مدى. بداية حصل على وظيفة مترجم في محكمة لاهاي، حيث، لم يكن الوحيد - بالمناسبة - من جماعتنا في تلك الوظيفة. لكنه طرد من ذلك العمل لأنه توقف عن الحضور. ثم في أحد الأيام وُجد - أو الأقرب للحقيقة، أنه وجد نفسه - في مطار ما أو آخر، في «كلكتا»، أو «كوالالمبور»، أو «سنغافورة». قيل إنه كان يعاني أعراضا تظهر بعد صدمة عاطفية عنيفة تحمل اسم عظيم، اسم موسيقى الفوجا، «الفوجا الفصامية». نوبات أعراض الفوجا تظهر عادة بعد رحلة مفاجئة. وتستمر مدة تتراوح بين بضعة أيام وبضعة شهور، وتسبب فقداننا كاملا للوعي، ويكون على المصاب بها أن يخترع هوية له، فهو لا يدرك من هو، ولا من أين. وعندما يعودون إلى حالتهم الطبيعية، لا يتذكرون أي شيء حدث لهم أثناء «الفوجا الفصامية». إنها حالة مرضية جنونية من الضياع ثم العودة، لم يسمع بها أحد من قبل. ويدعي بعض الأطباء

النفسيين أن «الفوجا الفصامية» لا تحدث هكذا، وأن سببها هو الإفراط في تناول الخمر. قد يكون الأمر كذلك، ولكن داركو لا يتذكر أن إيجور كان مفرطاً في الشرب. لم يعرف أحد أين كان أو كيف كان يدبر أمره. ربما عاد إلى الوطن. أما الآخرون، فقد ذهب كل في طريقه. لقد فقدوا التواصل فيما بينهم.

قال داركو، بصوت فيه مسحة مرحة مفرطة بعض الشيء: «بالمناسبة، لقد توصلت إلى اكتشاف آخر».

«وهو؟»

رد مشيراً إلى جهاز الموسيقى: «الأوبرا. أنا مولع بفيردي».

توقف واسترخى بخفة ملحوظة، وقد غشا وجهه الطفولي الناعم الوسيم طيف رقيق.

قال متردداً، كأنه يبصق الرمل من فمه: «إنها تلك الليلة مع يوروش... بعد ذلك العشاء عندما احتفلنا بعيد ميلادك، أتذكرين ذلك؟».

قلت: «أذكر ذلك».

«حسناً، أوصلته إلى البيت، (...)، لقد كنا ثملين...».

«لماذا تخبرني بهذا؟»

هز كتفيه.

«لا أعرف... إن ذلك يسبب لي إزعاجاً مستمراً...».

فيما يتعلق بمحكمة لاهاي، تتراكم الأضابير، وكومات الورق تتزايد؛ وأشرطة فيديو المرافعات يمكنها أن تغطي طول وعرض الأرض التي اختفت. في حقيقة الأمر، يبدو أن كل خسارة تم العناية بها، سواء كان ذلك بعبارات واقعية، أو ساخرة، أو غريبة.



لقد شفيت جراح البعض إلى حد بعيد، عند آخرين مازالت هزيلة، لكنها على كل حال تشفى. حتى الندوب بدأت تتلاشى. الكل موجود في مكان ما، والبعض يقومون بما يجيدون عمله، بينما يبذل آخرون أقصى جهودهم. كانت الحياة أكثر كرما مع البعض من غيرهم، ولكن كل فرد وجد موضعا مناسباً له. لم يحص عدد القتلى والمختفين حتى الآن، والعديد من مرتكبي الجرائم مازالوا طلقاء، والكثير من الحطام لم يزل موجودا بعد، ولم يتم إبطال مفعول العديد من الألغام، لكن العاصفة هدأت. تستمر الحياة وهي في الوقت الحاضر، على الأقل، جيدة للجميع.

يوما ما سوف يمثل أمام محكمة لاهاي أكبر المجرمين على الإطلاق، وسوف أذهب لألقي نظرة عليه. سوف يكون مرتديا بدلة رمادية، وقميصا أبيض، وربطة عنق حمراء ساطعة. سيكون لون ربطة العنق مماثلا للون روب القاضي. سيجلس المتهم في القفص الزجاجي، وفكه مشدود، وفمه على شكل حدوة مقلوبة. سوف تُبَيَّن ساعة الحائط الوقت، ولكنه لن يكون الوقت نفسه في العالم خارج المحكمة. سوف أصدم عندما أكتشف أنني خلال السنوات القليلة التي مضت نسيت كل شيء، وأنني أستطيع - بصعوبة - أن أتذكر أسماء الناس الذين عبثوا بحياتنا كثيرا. سوف يتولد لدي الشعور بأن مائة سنة مرت منذ اندلاع الحرب، وليست تسع أو عشر سنوات. سوف أجابه نسياني وجها لوجه بإحساس عميق بالرعب. سوف يتحدث الرجل ذو رابطة العنق الحمراء بلغة لم أعد أفهمها. وسوف أتذكر التفاصيل الآتية: كان

المتهم يتصفح الاورق التي أمامه، وهو يلحس أصابعه مثل صاحب دكان في القرية؛ وسوف يرفع رأسه كأنه يريد شم الهواء الموجود حوله، ثم ينحرف بنظره إلى قاعة المحكمة؛ وفي تلك اللحظة سوف تلتقي العينان اللتان خلف الزجاج بعينيّ، وسوف تكون هاتان العينان معتمتين، وبليدتين وخاليتين من أي تعبير. سوف يذكرني فكه المشدود بإحكام، ونظرته الباهتة، بدب قطبي؛ بعد ذلك سوف يرفع كفه ويطرد الذباب غير المرئي عن أنفه، قبل أن يعود إلى النظر أمامه مشدوها.

في بعض الأحيان أفكر في يوروش، وأرجح أنه اتخذ القرار المناسب. يأخذ معه أقلامه، ووسائله، وقبعات اليرملك المخملية، واحدة لكل يوم في الأسبوع. ينظف أسنانه، وإن سمحت الظروف، يستدير ليتجه نحو حائط المبكى المقدس. متعرقا كمحاسب منهمك في حساباته، يكتب مظالمه، وصلواته على قصاصات من الورق. يلفها في أنابيب صغيرة، ثم يحشرها داخل الشقوق بين حجارة الحائط.

قال إيجور: «نحن نخرج من كل ما مررنا به من خلال واحدة من ثلاث طرق». «إما نخرج أحسن، وإما أسوأ، وإما مثل يوروش - برصاصة في الجمجمة». وأنا لا أعرف أين أقف الآن، فيما عدا أنني طرحت الرصاصة جانبا.

وبمناسبة الحديث عن إيجور، لم أخبر داركو أنني أعرف عن ظروفه أكثر مما أخبرني في ذلك اليوم على الشاطئ. وأحد الأسباب هو أن البلاغ الذي أعطيته إلى الشرطي لم يصل إلى إيجور قط. فمن المؤكد أن الشرطي الذي جاء إلى شقتي شعر

بأنه فعل كل ما يجب عليه فعله بفك القيود عن يديّ. لقد كان محقا، إذ إنني استخففت بفطنته.

يعمل إيجور حاليا مع بعض البنائين الأيرلنديين. يجيد الأيرلنديون الأعمال اليدوية، فهم نجارون مهرة. إنهم يجددون البيوت والشقق، ويهدمون الجدران ويبنونها من جديد، ويسحبون كل الخردة التي تجمعت عبر السنين، ويقومون بجميع ما يلزم. والأمر ليس أن أمستردام ينقصها «أهلنا»، ولكن إيجور يريد أن يبتعد عنهم. تعود إيجور على القيام بهذا العمل اليدوي الصعب حديثا إلى حد ما. إنه يضع كل ما يملك من جهده في هذا العمل، كأنه يستخدمه ككفارة لشيء ما. ربما هو مدفوع بالفكرة المجنونة، وهي أنه بعرق جبينه يستطيع أن يعيد نوعا من التوازن، وأنه بكل جدار يبنيه هنا، سينهض واحد هناك من تحت الحطام، في قرى البوسنة، أو كرواتيا، أو أي مكان يحتاج إليه.

الحياة عاملتنا بشكل جيد. يغادر إيجور البيت ويعود إليه مبكرا. يتوجه مباشرة إلى الحمام، وينظف ما علق به في أثناء العمل، ويرتدي ملابس نظيفة، ويطوي أكمام قميصه، ثم يأخذ مكانه على طاولة الطعام. أقدم وجبة طازجة. نأكل ببطء وبغرامة متناهية، ونتكلم قليلا. كلماتنا جافة كالرمل، وأنا أحب كونها كذلك. ربما أصبحنا كالهولنديين. يقال إن الهولنديين يتكلمون فقط عندما يكون لديهم شيء ليقولوه.

أحيانا يكون لقلقي اليد الطولى. وعندما يحدث ذلك، آخذ حقيبتي، وأرمي بمعطف على كتفيّ، وأغادر الشقة على

عجل. توقف إيجور عن عرضه للذهاب معي، إذ إنه يمنحني حرية القرار، وهو يعرف إلى أين سأذهب. عادة ما أذهب إلى الشاطئ، واحد من تلك الشواطئ الرملية الطويلة. فأنا أحب الشواطئ الهولندية المهجورة في أواخر الخريف، وفي الشتاء. أقف هناك محمقة في البحر الرمادي والسماء الرمادية، أقف هناك مُسمّرة في مواجهة جدار خيالي. ثم أفتح فمي وأنطق بالكلمات، ببطء في البداية، ثم بتسارع أكثر وصوت أعلى. أرجح لساني مثل تين في قصة خرافية، فتتشعب منه ألسنة كروايتية، وصربية، وبوسنية، وسلوفينية، ومقدونية... وبينما أنا أمام الجدار غير المرئي، أدفع رأسي في الريح بطريقة إيقاعية وأتكلم. وبينما الريح تلفني، وقد طبعت في المنظر الطبيعي مثل مشاهد عرض في آلة الشرائح، أنا، المعلمة فخر جيلي، أقول ما ينبغي عليّ أن أقوله، أردد دعائي البلقاني. أفرز الكلمات من فمي مثل حبر الحبار. أرسل الأصوات إلى المجهول مثل رسالة في قنينة. وبعد أن أرميها في مهب الريح، أشاهدها تتطاير في الهواء. أراقبها وهي تلتف في أنابيب صغيرة، وترسم حلقات، وتتقضم غاطسة في جدار الماء، حيث تذوب في الحال. مثل الملح. وعندما تستسلم أوتاري الصوتية، وعندما تفقد جبهتي الإحساس بسبب الريح، أترك الشاطئ، وقد ملمت نفسي، من دون أن أخلف أي أثر البتة.

الأفق الهولندي نافع، فهو أشبه ما يكون بورق النشّاف الذي كنا نستعمله عبر السنين في المدرسة، إنه يمتص كل شيء...

ليتك تُلعن في هذا العالم والعالم الآخر.  
ليتك لا تعيش لترى شروق الشمس.  
ليت النسور تلتهمك.  
ليتك تختفي من على وجه الأرض.  
ليتك تمشي في حقل أشواك وأنت حافي القدمين.  
ليت الله يجعلك أنحف من خيط وأكثر سوادا من قدر.  
ليتك تحصد المر أينما زرعت الريحان.  
ليت الشيطان يعذبك.  
ليت الشيطان يلحق حساءك.  
ليت الشيطان يُمَلح حساءك.  
ليت الغربان تتعب عليك.  
ليت دمك يسبب لك الألم.  
ليتك تتلوى من الألم.  
ليت البرق والرعد يصعقك.  
ليت البرق يصعقك ويفصلك إلى نصفين.  
ليتك تنه في الأرض أعمى.  
ليت أفعى تلدغك في القلب.  
ليتك تعاني كدودة تحت اللحاء.  
ليتك تغرق في ماء راكد.  
ليت قلبك يتمزق وينفجر.  
ليت سهما ينفذ من قلبك.  
ليتك لا ترى ضوء النهار ثانية.  
ليت الجميع يتخلون عنك.

ليتك تفقد كل شيء عدا اسمك .  
ليتك تمحى من الجذور .  
ليتك تصبح أصم، أبكم .  
ليت حياتك تصبح جرداء قاحلة .  
ليت أفعى تلف نفسها حول خصرك .  
ليت أفعى تلتهمك مرة واحدة .  
ليت الشمس تحرقك وأنت على قيد الحياة .  
ليت سكرّك يصبح مرا .  
ليت فمك وعنقك يتبادلان الأمكنة .  
ليتك تختنق بالخبز والملح .  
ليت الشيطان يصيبك بالطاعون .  
ليت الله يفعل بك ما فعلته بي .  
ليت البحر يرمي بعظامك على الشاطئ .  
ليت العشب ينمو بين عظامك .  
ليتك لا ترى إلا سوادا، وليت عينيك تبيضان .  
ليتك تتحول إلى غبار ورماد .  
ليت الله يحرق عينيك ويبقي محجريهما .  
ليت فمك لا ينطق كلمة .  
ليت اللعنة تحط عليك .  
ليتك تبول دما وقطرانا .  
ليت جرحا حيا يلتهمك .  
ليت النار تلتهمك .  
ليت المياه تفيض من فوقك .

ليتك تحترق حتى الموت.  
ليتك ترقد في قبر بلا حراك لمائة عام.  
ليتك لا تتزوج ولا تعرف المتعة.  
ليتك يكون مصير اسمك النسيان.  
ليتك لا ترى الشمس.  
ليتك تموت من الصدا .  
ليتك تصعق بالرعد والبرق.  
ليتك تقتل كل يوم في السنة.  
ليت وجهك يتحول إلى قار.  
ليت جذورك تجف.  
ليتك تتفجر.  
ليتك تعلق الرماد .  
ليتك تتحول إلى صخر.  
ليت قلبك يتحول إلى صخر.  
ليتك تموت في الظلمة.  
ليت روحك تسقط منك.  
ليتك تختفي في كسوف.  
ليتك تأكل ولا تشبع.  
ليتك تقع ميتا على قارعة الطريق.  
ليت أفراحك تتحول لنواح.  
ليتك تنجرف دون مستقر.  
ليتك تفقد السمع والنطق.  
ليتك لا تملك شيئاً .

ليتك تذبل من الجذور.  
ليتك تبكي لحليب أمك.  
ليت الأرض تلفظ عظامك.  
ليت الديدان تلتهمك.  
ليتك تفقد روحك وأظافرك.  
ليتك لا يكون لك ضيف طول الحياة.  
ليتك لا ترى منزلك مرة أخرى.  
ليتك لا تجد الخبز عندما يكون لديك الملح.  
ليتك تتحول إلى خشب وصخر.  
ليت صخرة تسقط على قلبك.  
ليت تمنياتي الحارة تقتلك.  
ليتك لا تسمع مرة أخرى.  
ليت ضفدعا يبول عليك.  
ليتك لا تنهض من نومك في المرة القادمة.  
ليت دموعي تقتلك.  
ليت شمعتك تنطفئ.  
ليت أيامك تسود.  
ليت لسانك يتوقف عن النطق.  
ليت البؤس يبتسم لك.  
ليتك تترك عظامك خلفك.



## المؤلفة

## في سطور

## المترجم

## في سطور

## المراجعة

## في سطور

### دوبرافكا أوجارييسك

- كاتبة روائية كرواتية.
- ولدت في ٣ مارس ١٩٤٩ في مدينة «كونتين» في كرواتيا.
- ألّفت العديد من الروايات الأدبية، وعددها ١١ رواية.
- حازت العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية، أشهرها جائزة الدولة النمساوية في الأدب الأوروبي سنة ١٩٩٩.

### أ.د. محمد فرغل

- من مواليد بلدة سوف (الأردن) العام ١٩٥٦.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغويات من جامعة إنديانا الأمريكية - بلومنجتون العام ١٩٨٦.
- عمل أستاذاً للغويات والترجمة في جامعة اليرموك لمدة خمسة عشر عاماً قبل أن يلتحق بجامعة الكويت منذ العام ٢٠٠١ حتى الآن.
- نشر عشرات الأبحاث اللغوية في المجلات العلمية الإقليمية والعالمية.
- ألف العديد من الكتب آخرها كتاب بالإنجليزية يدور حول قضايا الترجمة بين العربية والإنجليزية.
- ترجم العديد من الأعمال الأدبية والمقالات العلمية آخرها رواية الطريق للكاتبة الأمريكية كورماك مكارثي (إبداعات عالمية أكتوبر ٢٠٠٩).
- حصل على جائزة عبدالحميد شومان للعلماء العرب الشباب (الأردن) في العلوم الإنسانية العام ١٩٩٣. كما حصل على جائزة الباحث المتميز في العلوم الإنسانية من جامعة الكويت العام ٢٠٠٦.

### د. سامية دياب

- من مواليد جمهورية مصر العربية ١٩٥١.
- حاصلة على دكتوراه علم الفولكلور والأدب الشعبي - جامعة أودفش لوراند - بودابست - المجر العام ١٩٩٠.
- لها عدة كتب مترجمة وهي: عندما جاء السرددين (القصة القصيرة في منطقة جنوب أفريقيا) - مسرحيتا: اللص الفاضل، واحد عريان وواحد في بدلة السهرة - كيف ظهرت النجوم (قصة للأطفال) - الفولكلور في الأرشيف - الدمية (رواية) - مونولوجات نسائية.
- كما لها عدة مقالات منشورة في المجلات.

## إمدارات قادمة

مجموعة قصص أفغانية

تأليف: محمد آصف زاده

ترجمة: د. زبيدة أشكناني

مراجعة: أ. عبدالقادر عقيل

ترجمت عن الفارسية

---

نون و القلم	318	تأليف : جلال آل أحمد
سيرى سامبيجي	319	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
أيام بورمية	320	تأليف : جورج أرويل
ست وصايا للألفية القادمة	321	تأليف : ايتالو كالفينو
السكرتير الخصوصي	322	تأليف : ت. س. إليوت
قصص برازيلية	323	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
شذرات من خطاب في العشق	324	تأليف : رولان بارت
لون الماء	325	تأليف : جيمز ماكبرايد
وجهان لحواء	326	تأليف : أمريتا بريتام
المنزل ذو الشرفات السبع	327	تأليف : اليخاندرو كاسونا
من الأدب الباكستاني الحديث	328	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
مختارات من القصة التركية المعاصرة	329	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
مسرحية محكمة العدل في بلخ	330	تأليف : بهرام بيضائي
مطبـخ - خيالات ضوء القمر	331	تأليف : بنانا يوشيموتو
الطباخون الأشرار	332	تأليف : جونتر جراس
الجرة المكسورة	333	تأليف : هاينرش فون كلايست
شمل تشابه ضائع	333	تأليف : أندريه شديد
حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	334	تأليف : فلاديمير هلباتش
زهرة الصيف	335	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
طام - طام زنجي	336	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
اليبروح	337	تأليف : نيكولو ماكيافلي
منزل النور	338	تأليف : جوهر مراد
كثبان النمل في السافانا	339	تأليف : تشنوا أشيبي
أناطول وجنون العظمة	340	تأليف : أرتور شنييتسر
غرام ميتيا	341	تأليف : إيفان بونين
أرنجندين والحارس الليلي	342	تأليف : فيمي أوسوفيسان
ورقة في الرياح القارسة	343	تأليف : تنغ - هسنگ لي
مدرسة الدكتاتور	344	تأليف : إيريش كستنر
رسائل عيد الميلاد	345	تيد هيوز
حكايات وخرافات أفريقية (1)	346	تأليف : سليمان جيغو ديوب
الطفل الملك		
مسرحية عذراء أورليان	347	تأليف : فريدريش شيللر
حكايات وخرافات أفريقية (2)	348	تأليف : سليمان جيغو ديوب

الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349 القصة القصيرة الإسبانية الأمريكية	تأليف: مجموعة من القاصين
350 في القرن العشرين	المتحدثين بالألمانية
350 مسرحيتا: - 1 محنة الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351 - 2 تحول الأخ جيرو	تأليف: أو. هنري
352 روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: ب. بريشت
353 مسرحية «أنتيجون»	تأليف: هنري برونل
354 أجمل حكايات الزن	تأليف: لاوشه
354 يتبعها فن الهايكو	تأليف: برايان فرييل
355 مسرحية «المقهى»	2-ترجمات
356 مسرحيتا: - 1 صناعة تاريخ	تأليف: ج. م. كويتتزي
357 رواية «الشباب»	تأليف: مجموعة من الشعراء
357 مختارات من الشعر المجري المعاصر	المجريين
358 (شعراء السبعينيات)	
358 مسرحيتا: - 1 تلاميذ الخوف	تأليف: إيجون وولف
359 - 2 الغزاة	تأليف: وليام سارويان
360 اسمي أرام (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من القاصين
360 حامل الإكليل (قصص مختارة)	المتحدثين بالألمانية
361 الصورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362 الأيام الخمسة الأخيرة لرسول	تأليف: تحسين يوجل
363 (رواية)	
363 سبع مسرحيات ذات فصل واحد	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي
363 (من بولندا)	أندجي ماليشكا
364 سبع نساء... سبع قصص	ستانيسلاف ليم (ستانيسواف)
365 زمن الضحك	سوافومير مروجيك
365 (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: مجموعة من القاصات
366 بالأبيض على الأسود	الفارسيات
366 (رواية)	تأليف: نويل كاورد
367 مسرحيتا: - 1 سهرة في المقهى	تأليف: روبين دايشيد
368 - 2 موت ممثل مشهور	غونساليس غاليغو
368 امرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها»	تأليف: تيان هان
سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباتي با
373	الليلة التي أمضاها ثوروفي	تأليف: جيروم ثورنس
	السجن (مسرحية)	وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني	تأليف: مجموعة من الشعراء
	الحديث	الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيك علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيك علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة	تأليف: مجموعة من الأدباء
	الأوزبكية	الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لارنست	تأليف: إرنست همنغواي
	همنغواي (الجزء الأول)	
384	المجموعة القصصية الكاملة لارنست	تأليف: إرنست همنغواي
	همنغواي (الجزء الثاني)	
385	المجموعة القصصية الكاملة لارنست	تأليف: إرنست همنغواي
	همنغواي (الجزء الثالث)	
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا

# قسمة الاشتراك

البيان		إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
		د.ك.	دولار	د.ك.	دولار	د.ك.	دولار	د.ك.	دولار
المؤسسات داخل الكويت		٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت		١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
للمؤسسات في دول الخليج العربي		٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي		١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
للمؤسسات في الدول العربية الأخرى		-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
لأفراد في الدول العربية الأخرى		-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي		-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي		-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

جاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك  تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدًا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد دولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

# قائمة الصحف

فاكس	تليفون	العنوان	وكيل التوزيع الحالي	دولة
4826823	24826820/1/2 24613872 /3	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص.ب 64185 - الرمز البريدي 70452	المجموعة الإعلامية العالمية	الكويت
00971 2660337	00971 242629273	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubai Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	الإمارات
0966 (01) 2121766	00966 (01) 2128000	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	الشركة السعودية للتوزيع	السعودية
00963 2128664	00963 112127797	سورية - دمشق - البرانكة	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية
00202 5782632	00202 25782700- 25782632	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص.ب 372	مؤسسة دار أخبار اليوم	مصر
00212 22249214	00212 522249200	المغرب - الرباط - ص.ب 13683 - زنفة سجلماسه - بلفدير - ص.ب 13008	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب
00216 1323004	00216 71322499	تونس - ص.ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	الشركة التونسية للصحافة	تونس
61 1653260	00961 1666314/5 01 653259	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	مؤسسة نغوع الصحفية للتوزيع	لبنان
67 1240883	00967 2/3201901	الجمهورية اليمنية - صنعاء	القائد للنشر والتوزيع	اليمن
00962 5337733	00962 65300170 - 65358855	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	وكالة التوزيع الأردنية	الأردن
00973 17 480819	00973 17 480801	البحرين - المنامة - ص.ب 10324	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف	البحرين
4493200 00968	00968 24492936	ص.ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذبية - سلطنة عمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	سلطنة عمان
00974 4557819	00974 4557809/10/11	قطر - الدوحة - ص.ب 3488	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر
00970 2964133	00970 22980800	رام الله - عين مصباح - ص.ب 1314	شركة رام الله للنشر والتوزيع	فلسطين
002491 3242703	002491 83242702	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان
00213 (0) 1909328	00213 (0) 31909590	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	الجزائر
-	-	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	شركة الازدهار للتوزيع	البحرين
18 4725493	00718 4725488	Long Island City. NY 11101 - 3258	Media Marketing	الولايات المتحدة
08 7493904	(0) 0044 2087499828 0044708 7423344	Universal Press & Marketing Limited	Universal Press	الهند

# سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط. وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتتطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترحة ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.



٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعاً على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق. وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.



المجلس  
الوطني  
للثقافة  
والفنون  
والآداب

## موطن الألم

نتعرف في هذا العدد على كاتبة روائية كرواتية معاصرة، تعيش الآن في هولندا، وقد أبدعت هذه الكاتبة بروايتها «موطن الألم»، أو كما يحلو للبعض تسميتها بـ «وزارة الألم»، حيث إنها تناقش قضية النزوح الكبير من يوغسلافيا السابقة إلى الخارج بعد اندلاع الحروب العرقية بين مختلف طوائف البلد من صرب وكروات وبوسنيين، وغيرهم سنة ١٩٩١.

تدور جل الأحداث المادية في هذه الرواية بمدينة أمستردام الهولندية؛ حيث لجأ إليها كثير من اليوغسلاف لأسباب مختلفة. ويشكل اللاجئين اليوغسلاف في أمستردام معظم الشخصوخ في هذه الرواية، منها الدكتورة تانكا (تانيا)، والطلبة «إيجور» و«ميليها» و«أنا» و«جوهانكي».

وسيلحظ قارئ الرواية أنها تحكي قصة ضياع وفقدان هوية، وتناقش مواضيع إنسانية غاية في الأهمية، تتعلق بتداعيات العيش في المنفى من خلال النموذج اليوغسلافي، بالإضافة إلى هاجس العودة إلى الوطن.

وهنا أيضا تقدم الرواية صورة سياسية متعمقة عن حقبة النظام الشيوعي في يوغسلافيا، وما رافقها من فساد وظلم واستبداد، أدى في نهاية المطاف إلى بزوغ النزعات العرقية المقيتة وتفسخ الدولة اليوغسلافية.

وتنتهي هذه الرواية من حيث التصنيف الأدبي إلى ما يسمى بـ «أدب المنفى». وأخيرا وليس آخرا نشرت هذه الرواية باللغة الكرواتية في العام ٢٠٠٤، وترجمها «مايكل هنري هايم» إلى اللغة الإنجليزية في العام ٢٠٠٨، كما أن هناك ترجمة إنجليزية أخرى نشرت في ٢٠٠٥.